من الشرق والغرب

أصل المجتمعات المتحضرة

تأليف
رشتون كولبورن

ترجمة
لمعي المطيعي

مراجعة
محمود فتحي عمر



الفصل الأول

الإنسان المتحضر وتاريخه

للمجتمعات المتحضرة من العمر ، ما يقرب من ستة آلاف وخمسمائة من السنين . ولا مجال للشك في أن الحضارة هي أعظم عمل اجتماعي أنجزته البشرية حتى الآن . وعلى حسب المقياس الذي نستخدمه في هذه الدراسة للتفريق بين المجتمعات ، يوجد أربعة عشر مجتمعا متحضرا ، أو أكثر من هذا الرقم بقليل اذا ما أحصينا بعض أشكال اجتماعية صغيرة ، ومن بين هذه المجتمعات الأربعة عشر الآن أربعة مجتمعات متميزة تماما ، كما توجد بقايا لمجتمعات قليلة في أشكال ظاهرة أو غير ظاهرة .

وقد قصرنا هنا كلمة « متحضر » على المجتمعات الكبيرة حتى يمكن ادراك مفهومها على الفور كما قصرنا كلمة « حضارة » على الدرجة العالية من التراث الانساني .

وأقدم مجتمعين متحضرين هما المجتمع المصري ، والمجتمع العراقي ، ومن المحتمل أن تكون حضارتهما تلك قد نشأت في وادي نهر النيل ووادي دجلة والفرات على التوالي قبل ميلاد المسيح بخمسة آلاف عام .

وقد نشأ المجتمع الهندي بادىء الأمر في وادي نهر السند . حيث يجري النهر مخترقا اقليم السند واقليم البنجاب ، وفي واد جاف مجاور لنهر السند يطلق عليه اسم وادي « مهران العظيم » .

أما المجتمع الكريتي نسبة الى جزيرة كريت الذي امتد الى صقليه وجزر البلوبونيز وما وراءها فقد نشأ حوالي عام ٣٠٠٠ ق . م ، أو قبل ذلك ببعض الوقت .

أما المجتمع الصيني فقد نشأ فى « وادى النهر الأصفر » وعلى روافده فى شمالى الصين حيث يمر النهر بين « شنسى » و « شاتسى » مخترقا اقليم « هونان » ، وليس يعرف على وجه التحديد متى نشأ ذلك المجتمع ، ومن المرجح أن يكون قد نشأ فى النصف الأول من الألف الثالثة قبل الميلاد •

وثمة مجتمعان آخران فى العالم الجديد ؛ هما : مجتمع أمريكا الوسطى الذى نشأ فى مكان ما داخل منطقة عريضة تبدأ فى الشمال بولايات المكسيك وفيراكروز ، وجوانجواتو ، وميشوكان وجزء كبير من المكسيك يمتد الى جهة الجنوب والشرق ، وهندوراس البريطانية ، وجواتيمالا ، وهندوراس وجزء من سلفادور • وأصبح من الواضح أن ذلك المجتمع قد انتشر كثيرا داخل هذه الرقعة من الارض منذ الأيام الأولى لوجوده •

ونشأ مجتمع « الانديز » ــ على الأغلب ــ فى وديان الأنهار الثلاثة التى تجتاز الجزء الشمالى من صحراء بيرو الساحلية ، وهى أنهار شيكاما وموش ، وفيرو وأنهار أخرى •

وامتد هذا المجتمع الى وديان ما يقرب من خمسة وثلاثين نهرا تخترق الصحراء صوب الجنوب ، كما امتد الى أعالى سلسلة جبال الأنديز وقد نشأ هذان المجتمعان خلال الألف الثانى قبل الميلاد ومجتمع أمريكا الوسطى فى بدايته ، ومجتمع الأنديز فى نهايته •

واستنادا الى آراء « توينبى » و « الفريد ويبر » أستطيع أن أسمى هذه المجتمعات السبعة « بالمجتمعات المتحضرة الأولى » ، اذ أنها أقدم المجتمعات المتحضرة ويعالج هذا الكتاب كيف نشأت هذه المجتمعات السبعة المتحضرة ؟ ، وبمعنى آخر كيف بدأت الحضارة الانسانية ؟ •

لقد نشأت هذه المجتمعات فى ظروف خاصة جدا ، أهمها تغير المناخ فى مناطق معينة عند نهاية العصر الجليدى الأخير (البليستوسين) وهذه المناطق هى اليوم صحراء جرداء ، وقد دفع تحولها الى هذه الحالة الجافة بعض البشر من سكانها الى سلسلة طويلة من التغييرات الثقافية والاجتماعية ، والى الهجرة فى اتجاهات مختلفة ، ترتب عليها كلها تكوين المجتمعات المتحضرة •

أما الفصل الثانى فهو عرض لتغيرات المناخ ، ونشأة ثقافة العصر

الحجرى الوسيط (الميزوليثى) وانتشارها ، ويعرض للزراعات البدائية التى سبقت تكوين « المجتمعات المتحضرة الأولى » ٠

أما الفصلان الثالث والرابع فيتضمنان فحصا « فزيوغرافيا » طبيعيا للمجتمعات السبعة وبيانات أركيولوجية تلقى ضوءا على كيفية استقرار المجتمعات فى أماكنها تلك ٠

ومن الاعتبارات ذات الأهمية الكبرى فى شأن أصل هذه المجتمعات الصعوبة التى واجهها سكان البقاع التى قامت فيها اذ لم تكن تلك البقاع مأهولة بالسكان بشكل منتظم قبل أن يفد عليها مؤسسو المجتمعات السبعة أو اسلافهم المباشرون الذين رسخت أقدامهم هناك ٠

وأعتقد أنه خلال عملية الهجرة والاستيطان تكونت ديانات جديدة في البقاع التى سكنتها هذه المجتمعات ٠

ويتضمن الفصل الخامس تمحيصا لصحة ذلك الرأى ، كمايتضمن الفصل الافتتاحى مناقشة تمهيدية للأساس الذى يقوم عليه افتراض نشوء الأديان منذ قيام تلك المجتمعات ، ويعد هذا الفصل فى حقيقة الأمر تحضيرا لمادة الكتاب الرئيسية بشكل أكثر مما اعتدنا أن يكون عليه فصل التمهيد ، ذلك لأنه من الضرورى أن نعرض الظروف التى نشأت فيها هذه المجتمعات وحقيقتها ، غير أن أيا من هذه الموضوعات ليس معروفا لنا معرفة تامة ، كما أنه ليس ثمة اتفاق بين الباحثين حول ما هو معروف عنها ومن الضرورى لتوضيح ذلك بطريقة مثمرة أن نلم سلفا بمحتويات الفصول التالية كلما سنحت الفرصة لذلك ، ولن نحاول أن نلقى بافتراضات جديدة لاتجد ما يبررها فيما بعد فى ثنايا الكتاب ٠

وربما كان كل من المجتمع الهندى والصينى قد مر فى ثلاث دورات متعاقبة من النشوء والازدهار ، ثم الانهيار ، غير أنه من المحتمل أن يكون المجتمع الصينى قد مر فى دورتين فقط ، وما حدث فى القرون الأولى بالنسبة لهذا المجتمع ما زال غامضا ، ونحن نستخدم كلمة « دورة » فى هذه الدراسة دون أن يكون لها لدينا مضمون ميكانيكى ، أو معنى رياضى بل باعتبارها كلمة عامة تعبر عن حركات الصعود والهبوط المميزة للتطور التاريخى للمجتمعات المتحضرة ٠

وتخلت المجتمعات الثلاثة التى قامت فى الجزء الغربى من العالم القديم عن أماكنها لمجتمعات جديدة ، وبرغم أن المجتمع المصرى والمجتمع

العراقى قد مرا فى دورتين معروفتين فمن المرجح أن يكون المجتمع المصرى قد مر فى شبه دورة ثالثة ، والمجتمع العراقى فى دورة ثالثة بالفعل ، تطور فيها شكل الحضارة الى حد يحدو بى أن أغير اسم تلك الدورة الى « المجتمع الايرانى » •

والواقع أن توالى الدورات فى مجتمعات الجزء الغربى من العالم القديم قد شكل مسألة معقدة تعقيدا كبيرا بفعل عدد من المؤثرات كان أقواها اتصال هذه المجتمعات فى امتدادها بغيرها مما أدى الى التشابك والتداخل ، وغالبا ماكان ذلك مصحوبا باستخدام القوة ، فى نطاق واسع وكان من بين نتائج هذا كله توحيد التراث ، واعادة تشكيله بين مجتمعين أو أكثر ، وظهور حضارات جديدة ليس ثمة مبرر لأن نطلق عليها أيا من أسماء الحضارات التى انحدرت عنها •

ولقد كان لمجتمعات العالم الجديد مجريات تتميز حتى عصرنا الحاضر بالبساطة اذا ما قورنت بمجريات مجتمعات الطرف الغربى من العالم القديم ، وهى بسيطة اذا ما قورنت بمجريات المجتمع الهندى والمجتمع الصينى •

ان مجتمع الأنديز ومجتمع أمريكا الوسطى لم يبقيا مدة أطول من الدورات الأولى ، وكان كل مجتمع منهما يحتك بالمجتمع الآخر برغم أنهما لم يكونا متجاورين ، ولذلك لم يكن هناك تغلب من مجتمع على آخر ، وقد مر كلاهما بدورى الصعود والازدهار ، ثم أخذا فى الانهيار وقبل ظهور دلائل الانتعاش قضى الاعتداء الغربى على المجتمعين • ومهما يكن من الأمر فانه ينبغى أن نلاحظ أن هذا لايعنى بالضرورة اغفالهما فى التشكيلات الاجتماعية ، ان مثل هذه المسألة قد ظهرت فى العالم القديم وان الاحتكاك الحاد بين المجتمع الغربى ومجتمعات العالم الجديد قد يكون له نتائج خاصة ربما تظهر فى المستقبل •

واذا كان كل مجتمع أولى متحضر قد تكون باندماج عدد كبير من المجتمعات البدائية فى ظل نوع خاص من البيئة ، فاننا نستخدم هنا اصطلاح « التكتل » للدلالة على عملية التشكيل ، ووجدت عدة أنواع كثيرة من المجتمعات البدائية فى تاريخ البشرية ، وقد اعتاد علماء الانتروبولوجيا استخدام اصطلاحات مثل « العامة والدهماء » لتدل عليهم جميعا ، غير أننا فى هذه الدراسة سوف نستخدمها بقدر قليل •

ولقد كانت المجتمعات البدائية التى هى جزء من أصل المجتمعات

المتحضرة من أعظم المجتمعات حضارة فى وقتها ، وكانت تلك المجتمعات تتكون من عشرات أو مئات وربما آلاف الأشخاص فى بعض الأحيان ، ينتظمون على أساس من القرابة على الأقل فى حالة الاستقرار ، وكان فى وسع هذه المجتمعات أن تعيش فى قرى ثابتة لبضع سنين ، غير أن أولئك الذين ضمتهم المجتمعات الأولى المتحضرة ، أو الذين كانوا كذلك الى عهد قريب ، كانوا جميعا من المهاجرين الذين نزحوا من الاماكن الأخرى الى تلك البقاع التى قامت فيها المجتمعات المتحضرة ، وكان جميع أولئك أو معظمهم على وجه التقريب من الذين مارسوا الزراعة ٠

كان جميع أولئك المهاجرين يعتمدون اعتمادا كبيرا على زراعة الحبوب واختلفت أنواع الحبوب التى كانوا يزرعونها من منطقة الى أخرى ولا سيما القمح والشعير فى المنطقة الغربية من العالم القديم والهند وظهر نوع أو أكثر من الذرة ، وربما ظهر الشعير والارز فى الصين كما عرفت الذرة فى العالم الجديد ، وعرفوا جميعا الخضروات أيضا غير أن اعتمادهم عليها كان يختلف اختلافا كبيرا بين حالة وأخرى ٠

وفى الواقع اذا استثنينا اعتماد المهاجرين الكبير على زراعة الحبوب فان جهودهم المشتركة كانت متباينة تباينا كبيرا من جماعة الى أخرى ٠

وهكذا لم تكن جماعة واحدة قادرة على عول قراها وسد حاجاتها ٠ تلك القرى التى احتلوها قبل أن يهاجروا الى أماكن جديدة فى المجتمعات المتحضرة ــ فى المكان ذاته والى وقت غير محدود وذلك بسبب انهاك الأرض بالفلاحة المستمرة ٠ وكانت المدة التى تضطر القرية بعدها للترحال تختلف اختلافا كبيرا بين قرية وأخرى ، ويرجع هذا ، على الخصوص الى نوع التربة كما يرجع أيضا الى طرق الزراعة المتغيرة ٠ ولقد زاد عدد سكان معظم القرى زيادة سريعة الى حد ما ، غير أن معدل الزيادة فى السكان كان متباينا تباينا عظيما بالنسبة للمناطق المختلفة ٠

وكان فى وسع أقسام من السكان الذين يتزايد عددهم ان يتجمعوا من وقت لآخر غير أن الزيادة المضطردة كانت تتطلب توسعا عاما ، كما أنها أدت الى هجرة مستمرة وخطيرة حتى لقد اضطر بعض السكان الى الارتحال كل ثلاث سنوات ، على حين كان أغلبهم ينتقلون بين فترات متقاربة قد تصل الى جيل أو أكثر ٠

وقد عرف جميع سكان القرى الفخار ولكنه كان يختلف اختلافا كبيرا فى نوعه وان كان جيدا فى معظم الحالات ٠ كما أنهم صنعوا القماش

المغزول والمنسوج وأدخلوا تغيرات على أساليب الغزل والنسج ، ويقينا أنه لم يكن لديهم جميعا حيوانات مستأنسة ، فمثل هذه الحيوانات فى العالم الجديد كانت قليلة جدا ، أو غير موجودة على الاطلاق فى العالم القديم ، فقد اختلفت أنواع تلك الحيوانات بين منطقة وأخرى وان كانت كثيرة العدد فى المنطقة الغربية ، وانصرف جميع أهل القرى للصيد واستمروا فيه بعد أن ظهرت المجتمعات المتحضرة . ولكن درجة اعتمادهم على لحوم الصيد كغذاء لهم كانت تتفاوت تفاوتا عظيما ، وقد تنوعت مساكنهم وان كان ذلك أمرا غير بالغ الأهمية بالنسبة لبحثنا الراهن .

وكان لجميع المجتمعات البدائية معتقداتها عن العالم الطبيعى الذى عاشت فيه . وكانت تلك المعتقدات تتطلب وجود قوى مسيطرة خافية على الانسان ، ولكنها مفيدة جدا وعلى استعداد للتدخل اذا ما أتى الانسان أمورا على غير هواها ، ويقينا فان المجتمعات كلها كانت تهتم اهتماما عظيما بحالة القوى المسيطرة وموقفها وبخاصة من نمو النباتات التى يزرعونها .

وعاش سكان (العصر الميسوليثى) والعصر (الباليوليثى) حقيقة فى وادى « كوم امبو » آلاف السنين ، وعاش سكان العصر الباليوليثى (العصر الحجرى القديم) بالقرب من «الهندوس» عند «روهرى» و «وسكر» شمالى السند ، وانه ليبدو من المعقول أن نظن أن سكان العصر الباليوليثى (الحجرى القديم) وسكان العصر الميسوليثى (العصر الحجرى الأوسط) كانوا يفتقرون الى الأساس الثقافى الذى بدأ منه خلق المجتمع المتحضر ، مهما كانت البيئة التى عاشوا فيها جذابة أو منفرة .

وسوف نعرض للزراعة فى هذا الكتاب على حدة (فى الفصل الثانى) باعتبار أنها مفتاح الابداع الانسانى الذى مهد للحضارة ، على حين لا تعتبر الحضارة فى ذاتها مجرد مجموعة من لمسات الثقافة .

وثمة تحذير ، وهو أن مجتمعات متحضرة قد نشأت داخل بيئات طبيعية خاصة جدا ولكن ذلك لا يعنى أنه فى كل مرة كانت تصل فيها جماعات زراعة الحبوب البدائية الى بيئة كهذه وكان ينشأ عن ذلك قيام مجتمع متحضر .

وهناك أيضا درجات بين الذين اكتشفوا الحبوب وربما لا يصل بعضهم الى مستهل الحضارة . واذا كان الأمر كذلك فثمة ما يدعو الى الاعتقاد بأن أساليبهم فى الزراعة لم تكن على الوجه المرضى .

وربما يكون هناك أيضا اختلاف كبير بين الأماكن المتعددة حتى بين الوديان المختلفة للأنهار ، والتى نشأت فيها المجتمعات المتحضرة ، ومثل هذه الانجازات الأولية قد تكون مطلوبة لدى بعض البقاع دون البقاع الأخرى ٠

والجهل بهذه الفترة أمر يمكن قبوله بسهولة غير أننا نضع افتراضات معينة كبداية لتبديد هذا الجهل ٠ وأحد هذه الافتراضات هو ان الناس الأوائل الذين هجروا أماكنهم القديمة الى أماكن ذات نوع خاص نشأت فيها المجتمعات المتحضرة ، من المحتمل أن يكونوا قد فعلوا هذا لأن حياتهم كانت مهددة بالخطر ، ومن المحتمل أيضا أن يكونوا قد هاجروا فى حالة ثورة عارمة ٠ وأظن أنه يمكن أن نسلم على الأقل بأنه كانت هناك دوافع قوية للهجرة ، وأن المهاجرين على سبيل المثال لم يكونوا أناسا استطاعوا أن يعيشوا معيشة طيبة فى موطنهم القديم وكما رأينا فعلا أن الهجرة كانت تحدث فى وقت الجفاف ، ولهذا كان احتمال تعرضهم للفناء أكبر ٠

وثمة رأى آخر يرى أن الهجرة من الموطن القديم الى الموطن الجديد لم تكن سهلة ، وان الهجرة كانت تتم تحت تأثير مخاوف ساذجة ٠

ويكاد يكون من المحقق أن بعضهم قد تعرض للكوارث ، وان بعض جماعات قد فقدت بأكملها فى الصحارى وفنيت فى الطريق ، غير أن هذا قد يكون ذا أهمية فقط بالنسبة للمجتمعات المتحضرة أصلا ، اذا ماكانت تلك المعلومات قد وصلت الى تلك الجماعات الأخرى التى استطاعت الوصول الى موطنها الجديد بشىء من النجاح ٠

أما الرأى الثالث فهو يرى أن الهجرة فى حاجة الى تنظيم اجتماعى يختلف عن تنظيم المجتمع المستقر ، بل يختلف عن المجتمع المستقر الذى يتوقع أن يهاجر بين وقت وآخر ٠ وقد يكون هذا قليل الأهمية فى نتائجه فى حالة الهجرات القصيرة ، وقد كانت بعض الهجرات قصيرة وربما قد أضعفت لحد ما الروابط القديمة التى كانت تربط المجتمعات البدائية ، وربما كان للقادة عند الهجرات سلطة أكبر من المتقدمين فى العمر من شيوخ العائلة أو القبيلة (١) ٠

---

(١) انظر للمؤلف Feudalism in History ١٩٥٦ ـ الجزء الثالث ٠

والرأى الرابع يرى أنه لم يكن من السهل الاقامة فى المواطن الجديدة على أية حالة ، وهذا يرجع للافتراض الذى سبق أن افترضناه وهو أن الشعوب التى كانت تعيش معيشة أبسط من سواها لم يكن فى وسعها أن تغير كثيرا منها ، وربما تكون قد استوطنت فى تخوم هذه البقاع الجديدة ، وليس فى داخلها تماما كما يظهر ذلك من دراسة الحالات المعروفة فى التاريخ ، وقد بنى هذا الرأى على قدر طيب من الأدلة ٠

وسوف تعالج مثل هذه الأمور وتدرس دراسة خاصة فى الفصلين الثالث والرابع ، ولكننا هنا فى حاجة فقط الى أن نضيف أن تلك الظروف التى أطاحت بالموطن الجديد ، مهما كان الاختلاف فيما بينها من حالة الى أخرى ، لا يمكن أن تكون قد خففت المخاوف وأنواع القلق والحيرة التى كنا نظن أن المهاجرين قد عرفوها قبل هجرتهم وابانها حتى لو كانت الظروف تبعث على خلق الآمال فى نفوسهم الى جانب تلك المخاوف أو كانت تلك الظروف الجديدة قد غذت تغذية فعالة الآمال التى سبق وجودها بالفعل ، ولم تكن تلك الظروف فى الوطن الجديد من النوع الذى يشجع انحلالها ، اذ ما كان قد اتخذ أى نظام متطور خاص فى الهجرة من شأنه أن يعمل على تحسينها ٠

وأخيرا بعد كل ما افترضناه من هذه الآراء المتنوعة عن المخاوف والآمال فانه يمكن أن نطرح قضية تبين أن تطورات جديدة دينية من المحتمل أن تكون قد نشأت فى أذهان المهاجرين قبل أن يتركوا مواطنهم القديمة وابان هجرتهم وبعد استقرارهم الجديد ، ومن الممكن أن نجد سندا يدعم تلك القضية فى الأساطير الباقية ، وفى المصادر المختصة بالآثار القديمة ، وسوف نعرض تلك البيانات فى الفصل الخامس ٠ كما أن الأمثلة المشابهة تؤكد تلك القضية ٠

وأظن أن أكثر الروايات تشابها هى الحركات الدينية التى حدثت بين البدائيين فى الأزمنة الحديثة عندما تعرضت حياتهم للخطر ٠ وقد حدث كثير من الحركات الدينية هذه فى أمريكا الشمالية عندما كان « الهنود » هناك يرزحون تحت نير الاستعمار الغربى (٢) ٠

وقد حدثت بعض الحركات الدينية الأخرى من عهد قريب جدا فى

---

(٢) انظر Wilson Dallam Wallis واشنطن ١٩٤٣ فى كتابه (Messians, their role in Civilization)

جزر الباسفيكى فى أثناء حرب سنة ١٩٤١ مع غزو القوات المسلحة (٣) ٠

وقد نشأت فى تلك الحالات أنواع من القيادات لم تكن رجعية تماما بل لم تكن هكذا قط ، ولكنها بدلا من ذلك قد حاولت أن تجمع بين العادات الجديدة والقديمة ، ومع أن مثل تلك العادات الجديدة فى هذه الحالات ، كانت غالبا تؤخذ عن الدخلاء المتحضرين ، ويحتمل البدء بها مباشرة من ممارسة لم يتعلموها اذ لم يكن أناس يتعلمون منهم ، كما حدث للمستوطنين الأوائل فى البقاع التى وجدت فيها المجتمعات المتحضرة الأولى ٠

ويميل الانسان المتحضر تماما مثل سواه الى الاعتصام بحبل الدين عندما يواجه كارثة من الكوارث الكبرى ، وقد نشأت الديانة الجديدة أو أعيد انشاء الديانة القديمة فى كل مجتمع متحضر كان يواجه أنواعا متعددة كل منها تزاحم سواها وتنافسها ، ومن الواضح تماما أن تلك الديانة قد أدت دورا فى احياء المجتمع المتحضر ، أو فى قيام مجتمع متحضر جديد ، وان الأمثلة المقارنة لقيام مجتمعات متحضرة واضحة وفى متناول اليد ٠

وقد جاء الدين أو الجزء الأكبر منه ، الى العالم المتحضر عن طريق الانسان البدائى وتلك حالة شاذة نادرة من انتعاش المجتمعات المتحضرة الأخيرة ، ومن الأمثلة الواضحة بهذا الصدد تلك التى تتعلق باليونانيين، وفى معظم الحالات أخذت بعض مواد الأديان الجديدة من المصادر البدائية ٠

وعند دراسة المجتمع الصينى والمجتمع المصرى ، تستطيع أن تخمن تخمينات مقبولة شكلا عن ذاتية بعض القادة وشخصياتهم كما سيجد القارىء فى الفصل الخامس ، وبناء على ذلك أعتقد أننا فى مأمن من الخطأ عندما نستنتج أن القضية المطروحة لها ما يبررها فقد كان لكل مجتمع أولى متحضر ديانة جديدة ، وذلك عند نشأته أو بعد ذلك بقليل أيا كان وقت أو مكان تلك النشأة ، حتى لو كان المجتمع قد نشأ من عناصر قديمة ، وقام القادة الأفراد بدور كبير فى شئون المجتمع ٠

فاذا ما كان الأمر كذلك فانه يلقى اذن مرة ثانية ضوءا من الأرجحية

---

(٣) راجع Margaret Mead في كتاب (New Lives for Old) نيويورك ١٩٥٦

على الاقتراحات التى أوردناها فيما سبق عن الظروف التى ترك فيها المستوطنون الأوائل أوطانهم السابقة فى البيئات المتحضرة وظروف هجراتهم ، والأحوال التى وجدوها فى أوطانهم الجديدة عندما وصلوا اليها ٠

كيف يختلف المجتمع المتحضر عن المجتمع البدائى ؟ ٠

من الممكن أن نقدم اجابات معينة سهلة على هذا السؤال ، وان كانت لاتوجد اجابة واحدة منها ، ولا هذه الاجابات كلها مجتمعة تعتبر الاجابة الكاملة الشاملة ٠ اننا سنقدم فى هذه المرحلة العاجلة من هذا البحث قائمة سريعة مختصرة عن الاختلافات المعروفة أكثر من سواها ، وسنعود مرة أخرى فى نهاية الكتاب اليها ٠

ان أول وأسهل اجابة هى أن المجتمع المتحضر أكبر كثيرا من المجتمع البدائى بمئات أو الوف المرات ، ويمكن القول أيضا بأنه أكثر تعقيدا ، ولكن هذه الزيادة فى التعقيد ، انما هى مجرد ضرب من ضروب الفروق الأخرى التى يعد الاختلاف فى الحجم أحد هذه الفروق الرئيسية ٠وبعض الاختلافات الأخرى ومعظمها أيضا أصبحت مجرد اختلافات كمية : فان المجتمع المتحضر يكتسب معرفة عن العالم الطبيعى أكثر من المجتمع البدائى ، وينمى أجهزة أكبر ويملك ثروة أضخم بالنسبة لكل فرد من السكان وهلم جرا ٠

وهناك بعض الصعوبات حول معظم المقاييس التى كان من المألوف استخدامها لتمييز المجتمع المتحضر عن المجتمع البدائى فليس من الصحيح مثلا أن نقول ان جميع المجتمعات المتحضرة قد عرفت « الكتابة » حتى لو كان من الصحيح القول أنه لم تكن هناك كتابة عند أى مجتمع بدائى (٤)٠

ولم يكن عند مجتمع (الأنديز) أية طريقة صحيحة للكتابة ، كما كانت هناك مناطق فى مجتمع أمريكا الوسطى نادرا ما مارست الكتابة بشكل جدى ، وفضلا عن ذلك فان الكتابة قد ظهرت فى أزمنة مختلفة

---

(٤) حاول «هين ــ جلدرن» أن يثبت في بحثه ان جميع حروف الكتابة في العالم القديم يمكن ارجاعها الى شعب عرف الفخار الرمادى والاسود المصقول وعاش في الجزء الشرقى من آسيا الصغرى منتشرا من تلك البقعة الى جهات كثيرة في النصف الأخير من الألف الرابع قبل الميلاد ، غير أن «ديرنجر» وغيره يتشككون في ان اختراع الحروف كان فعلا في مجتمع العراق الا أننى أظن أن مثل هذه الحروف قد اخترعت في مجتمع ما بين النهرين (العراق) ٠

جدا فى التطور التاريخى لمجتمعات متحضرة مختلفة • لقد تطورت الكتابة فى مجتمع العراق ببطء فى زمن الولايات الصغرى عندما لم تكن الادارة تمثل مشكلة عويصة على أنه فى المجتمعين المصرى والكريتى استعملت الكتابة بسرعة نسبيا عندما وجدت المجتمعات التى تسعى الى الوحدة (٥)

اننا اذا اقتفينا أثر الكتابة لنرجع الى أصلها فانه من المحتمل أن يؤدى بنا هذا البحث الى ابتكارات فى فن تقوية الذاكرة ، فهناك علامات عن الصيد حفرت على الأشجار أو الاحجار وعلامات على القدور ، ورسوم تقليدية على الأشياء تشير الى أماكن الاجتماعات وما الى ذلك ، وكل هذه قد وجدت فى المجتمعات البدائية ، ويكاد يكون من المؤكد أنه مازال صحيحا القول بأن المجتمعات البدائية لم تعرف الكتابة ، غير أن الذى حدث فى معظم تلك المجتمعات المتحضرة وليس فى كلها أنها من نوع واحد ، تقوم فيها العلامات بنقل معلومات بسيطة ثم نمت كميا حتى برز نوع آخر ، ولابد أن نقول ان تغير الكم أدى الى تغير فى الكيف ، وهذا هو موضوع الأهمية الحقيقية بوجود الكتابة فى معظم المجتمعات المتحضرة ، ولعدم وجودها فى المجتمعات البدائية •

ويدلنا الفحص على وجود المدن والعواصم فى المجتمع المتحضر وليس فى المجتمع البدائى ، وقد يحدث فى بعض الأحايين أن يزعم المؤلفون أمورا لا يستطاع قبولها ، فمن المحتمل أنه لم يكن هناك مدن فى المجتمعات البدائية قبل أن توجد المجتمعات المتحضرة وان كان هذا القول لا يعتبر حقيقة يقوم عليها دليل ، وربما وجدت قرى كبيرة فى الشرق الأدنى قبل ظهور الحضارة به (٦) • ومن مجتمع أمريكا الوسطى القى الشك على التمييز بين المجتمع المتحضر والمجتمع البدائى ، وذلك لأنه من الواضح أنه فى جزء «ما» من ذلك المجتمع وكان جزءا متقدما لم يكن فيه ما يمكن أن يوصف حقا بأنه «مدينة» ولكن معظم المجتمعات المدنية كانت بها « بلدان » وقليل من المجتمعات كان بها عدد قليل من

---

(٥) فيما يتعلق بمجتمع العراق والمجتمع المصرى راجع H. Frankfort فى مؤلفه « مولد الحضارة في الشرق الادنى » لندن ١٩٣٩ (ص ٤٩ — ٥٠ صفحة ١٠٥ — ١٠٨)•

(٦) ثارت مناقشة بين «كاثلين كينيون» و «روبرت بريدوود » وآخرين حول ظروف وتاريخ استيطان «اريحا» في فترات مبكرة وليس بين بقاياها أية أوان فخارية يؤكد «كافلين» أن جريكو عرفت الحضارة وينكر «تشايلد» انها كانت في مستوى «المدينة» ويرى «بريدوود» بتحفظ انها كانت «قرية كبيرة» •

هذه البلدان ان لم تكن خلوا منها تماما ، ونتدرج من هذا الى القول بأن أساس الحضارة يكمن فى هذه الحقيقة التى تقضى بأن المجتمع «بلادا» وهى حقيقة تتطلب كثيرا من الفحص والتمييز (٧) ، ان عددا من القرى فى المراحل الأولى من تطور المجتمع المتحضر قدر لها أن تنمو فتصبح « مدنا » قد بدأت عادة فى زمن مبكر تماما لتظهر فيها خصائص المدينة، ومن ثم كانت تصلح فى تشخيص ظهور الحضارة ، ولكن الحضارة فى واقع الأمر كانت فى كل الحالات قبل أن تظهر المدن الصغيرة ٠

وثمة تمييز واضح بين المجتمعات المتحضرة والبدائية وهو ليس فارقا من حيث الكم فقط فان المجتمعات المتحضرة كلها خاضعة لحركة دورية من النشوء والانهيار فى غضون تطورها ٠ ولكن لا توجد حركة مماثلة تحدث فى تطور المجتمعات البدائية ، ان الايقاع المتوقف على الفصول يؤثر طبعا على جميع المجتمعات البدائية ولكن الحركات الدورية للمجتمعات المتحضرة ذات فترات زمنية تقدر بألف السنة ٠

ولقد أبان « سوروكين » أكثر من أى باحث آخر أهمية هذه الحركات (٨) ٠

ويحلل « سوروكين » الدورة الى ثلاثة أطوار يميز فيما بينها على حسب اصطلاحاته الخاصة ٠ أما هذه المراحل الثلاث فلا تتطلب دراسة وثيقة فى هذا الكتاب ولكننا سنأتى على ذكرها فى الوقت المناسب ٠ وهى عصر الايمان وعصر العقل و « عصر الانجاز » (٩) ٠

وثمة عاملان كميان على درجة كبيرة من الأهمية يدخلان ضمن هذا التفاوت فى التطور بين المجتمعين المتحضر والبدائى ، وهذان العاملان بمثابة اختلاف عظيم فى معدل التغيير وفى التحكم فى البيئة الطبيعية ٠ ولا يكاد يكون قد حدث تغيير فى كثيرمن المجتمعات البدائية لآلاف السنين

---

(٧) هذا مايوحى به كتاب «الانسان يصنع نفسه» ل«ج ٠ تشايلد» نيويورك ١٩٥١ وكتاب « ماذا حدث في التاريخ » ل فرانكفورت نيويورك ١٩٤٦ ٠

(٨) راجع كتاب (Social and cultural dynamics) ل «سوروكين» نيويورك ١٩٤١ ٠

(٩) يستخدم «سوروكين» اصطلاحات علم النفس والاجتماع في أبحاثه عن الحضارة ، ويرى ان هذه المراحل الثلاث حدثت في تطور الحضارة الاغريقية الرومانية والحضارة الغربية ، وانا أطبق هذا المفهوم على جميع الحضارات ويرى «فيلكو» أن هناك عصورا أخرى « كعصر الآلهة ، وعصر الابطال ، وعصر الانسان » ٠

على حين أن المجتمعات المتحضرة لاتبقى دون تغيير حتى لعدة قرون ، وعلى وجه العموم تستطيع المجتمعات البدائية أن تبقى دون تغيير طالما تساعدها بيئاتها على ذلك • ولكن اذا تغيرت بيئاتها ذاتها فانه ينبغى على هذه المجتمعات أن تتلاءم مع التغير والا هاجرت أو اندثرت ، وانه لأمر استثنائي للانسان المتحضر أن يتراجع أمام التغير الذى يحدث فى بيئته هذا وان كان قد حدث ذلك فعلا وهو ينجح عادة فى جعل بيئته تتلاءم معه • كما أنه لم يحدث للانسان أن مجتمعا متحضرا قد اندثر سواء كان ذلك لأسباب تقع فى بيئته أو عن طريق أى سبب آخر • فانه فى أسوأ الظروف يتحول الى مجتمع متحضر جديد •

اذن فى المجتمعات المتحضرة صفة ما تفتقر اليها المجتمعات البدائية وهذه الصفة من شأنها أن تدفع التطور بسرعة وأن تسيطر على البيئة الطبيعية وتعبر عن نفسها فى حركة النمو والانهيار الدورية •

ويميز « كروبير » فى محاضرة له بمناسبة ذكرى (هكسلى) عام ١٩٤٥ بين أسلوب حضارة ما ومحتواها الثقافى والقيم التى تصل اليها من وقت لآخر • (١٠)

ولن نهتم كثيرا بالقيم فى هذه الدراسة فانها حتى لو كانت كافية فى حضارة منذ نشأتها فانها لم تتطور الا قليلا فى ذلك الحين ومع هذا فاننا نهتم أساسا بالأسلوب والمضمون •

بما أن أسلوب الحضارة ينظر اليه من ناحيته الجمالية فهو يظهر فى كل ما ينتجه المجتمع أو يقوم به بتفوق فى فنونه وكذلك فى فكرته وسياسته ومؤسساته وتقاليده وفى جميع طرقه •

وانه من الممكن أن نكيف أسلوب المجتمع وأن نشرحه ونقدر قيمته ومع ذلك لانستطيع أن نصفه عموما فهو بمثابة الأسلوب الصينى لكل ما هو صينى والأسلوب المصرى لكل ماهو مصرى والأسلوب الغربى لكل ماهو غربى ، يتغير مع الزمان والمكان ومع هذا يبقى ظاهرا دائما باعتباره نتاجا للمجتمع ذاته ، ويستطيع كل من عرف أسلوب أى مجتمع متحضر أن يميزه أينما وجد لأنه علامة على شخصية المجتمع • ولهذا فان الأربعة عشر مجتمعا المتحضرة التى سردناها فيما تقدم يمكن تمييز بعضها عن

---

(١٠) راجع A. L. Kroeber في مؤلفه (طبيعة التراث) شيكاغو ١٩٥٢ ـ محاضرة عن هكسلى ، نشرت بجريدة المعهد الملكى للانثروبولوجيا بعنوان :
(Style and civilization)

بعض بالأساليب الخاصة بكل منها • فهذا هو معيار الـــكيان الفردى الذى نستخدمه فى هذا الكتاب وان جميع الآراء والبراهين التى تتجاهل أو تقلل من قيمة هذه الحالة من الكيان الفردى لايمكن قبولها باعتبار أنها خاطئة •

ان المضـــمون الثقـــافى للحضـــارة هو ما يسميه اخصائيـو الانثروبولوجيا ملامح الثقافة أو أشكالها المركبة ، مثل الحرث والنسج وصناعة الفخار ، وملامح نظرية مثل الكهانة والسحر والفن وربمـــا كثير من الأشياء المجردة والغامضة التى لايتيسر للعلماء تمييزها بسهولة وملامح الثقافة ومركباتها يمكن أن تنتشر من مجتمع لآخر بين المجتمعات المتحضرة والبدائية كالحال بين المجتمعات المختلفة •

ان كل مجتمع يخلق ميزة من ميزات الثقافة أو يتلقاها من مجتمع آخر يطبع علامة أسلوبه ذاته على نتاج تلك الميزة ، ومن هنا يبدو نتـــاج المجتمعات مختلفا لمدة وجيزة ، فيما عدا أن يكون المجتمع قد اكتسب الميزة حديثا •

ويمكن أن يحمل الانتشار مركبات كبيرة أو ملامح صـــغيرة من مجتمع الى آخر وعلى حسب ما يقول به كروبير (١١) فان الانتشار يمكن أن يحمل مجرد « باعث » من مجتمع الى آخر أعنى فكرة شاملة دون أى تفاصيل ، ويمكن أن يكون ذلك الانتشار حتى فى العالم كله اذا ماترك له وقت كاف ، وان كان من النادر حدوث انتشار على نطاق العالم فى أزمنة ماقبل التاريخ المتأخر التى يعنى بها هذا الكتاب ، وكثيرا مايكون من الصعب أن نعرف : هل يعزى ظهور ميزة بعينها فى مجتمع معين الى الانتشار أو الى اختراع مستقل ؟ ولكنى أميل الى ترجيح الانتشـــار حيث هناك شك •

اننا قد بلغنا فى بحثنا حتى الآن الى أن نتعلم قليلا عن المجتمع من وجود ثقافة لها ميزات خاصة حتى معظم المميزات لا تبين : هل المجتمع كان متحضرا أو بدائيا ؟ ان وجود الكتابة والمدن يبعث اقتراحنا بقيـــام الحضارة ، ولكنه لا يقيم الدليل على ذلك ، والقاعدة العـــامة أن الميزة الخاصة أو « المركبة » لاتحمل فى ذاتها اى معلومات عن مجتمع له تلك الميزة الخاصة ماعدا ما يتعلق بوجوده هو ذاته فى التراث وفى حالة

---

(١١) راجع مؤلفه الذى اشرنا اليه سابقا . (Nature of culture)

نمو المجتمع بسرعة وتحركه تاريخيا فى دورات النشوء والانهيار يكون المجتمع مجتمعا متحضرا ·

ويمكن تمييز أى مجتمع سواء أكان متحضرا أم بدائيا عن طريق أسلوبه ·

وينبغى أن نفترض أن المضمون التراثى منذ تأسيس المجتمعات السبعة الأولى قد جلبه المستوطنون من المهاجرين الى هذه البقاع ومع هذا فالقريب الى المنطق أن المؤسسين سرعان ما أوجدوا عدة خبرات خاصة لازمة للنوع الجديد من الحياة التى ينمونها فى البقاع التى أوجدوها لأنفسهم ، وكانت هذه الخبرات تحتل مكانا هاما فى التراث ، وقدتلقوا الملامح والأشكال التى تفشت من المجتمعات المتحضرة والبدائية على السواء من وقت لآخر ، ولكن لايوجد أى دليل على أن أى مجتمع من المجتمعات السبعة قد بدأ كمجرد مستعمرة كاملة بمضمون ثقافتها والأسلوب والقيم الفطرية أو الكامنة التى جاءتها من مجتمع متحضر آخر بل على العكس فانه يوجد دليل واضح على أن كل مجتمع قد بدأ بشكل مستقل وأوجد أسلوبه المتميز الذى يختلف عن أسلوب أى مجتمع آخر اختلافا ظاهرا للعين المجردة ·

وتأكدت البداية المستقلة لأربعة مجتمعات من المجتمعات السبعة المتحضرة الأولى بالأدلة التى قدمها علماء الآثار عن هجرة الشعوب واستيطانها فى المواضع التى اختاروها ، كما أن الاستدلال على هجرات مماثلة واستيطان مماثل أمر من الصعب تأييده بالنسبة الى ثلاثة المجتمعات المتحضرة الباقية ·

وهناك اعتقادات باطلة رائجة حول هذه الأمور الأساسية ، وهذه الاعتقادات تنهار من تلقاء ذاتها عندما تصل بها الى نتائجها المنطقية ومن الضرورى أن تمضى مع هذه الاعتقادات حتى تتبين صفاتها ·

ومن بين هذه المذاهب المذهب الذى ذكره «السير مور يتمرهويلر» ومفاده أننا نجد أصل المجتمع الهندى فى مجتمع العراق ، انه يبدو لأول نظرة أنه مذهب ممتع لأن هويلر يقدم رأيه بقوله : ان الآراء لها

أجنحة (١٢) ويقول ان فكرة الحضارات جاءت الى بلاد الهنـد من أرض النهرين التوءمين (العراق) (١٣) ٠

وعند الفحص نجد أن الفكرة تتحلل الى سلسلة من الأفـكار المختلفة : فكرة الكتابة وفكرة البصم وغيرها من الأفكار ، والفكرة المجردة فقط هى التى يشترك فيها المجتمعـان فى كل حالة على حين تختلف تفاصيل التطبيق ولا حاجة بنا للاعتراض على هذه الحجة باعتبار أنهـا مجرد حجة لاقامة نظرية وذلك لأنها أثارت فكرة الانتشار عند «كروبير»٠

غير أن تطبيق هويلر للنظرية خطأ ، فان فكرة الحضارة عنده انما هى تركيب معقد جدا من آراء معنوية بحتة تتعلق كلها بعضها ببعض وهى على هذا تكون صعبة التصديق وهو يفترض أنهـا قد جلبت من العراق وغرست فى الهند تماما كما يجىء أى شىء من البلاد الأم الى المستعمرات (١٤) ٠

وأمور كهذه ليست قليلة الوقوع فى التاريخ ولكنها عندما كانت تحدث فان (الموطن) لم يكن يتلقى من الوطن الأم الأفكار وخصائص الثقافة وحدها بل كان يتلقى أيضا أسلوب البلاد الأم ــ وهذه حقيقة ذات اهمية كبيرة ٠

ولما كان الاسلوب الهندى يختلف تماما عن أسلوب العراق (١٥) فان الفكرة تفقد أهميتها ٠

وثمة رأى زائف آخر ذو أهمية محققة وهو ما يذهب اليه ج ٠ تشايلد ٠ ان هذا الرأى يسمح بوجود أصل مستقل لكل من مجتمعات الوادى الثلاثة ٠ المجتمع المصرى ٠ والمجتمع العراقى ٠ والمجتمع الهندى ولكنه يعرض الفكرة على أن تلك المجتمعات فى عهد حكم الملوك والكهنة قد ادخرت الثروة الفائضة من المواد الغذائية التى أنتجها الفلاحون كى

---

(١٢) انظر هويلر في مؤلفه (Archaeology and the transmission of Whealer ideas) ١٩٥٢ صفحة ١٥٨.

(١٣) راجع ايضا The Cambridge History of India كنموذج ١٩٥٣ فصل The Indus Civilization

(١٤) راجع هويلر في مؤلفه (ايران والهند فيما قبل الاسلام) وكتاب (الهنـد حتى عام ١٠٠٠ قبل التاريخ مجموعة Pelican

(١٥) كما يقرر Mallowan في عرضه لكتاب هويلر بعنوان (Antiquity) عام ١٩٥٠ ٠

يصبح رأس مال لجميع النواحى الاقتصادية التى يحتاج اليها المجتمع المتحضر ، ومن بين هذه النواحى التجارة مع المجتمعات الاخرى للحصول على المواد الخام التى كانت تفتقر اليها تلك الوديان فى جميع الحالات ، وهكذا حصلت المجتمعات الأخرى التى كانت بدائية فى أول الأمر على رأس مال أولى لذاتها ، وبهذا أصبحت قادرة على تحويل ذاتها الى مجتمعات متحضرة • ويقول ج • تشايلد أن هذه ليست من قبيل نظرية (الشبيه يلد الشبيه) ومن المحقق أن المجتمع الكريتى وغيره من المجتمعات الأخرى التى جاءت فيما بعد كانت تختلف عن أسلافها الشهيرة أكثر من اختلاف تلك المجتمعات فيما بينها • واننا حتى اليوم نستخدم التقويم المصرى وتقسيم اليوم والساعة الذى عرف فى بلاد العراق (١٦) على عهود السومريين ، والثروة الثقافية بها من الناحية اللفظية رنين ماركس ، غير أنه فى واقع الأمر تعتبر التقاويم وما على شاكلتها ملامح من الثقافة ضمن المعنى الانثربولوجى العادى لذلك الاصطلاح ، على حين أن القول بانتقال الثروة الثقافية من مجتمع قديم الى مجتمع جديد ليس من قبيل حالة (الشبيه يلد الشبيه) فهو تسليم بطريقة مهذبة بأن افتراض خصائص ثقافية ليس كل ما يحدث عندما يتكون مجتمع جديد • وفى الواقع فان هذا الرأى لايدخل ضمن الخدمات الجليلة التى أداها ج • تشايلد للتاريخ، اذ أنها لا تضيف الى معلوماتنا شيئا جديدا بل انها تحذف أكثر من أن تضيف •

وفوق ذلك فان هذا الاعتقاد ليس من قبيل عملات المذهب المادى الصعبة فانه عندما يحل رأس المال الثقافى محل رأس المال المالى فان ماركس يكون قد انقلب معياره ، ويكون هيجل قد استرد جولته وهذا على حد تعبير « كروفورد » فى رثائه لجوردون تشايلد •

ومع ذلك فان عقيده تشايلد تبدى بالفعل اهتماما كبيرا بالأمور المادية لأنها فى آخر الأمر عقيدة تتطلب بحكم الضرورة طبوغرافيا معينة لاتتغير فى أوصافها المميزة الرئيسية لأصل المجتمعات المتحضرة أى « طبوغرافيا » وديان النهر العظيم •

وسنقيم الدليل فى هذا الكتاب على وجود احتمال قوى بأن العامل الطبوغرافى كان أكثر تغيرا من هذا ، وعلى ذلك فان اشتراك العقل

---

(١٦) برغم ان ج. تشايلد يزعم انه ماركسي فانه كان رجلا عظيما حقا كما كان مفكرا أصيلا في تفكيره الى الحد الذى يمكن أن يقال انه لا مثيل له •

البشرى فى خلق المجتمعات المتحضرة الأولى كان عاملا أعظم أهميـــة من العامل الطبوغرافى ٠

وينبغى أن نلاحظ أن كلا من (تشايلد) و (هويلر) يؤيدان عن غير قصـــــد ما أدركه (كروبير) من أن المضـمون الثقـافى هــو كل ما تشتمل عليه الظواهر الطبيعية للحضارة ٠ وتشايلد يفعل ذلك عندما يسلم بأن (الشبيه لايلد الشبيه) وعندما يبحث هويلر فى جعل الحضارة مجرد فكرة وكلاهما يدرك ادراكا غامضا الاختلافات الحيوية ، ولـــكنه لايستطيع أن يدرك أنه اختلاف فى الأسلوب ٠

ويظهر أمامنـــا « روبرت هين جلدرن » فى حاشـــــيته أســـفل احدى الصفحات بقوله : ان الحضارة عبارة عن « ملامح من الثقافة » وأن الحضارات كلها واحدة ونشأت فى الشرق الأدنى من العالم القـــديم ٠ وهو يعتقد ان كل شىء يعنيه باعتراضه على أنه لا يقصد أن يقدم نظرية بسيطة كالتى قدمها « اليوت سميث ويرى » (١٧) ٠

وقد قام هين ـ جلدرن بعمل قيم حينما أظهر نظرية الانتشار فى الشرق الأدنى (١٨) كما بين بعض هذا الانتشار بالاشتراك مع «جوردون ايكهولم » تحت عنوان (من العالم القديم للعالم الجديد) (١٩) ٠

وأيا ماكان الأمر ، ففى اعتقادى أنه لم يظهر أى شىء حول أصل أى مجتمع من المجتمعات الأولى المتحضرة ، بل انه على عكس ذلك لم يجلب على هذه المسألة سوى التهويش (٢٠) ٠

وفى واقع الأمر ليس من الضرورى هنا أن نتابع هين جلدرن الى أكثر من هذا ٠ فانه يختلف عن هويلر وتشايلد ، فهو لم يدرك اختلافات الاسلوب ويظن أنها مجرد اختلافات فى التفاصيل ليست بذات أهمية٠

ان الانتشار لاشأن له بأصل المجتمعات المتحضرة الأولى ولا دخل له

---

(١٧) راجع مجلة Diogenes العدد ١٣ صفحة ٨١ ــ ٩٩

(١٨) راجع China, die ostkaspische Kultur und die herkunft der Sckrift

(١٩) راجع Memoirs of the society for American archacology
العدد ٩ سنة ١٩٥٣ (صفحة ٧٢ ــ ٨٩)

(٢٠) راجع An early archaeological site near Panuco, Vera Cruz
فيلادلفيا ١٩٥٤ ــ الجزء الخامس ابتداء من صفحة ٥٣٩ ٠

بأى مجتمع من المجتمعات المتحضرة ، ان الانتشار الذى حمل معه ملامح التراث وبخاصة للمجتمعات المتحضرة الأولى لم تكن له أية علاقة بأصلها لأنه قد حدث بعد نشأتها بالفعل ، والانتشار الذى كان هاما بالنسبة للمجتمعات المتحضرة الأولى هو الانتشار الذى حدث قبل نشأتها ، ونشر معه كثيرا من خبرات العصر الحجرى الوسيطفى كل أنحاء العالم وعددا من التجارب الزراعية الأولى فى مناطق كبيرة • كانت المهارة الثقافية للشرق الأدنى من العالم القديم ذات أهمية كبيرة ، ولكن لم يكن لها أى أثر مباشر على أصل المجتمعات المتحضرة بالطريقة التى يعتقدها هين ـ جلدرن *

أما ابتكارات الشرق الأدنى فى العصر الحجرى الوسيط والاختراعات الزراعية فى الشرق الأدنى وفى الأجزاء الأخرى من العالم فسوف نعرض لها فى الفصل الثانى •

(*) راى الكاتب هنا هو أحد الآراء ويعارضه فيه كثير من علماء الحضارة (المترجم)

الفصل الثانى

المجتمعات الزراعية الأولى

ظل جـــزء من البشرية ردحا من الـزمان قرابة ألف ســـــنة أو أكثر قبـــل ظهـور المجتمعات الأولى المتحضرة قائما قبل انقلاب مناخ العالم الذى أعقب العصر الجليدى الأخير فى الحقبة الجيولوجية الرابعة (١) ٠

وكان الجزء المشار اليه يشمل المناطق التى كانت آهلة بالناس ـ وهى مناطق الشرق الأدنى والأوسط من العالم القديم ، وربما امتدت تلك المناطق من حـــدود الصحراء غربا الى ايران شرقا ٠

لقد كانت تلك البلاد فى سبيل تقدمها من الجفاف الطويل ، كما تقدم ـ بقدر ما تسمح به المرحلة الجديدة من المناخ الذى كان آخذا فى التحسن ٠ لقد أدخـــل هؤلاء الناس سلسلة كاملة من طرق المعيشة خـــلال نضالهم من أجل البقاء ، وتلك الأساليب الجديدة فى المعيشة هى التى كان الباحثون يطلقون عليها العصر الميسوليثى (الحجرى الوسيط) والعصر الزراعى ٠

وفى واقع الأمر ، كونت هذه الاختراعات سلسلة غير متقطعة ، وبلغت الأعمال ذروتها فى نهاية هـــذه السلسلة (٢) ٠

وجاءت الذروة مع تطور زراعة الحبوب البدائية ، وهى من أنواع الزراعة المبكرة جدا ، بل ربما كانت اقدمها فعلا ٠ وهذا العمل العظيم قد وضع الشـــعوب التى قامت به فى المقدمة بالنسبة للنضال الذى شنته ضد التلف الطبيعى فى مناطقهم ، ولكن لم يمض طويل

(١) راجع Dating the Past F.E. Zeuner لندن ١٩٤٦ صفحة ١٤٥ ٠

(٢) وجدت فترات دون شك قبل هذه الفترة ٠

وقت بين بداية النضال ونهايته حتى بدأت تظهر الجمـــــاعات المتحضرة الأولى ٠

لقد قيل فى الفصل الأول : ان تلك المجتمعات البدائية التى كانت تشتغل بالزراعة تعتبر أساسا لجميع المجتمعات المتحضرة ، غير أن الزراعة كانت فقط ذروة اختراعات العصر الحجرى الوسيط ، والمجتمعات الزراعية تضم معظم الاكتشافات التى ترجع للعصر الحجرى الوسيط خصـــوصا حرف ذلك العصر ٠

وهذه الحرف تعتبر أيضا جزءا من التداخل بين المجتمعات المتحضرة لما يبدو هذا واضحا وضوحا تاما من الحقيقة التى تقضى بأن معظم أدواتنا اليدوية ، حتى اليوم هى أدوات العصر الحجرى الوسيط مع اســتخدام الحديد أو الصلب مكان الحجر أو العظم أو الخشب ٠

ولقد حلت الاختراعات البدائية الزراعيـــة التى ترجع الى العصر الحجرى الوسيط الواحدة مكان الأخرى ، كسلسلة من المواءمة مع البيئة ٠ وهى تشغل بلا ريب وتكون عصرا خاصا فى العمل البشرى وخط السير فى الحياة ، فاذا كانت هناك عصور سابقة لها ذات طبيعة عامة فان الأعمال العظيمة التى قامت بها كانت تقل كثيرا عن هذه الأعمال الى حد أنه يمكن أن تعتبرها متعلقة بنوع أدنى ٠ ان مواءمة العصر الميسوليثى والزراعى المبكر تظهر من المواءمة مع البيئة التى قد تكون قد وصلت الى أعلى درجة ممكنة ، ومن المعقول أن نعتقد أن تجربة عمل التغيرات الثقافية تدريجيـا كى تطابق تغيرات البيئة المنتظرة قد أصبحت جزءا من الثقافة ذاتها ٠ وأن ثقـــافة المجتمعات المتحضرة تتباين تباينا حادا مع هذا النوع من الثقافة ٠

ان نظرة واحدة الى خريطة العالم القديم تبين منطقة صحارى غير متقطعة ممتدة من الشرق الى الغرب بعرض نصف الكرة الأرضية الشمالى كذلك نجد الصحراء فى أقصى مكان من جهة الغرب ، أما « جوبى » فهى فى أقصى مكان لجهة الشرق ٠ وبين الشرق والغرب صحراء ليبيا والصحراء العربية وشبه صحراء ايران وصحراء الثار فى الشمال الغربى من الهند ٠ وصحراء كاراكوم وتكلا مكان شمالى ايران والهند ومناطق الاستبس فى شمالى كاراكوم ٠

وفى هذه الصحارى أو بالقرب منها نشأت مجتمعات (وادى النهر) الأربعة المتحضرة الأولى فى العالم القديم ، كما أن الصحارى لها علاقة

وثيقة أيضا بالظهور السابق الطويل المستمر لمجتمعات العصر الميسوليثى والمجتمعات الزراعية الأولى ، ولم تكن الصحارى ذاتها من أصل واحد منتظم كما يظن من تسلسلها عرضا على الخريطة فقد كان العامل المشترك فى وجودها هو الرياح الشديدة الجفاف السائدة التى تهب من الشمال بعرض المساحات الشاسعة من الأراضى والبحار الباردة (٣) ولكن فيما خلا ذلك كانت تلك الصحارى تختلف اختلافا كبيرا فيما بينها فكانت « جوبى » وتكلامكان وكاراكوم وايران من الصحارى الباردة ، وربما كانت أقل جفافا عند أعلى درجة من التجمد مما كانت فى معظم الأزمنة الأخرى (٤) أما صحراء « ثار » فهى صحراء غامضة (٥) .

ان جميع الصحارى الغربية سارت فى تذبذب غير معروف يعد من أعظم ما أصاب صحارى الشرق ، لقد ظلت الصحارى الغربية قائمة غير أننا نجدها قد انكمشت بشكل ظاهر عند درجة التجمد القصوى ، وانحصرت فى المناطق التى هى أقل جفافا ، من أقاليم السافانا والاستبس وذلك لأنها كانت تتلقى الامطار من رياح المحيط الاطلنطى التى تمر فى الوقت الحاضر فوق أوربا وتتخطى منطقة الصحراء (٦) .

لم تكن أقصى درجة للثلوج الأخيرة عظيمة وكذلك لم يكن تأثيرها عظيما ، ومع هذا فان الأطراف الشاسعة للصحارى الغربية وجميع الواحات فيها قد أصبحت وقتئذ أكثر اتساعا عما كانت عليه ، وعلى ذلك فان الطرف الشمالى من صحراء ليبيا وجزءا كبيرا من الصحراء كان بها مساحات كبيرة مأهولة بالشعوب التى تعيش من وراء الصيد والشعوب التى تميل للتجمع والحياة الاجتماعية .

وعلى ذلك فعندما انحسرت الثلوج وقلت الأمطار انكمشت أطراف الصحراء وحواشيها والواحات وتعرضت الشعوب التى كانت تعيش فيها للخطر بشكل كبير .

أما فى حالة ايران التى بأقصى الغرب من الصحارى الباردة فانها تختلف عن ذلك ، ويتبين من دراسة حديثة قام بها « بوبك » أن مياهها كانت أوسع امتدادا فى عصر التجمد الثالث مما هى عليه اليوم وأكثر أهمية

---

(٣) راجع E.Antevs فى The last glaciation بنيويورك ١٩٢٧ صفحة ٣٤ — ٣٥

(٤) راجع « انيفر » فى مؤلفه السابق صفحة ٤٠ — ٤١ .

(٥) راجع Arid Zone Research باريس ١٩٥٥ (صفحة ٢٥)

(٦) راجع C.E.P. Books فى مؤلفه « تطور المناخ » لندن — نيويورك ١٩٢٥ صفحة ٥٥ — ٧٤ .

اذ أنها تحملت الجفاف لبضعة آلاف من السنين فأصبحت أكثر جفافا مما هي الآن ، على حين كانت الصحارى المجاورة للغرب تزول أمطارها (٧) ويرجح « بوبك » فترة الجفاف في ايران من حوالى ٩٠٠٠ الى ٤٠٠٠ قبل الميلاد وما هو أبعد من ذلك وهكذا فربما يكون الجفاف قد بدأ هناك بعد أن بدأ فى الجزء الغربى بزمن أطول ٠

وتدلنا مصادر أخرى على أن جميع الصحارى الباردة شرقى ايران عانت من الجفاف فى الوقت السابق نفسه كما عانته ايران ، ومع هذا فانها فى الأزمنة التى سبقت ذلك أصبحت أكثر رطوبة لعدة آلاف من السنين الى درجة كبيرة وهكذا بدأ الجفاف هناك بسبب ظرف رطوبة استثنائى (٨)

ان الحجة بأنه كان لا يزال فى هذه المنطقة أو تلك مطر عند التقاء المجتمعات المتحضرة أو عند التقاء سابق فى المجتمعات البدائية المتقدمة ليس معناها بالضرورة أن الحياة قد استمرت على حالتها التى كانت عليها فى الماضى ، ان بيت القصيد هو أنه برغم وجود أمطار كثيرة هناك فى هذا الوقت أو ذاك فانه كانت هناك أمطار أقل مما كانت من قبل ، ما لم يكن بالامكان أن يتقرر بطريقة حاسمة أنه كانت فى زمن أو عدة أزمنة حركات عكسية بعيدة الانتشار وهذا مالم يثبت حتى الآن ٠ (٩)

واذا كانت هناك ذبذبات أقل مما كانت فى ذلك الحين فان الشعوب التى كانت تعيش فى ذلك الاقليم لابد أنها كانت تحت ضغط مستمر ٠ وفى ظروف الضغط هذه فى منطقة الشرق الأدنى بدأت الصناعات الجديدة الخاصة بالصيد فى العصر المسيوليثى ، كما بدأت الزراعة فيما بعد والتى ظلت فى تحسن واطراد ٠ وكان هذا سلسلة بسيطة من الأثر والتأثير (١٠) بدأت فى الصحارى الغربية التى نشأ فيها الجفاف من قبل وكان أشد قسوة (١١) ٠

---

(٧) راجع H. Bobek في مؤلفه ١٩٥٣ Klima und Lanschaft

(٨) ان الدليل الوحيد الذى قدمه (بوبك) هوبرهان جيولوجى محلى ، وشرحه الوحيد للظاهرة الطبيعية التى يشير اليها الدليل هو تحسن في درجة الحرارة بمرحلة دائمة بعد التجمد في أوربا وايران — وربما في الصحارى التى الى الشرق ، غير أن النتائج المستخلصة في المناطق الثلاث كانت مختلفة جدا .

(٩) راجع بوبك في مؤلفه الذى أشرنا اليه في الحاشية رقم ٧ ص ٢٢ — ٢٣ ٠

(١٠) راجع Agricultural origins of Dispersals Carl O. Sauer نيويورك ١٩٥٢ ص ٢٠ — ٢١.

(١١) انظر حاشية رقم ٢٨ من هذا الفصل .

وثمة احتمال بأن بعض خبرات ذات أصل خارجى اســـتعملت فى منطقة الشرق الأدنى ، وفى رأيى أنه ليس هناك أى احتمال يبرر القول بأن المركز الرئيسى للأحداث كان فى أى مكان آخر غير الشرق الأدنى ٠

وبالطبع تختلف الأحداث الرئيسية فى ايجاد خبرات جديدة متتالية لفترة طويلة لتتمكن الناس من البقاء ولكن حدثت بجانب هذه الحوادث الرئيسية سلسلة هامة جدا من الحوادث الثانوية ، كانتشار شعوب العصر الحجرى الوسيط ، والشعوب الزراعية بخبراتها الجديدة الى جميع الاتجاهات فى الكرة الأرضية ، واننا نهتم باتجاه واحد من هجرة الشعوب فى العالم كله ، وبالهجرة التى حدثت شرقا وشمالا (١٢) ومع هذا هناك هجرات أخرى كانت لها أهميتها أيضـــــا كالهجرة الى أوربا التى كانت أكثر استعدادا لقبول المهاجرين كلما قل استعداد الشرق الأدنى والهجرة الى افريقية الاستوائية وربما الهجرة الى شرقى الهند وجنوبيها والهجرة الى الجنوب الشرقى من آسيا ٠

وينبغى أن نفترض أن المهاجرين الأوائل قد تجمعوا عند حدود الصحارى ولا سيما الجبال والغابات الاستوائية حيث كانت لا تزال هناك الأمطار ٠ وترتب على تركز الناس فى الجبال حوادث جديدة ســـتكون موضع دراستنا بعد قليل ٠

ولقد كانت حركة الهجرة الرئيسية الى الشمال والشرق أطول وأهم جميع الهجرات ، وربما كان ذلك لأن معظمها قد حدث فى الدور الذى كانت الصحارى الباردة تمر فيه بعصر الجفاف ، ولهذا تم فيها الاستيطان أو بالقرب منها ولكن فى جزء محدود ٠ واننا لنعرف أن الاستيطان قد تم فى هذه الصحارى فى وقت ما وهذا ما تدل عليه بقايا المستوطنين ٠ وربما كانت تلك البقايا للمهاجرين الأوائل الذين وصلوا قبل أن تشتد قوة الجفاف فى الصحارى الباردة ، ومن المحتمل ألا تكون الهجرات قد تعدت مناطق الاستبس فى أوربا وآسيا التى شمالى ايران وكاراكوم ، ومن الواضح أن ملايين عدة من المهاجرين لم يدخل منهم أحد شمالى الصين (١٣) بل انه بدلا من ذلك اتجه المهاجرون الى جهة الشرق والشمال وأخذوا معهم عددا كبيرا من السكان الجدد ، وغالبا ما كانوا خليطا من المغول وظلوا

---

(١٢) ان بقايا العصر الحجرى فى «سفكيالنجة» بمنغوليا وقسم كبير من سيبيريا تدل على الهجرة الى الشرق فى العالم القديم ٠

(١٣) انظر مؤلفه Loehr صفحة ٥١ ٠

يواصلون سيرهم عبر آسيا الى أقصى الطرف الشمالى الشرقى منها ، ثم ساروا الى العالم الجديد ، كما أن الهجرة لم تتوقف هناك لأن الضغط كان يتزايد من خلفهـــــا ، وأخيرا أصبحت القارتان الأمريكيتان آهلتين بالسكان ، وعلى ذلك فان الثقافة التى حملت الى العالم الجديد كان تراث العصر الحجرى الوسيط أساسا حتى لو أطلق على الفنون والصناعات الجديدة اسم العصر الحجرى الأخير أو العصر الزراعى الأخير وذلك لأن الهجرات الكبيرة التى تمت فى العصر الحجرى الوسيط هى التي جاءت بالجزء الرئيسى من سكان العالم الجديد ٠

ويسود شعوب العالم الجديد التوتر الذى عرف عند شعوب البحر الأبيض المتوسط ، كما نجد مميزات النمط الأرمنى واضحا بين الشعوب الأمريكية الأولى فى كولومبيا وسلالتهم (١٤) ومن الواضح اذن أن بعض أولئك الذين حملوا فنون العصر الحجرى الوسيط الى العالم الجديد قد جاءوا من المنطقة التى اخترعت تلك الفنون ٠ غير أن الجهد الذى قام به المنغوليون هو الجهد الأكبر وهذا يعنى حتمية الاتصال والاختلاط بين المغول وشعوب آسيا الغربية فى ظروف ضغط السكان الشديد ، وربما فى مكان ما فى المنطقة الباردة المنغولية فى سيبيريا شمال الصين ٠

ونعود الى أطراف الصحارى الغربية من العالم القديم ، ولا سـيما الطرف المرتفع من الصحراء السورية والجزء الغربى من ايران حيث الأمطار تنزل حتى اليوم بكميات تكفى أن تعول عددا كبيرا من السكان ، ففى هذه الأماكن وجد اللاجئون القادمون من الصحارى المترامية أول مكان يتوقعون الحياة عنده برغم الجفاف هناك ، ومن المعقول أن يصبح تراكم السكان فى هذه المنطقة خطيرا ، ومن المعقول أيضا أن هذه الحالة ظلت هكذا ردحا طويلا من الزمن ، وأن الهجرة الى جهة الشمال الشرقى والشمال الغربى التى تمت بدرجة متزايدة برهان أكيد على ضغط السكان الناشىء من الداخل ، وقد بلغت أعلى درجة من نسبة السكان فى العصر الحجرى الوسيط ، وكانت بنسبة شـخص لكل ميل مربع (١٥) ، وكان هؤلاء السكان على درجة عالية من المهارة ٠ ولابد أن المستوي عند طرف الصحراء

---

(١٤) راجع Eric S. Thompson في مؤلفه The rise and fall of Maya civilization
تورما أوكلا ١٩٥٤ الطبعة الثالثة
راجع ج٠ تشايلد (١٩٥٠)

(١٥) راجع ج٠ تشايلد (١٩٥٠) Town Planning Review

الغربية كان منخفضا وقد تكون نسبته (٥٠و) ولابد أن طرف الصحراء كان يزدحم بسرعة ٠

هذه هي الظروف التى تطورت فيها الزراعة فى هذه المنطقة ، وليس من المحقق أن الزراعة نشأت فعلا هناك وان كان هنـــاك احتمال لهذا ، وربما تكون فكرة الفلاحة وفكرة استئناس الحيوانات قد جاءتا أو جاءت احداهما من منطقة بعيدة نحو الجنوب الشرقى ٠

والشيء الواضح هو أن الممارسة المشتركة للفلاحة وتربية الماشـــية اما أن تكون منقولة أو مخترعة فى المنطقة حيث تتجه الى تداخل جديد فى التراث الذى يقدر له مستقبلا عظيما ، وأن الأرض النواة لهذهالمنطقة هى الأراضى التى تكونت فيها أشكال مركبة جديدة من التراث ، وربمـا كانت هى المرتفعات الوسطى من سلاسل الجبال التى تمتد شمالا ونحو الشرق من فلسطين الى الأناضول الشرقية ، فالقوقاز وايران وافغانستان على كلا الجانبين للهند وكوش حتى الحد الاقصى من الشمال الغربى للهند ثم الى تركستان ٠ (١٦)

ان النباتات والحيوانات التى وجدت أصلا فى تلك المرتفعات قد دخلت جميع المجتمعات الزراعية التى نشأت فى المرتفعات ذاتها ومن ثم انتشرت الى الاراضى المتاخمة غربا الى أوربا وافريقية الشمالية ٠

وبالطبع فان المرتفعات التى فى سفوح التلال المتاخمة والأراضى المستوية ينظر اليها كوحدة جغرافية واحدة فى تطور الزراعة فى المراحل الأولى ٠

وسوف نطلق على هذه الوحدة هنا « المنطقة الزراعية للعالم الغربى القديم » وكان بتلك المنطقة أنواع متعددة كثيرة من النباتات ذات الأوراق والنباتات ذات الجذور والخضراوات والفاكهة ، أما الحبوب الأولى الهامة فهى الشعير والقمح وربما وجدت بعض الحشائش الأخرى فى زمن مبكر أما حيوانات تلك المنطقة فكانت الماشـــية والخنازير والأغنام والمعز ٠٠ وتدخل الكلاب بالطبع ضمن هذه المجموعة وان لم تكن من الحيوانات التى تؤكل ٠ لقد ارتبطت الكلاب بالانسان منذ بداية هذا العصر ان لم يكن قبل ذلك ٠ وأيا كانت أهمية الخضراوات والفاكهة فان الحبوب كانت

(١٦) انظر الحاشية ٢٠ من هذا الفصل ٠

اعظمها أهمية • فعليها اعتمد الانسان بدرجة كبيرة فى سبيل بقائه ، ومن المحتمل أن تكون حيواناته الأليفة قد اعتمدت عليها كذلك •

وقد نشأ كل نوع من هذه الأنواع المختلفة من النباتات فى أجزاء مختلفة من المنطقة الغربية الزراعية ، وهذا يصدق على أنواع الحيوانات المختلفة على رغم قلتها ، وربما يكون الشعير وهو أحد أنواع الحبوب المبكرة جدا قد جاء من خارج هذا الاقليم ، وهذا الأمر قد ينطبق على الخنازير ، وأميل الى الاعتقاد بأن الأفغانستان والهند الشمالية الغربية والهند وتركستان (١٧) قد تكون هى الطرف الذى فى أقصى الشرق من هذا الاقليم وقد أضاف هذا الركن الى ثقافة ذلك الاقليم مقدارا أقل بكثير من الأجزاء البعيدة الى الغرب ، ونجد قائمة الخضراوات والفاكهة التى وضعها (فافيلوف) الثقة الروسى بالنسبة للطرف الشرقى أقل من غيرها من الأجزاء الأخرى ، وقد كان للطرف الشرقى حبوبه الخاصة به ولكنها كانت من ال ٤٢ نوعا ذات الكروموزومات المتشابكة والتى توجد فى مرحلة متأخرة من استنبات الحبوب فى العصور الأولى (١٨) واننى فى الواقع أمضى الى حد القول بأن الزراعة الغربية المتشابكة فى العالم القديم لم تنشأ فى الطرف الشرقى من ذلك الاقليم ، ولكنها انتشرت اليه من مكان بعيد غرب ذلك الاقليم وقد زرعت نباتات قليلة جديدة محلية معروفة للطرف الشرقى (١٩) •

واننى مع هذا لا أظن أنه من المفيد أن نسعى الى تحديد نواة الاقليم بأكثر من هذا القدر • (٢٠) فاذا ما حددنا الاقليم الذى كان نواة للزراعة الغربية على هذه الصورة فاننا نجد امتداده فى بلاد الحبشة (٢١) ومن المؤكد أن لهذا الاقليم فروعا أخرى فى مناطق انفصلت عنه ونقلت زراعتها واستئناس الحيوانات عبر الصحراء أو البحر (٢٢) •

أما المناطق الأخرى التى فى اتجاه الغرب فليس لها أهمية تذكر

---

(١٧) المراكز التى حددها (فافيلوف) ليست مفصلة بشكل كاف •

(١٨) ان أصل ال ٤٢ نوعا من أنواع الحبوب الكروموزمة كان وسيظل مسألة تخمينية •

(١٩) ان التحديد المقترح يشبه كثيرا التحديد الذى ذكرته عند الاقليم الغربى •

(٢٠) انظر R. Linton فى (شجرة التراث) صفحة ٩٢ — ٩٣ •

(٢١) تعتبر الحبشة عند (فافيلوف) مركزا لاصل الشعير •

(٢٢) يعتقد (بريدوود) أن بلاد المغرب فى افريقية الشمالية كانت فرعا من تلك الفروع وكذلك افريقية الغربية •

ونحن لا نوليها هنا اعتبارا لأنه ليس ثمة مجتمع أولى متحضر كان ذا صلة بهذه المناطق ، وقد كان المجتمع المصرى على صلة باقليم الحبشـــة الذى يجب أن نوليه عناية لهذا السبب ٠

ولقد تم استيطان مصر ببطء ، وجاء الذين استوطنوها ردحا طويلا من الزمن من أقصى الجنوب فى افريقية (٢٣) وفيما وراءها من بلاد النوبة والحبشة وقد احضرت هذه الشعوب معها الشعير والقمح وزرعتهما فى الوادى ، كذلك بجوار بحيرة الفيوم ، ومما يثبت هـــذا ما أتت به من ماشية ، وليس من المهم نوع الأغنام لأن الأغنام لم تكن معروفة أصلا فى افريقية فلابد أن تكون هذه الشعوب قد جاءت بهذه الأغنام من آســيا الى افريقية (٢٤) ٠

وعلى ضـــوء كل هذه البراهين لا يوجد ثمة شك فى أن الزارعين البدائيين كان لديهم الشعير والقمح والأغنام وجاءوا بها واســـتوطنوا الحبشة قبل قيام المجتمعات المتحضرة بزمن طويل ٠ لقد وجدوا هناك بلادا مرتفعة لا تختلف فى جملتها عن الاقليم الزراعى الغربى غير أنهم لم يجدوا كل صفات الاقليم الغربى ٠

ان الاقليم الحبشى الزراعى صغير لحد كبير فمن أين أتوا اذن ؟ من الممكن أن يكونوا قد جاءوا من الخليج الفارسى ٠ لقد رحلوا بالقرب من الشاطىء مراعين اتجاه الريح التى تهب فى وقت من السنة طوال الطريق حول الساحل الغربى ولكن كان فى وسعهم أن يأتوا برا ، اما عن طريق الساحل الغربى الى المنطقة التى تعرف الآن (باليمن) ، ومن ثم عبر مضيق باب المندب الى ارتريا ، والاحتمال الراجح هو انهم قد جاءوا من طريق فلسطين الى سورية وساروا الى الساحل الغربى من بلاد العرب حتى اليمن (٢٥) ٠

ولم يكن القسم البشرى الذى عاش فى اقليم الصحراء الغربى من

---

(٢٣) من المتفق عليه بشكل عام أن جميع الشعوب الاولى التى استوطنت مصر قد وفدت علينا من افريقية (راجع الفصل الثالث من هذا الكتاب) ٠

(٢٤) انظر ج ٠ تشايلد (ضوء جديد على أقدم شعوب الشرق) لندن ١٩٥٢ (صفحة ٢٦)٠

(٢٥) من المحتمل أن تكون الجماعات البدائية التى اعتادت الحياة في الاراضي المرتفعة قد انحدرت جنوبا الى الساحل الغربى ٠

العالم القديم فى أثناء عصر الجليد هو الجزء الوحيد المعرض للتغيير الطبيعى ابان انخفاض الجليد .

وبنقص كميات الثلوج الكبيرة ارتفع مستوى المحيطات فى جميع انحاء العالم ولم تجد الثلوج الذائبة فى بعض الأماكن طريقا سريعا الى البحر ففاضت على بلاد واسعة ، وقد حدث أن تجاوزت المياه وغطت أماكن أخرى ومن هذه الأماكن التى تجاوزتها فى الجنوب الشرقى من آسيا وما وراء ذلك ــ البلاد التى تعرف الآن باندونيسيا (٢٦) .

ونجم عن انكماش رقعة الأرض بفعل زحف المياه أن تجمعت الدوافع الى طرق جديدة من أجل البقاء .

ويبدو أن كارثة الجنوب الشرقى من آسيا ليست من النوع الذى يمكن مقارنته من حيث القسوة بتلك الكارثة التى نجمت عن الجفاف الذى حدث فى الصحارى الغربية والصحارى الشرقية فى العالم القديم ، ومن المحقق أن « كارل سور » يعتقد أن فنون العصر الحجرى الوسيط قد نشأت فى الجنوب الشرقى وان كان لايوجد أى دليل يؤيد هذا الاعتقاد فى حين توجد أدلة متوافرة كما رأينا تؤيد الفكرة القائلة بأن تلك الفنون قد نشأت فى الصحارى الغربية وما حولها (٢٧) .

وبطبيعة الحال فان التهديد الذى تعرض له جنوب شرقى آسيا كان أقل من التهديد السابق ، ذلك لأنه لم يوجد أى تغيير هام فى المناخ ، ويمكن مراقبة تخطى البحار لحدودها ، ويمكن التكهن به ولا يمكن أن يكون قد أثر فى أى وقت على مثل تلك المناطق الواسعة التى تأثرت بالجفاف فى الأقاليم الصحراوية ، وليس هناك ما يبرر افتراض وجود نزوح كبير من جنوب شرقى آسيا فى وقت ما كالحال فى الصحارى الغربية ، ولكن يوجد ما يحملنا على الظن بأن الازدحام فى جنوب شرقى آسيا وصل أخيرا الى درجة دفع الناس الى الفلاحة وقد ظهر نوع من الزراعة يمكن تمييزه عن سائر الأنواع الأخرى فى الاقليم الزراعى الغربى ، ولا شك أن ثمة نوعا أقدم من هذا قد ظهر فى الاقليم الشرقى (٢٨) .

---

(٢٦) ان خليج سيام الحالى الممتد عبر بحر الصين الجنوبى الى بورنيو وبحر جاوة بين بورنيو وجاوة وما وراء ذلك لاتزيد مساحته عن ١٠٠ قامة (القامة ٦ أقدام) ومعظم هذه المنطقة أقل من ذلك بكثير .

(٢٧) راجع Proceedings of the American Philosophical Society ١٩٤٨ (صفحة ٧٤ ــ ٧٥) .

(٢٨) راجع Sauer — Agricultural Origins صفحة ٢٤

وفي واقع الأمر أنه غير معروف تماما : هل كانت الزراعة الشرقية أو الغربية هى السابقة للأخرى أو أية منهما نابعة من الأخرى ؟ فان الاختلاف الأساسي بينهما هو أن احداهما كانت هى النباتات ذات الجذور والفاكهة، والأخرى تشتمل على الحبوب أساسا وهذا يوحى بأنهما كانتا من أصل منفصل ، وعلى ذلك تكون مسألة الأسبقية الزمنية ليست مسألة بذات بال ، وفى تحليلنا الأخير نجد أنه لابد أن تكون هناك علاقة بين الزراعة الشرقية والغربية ما دامتا تنتميان الى العصر الحجرى الوسيط ، وهذا العصر فى رأيى قد امتد نحو الجنوب الشرقى من الصحارى الغربية وانتشر الذين عاشوا فيه فى جميع الجهات الأخرى .

ان الافتراض الأكثر احتمالا هو أن الزراعة الشرقية كانت الملاذ الطبيعى للعصر الحجرى الوسيط فى المنطقة الاستوائية حيث وجدت بعض خضراوات من ذات الجذور مثل (تارو واليام) وهى نباتات تشبه البطاطا وغيرها من الخضراوات ذات الجذور وكانت لاتزال نباتات برية قبل أن تزرع كما كانت الزراعة الغربية من الناحية الأخرى هى الملاذ الطبيعى للعصر الحجرى الوسيط فى الوطن الأصلى من الشرق الأدنى حيث وجدت أنواع كثيرة من العشب البرى قبل أن تستخدم فى الزراعة (٢٩) .

ومع هذا هناك خيط دقيق يمكن الاعتماد عليه كدليل ، وهو يوحى بأن الزراعة الغربية قد اشتقت من الزراعة الشرقية وتفرعت عنها ، وعلى هذا تكون الزراعة الشرقية سابقة على الزراعة الغربية ، وفحوى البرهان هو أن الشعير وهو أقدم أنواع الحبوب المعروفة فى اقليم الزراعة الغربى قد أخذ لزرعه فى بداية الامر فى أواسط هملايا أو فى شرقيها تلك المنطقة التى كانت على صلة باقليم الزراعة الشرقى أو بجزء منه (٣٠) .

وعلى ذلك يمكن أن نضيف فكرة من قبيل التخمين وهى أن الانتقال من زراعة النباتات ـ ذات الجذور الى زراعة الحبوب قد حدث فى الاقليم الشرقى ، وقد حدث توسع فى تلك الفكرة الى درجة مقبولة تقضى بأن يظن أن الارز قد زرع فى وقت ما فى الاقليم الشرقى ، وأن زراعة الشعير

---

(٢٩) تعتبر شعوب فلسطين من الشعوب الزراعية ومع هذا فقد صنعوا مناجل متقنة جدا لاستخدامها في حصاد القمح البرى والحشائش .

(٣٠) ترى تلك النظرية أن الزراعة التى قامت بها القبائل اعتمدت على انواع قليلة من الحبوب قد وجدت في الجنوب الشرقي من التبت على انواع قليلة .

المبلل التي ظهرت في وقت مبكر في شمالي الصين (٣١) قد يكون أصلها من الشرق ، أما الأسانيد الأخرى فهي أكثر غموضا وضعفا ومنها أن الكلاب والخنازير قد استؤنست أولا في الاقليم الشرقي " ومن ثم فانه من المحتمل أن يكون الاقليم الشرقي قد أنتج بعض اصناف جديدة ايضا من بينها الحبوب .

غير ان هذا الموضوع من السخف بمكان فان مقدار الشعير الذى وجد في هملايا ضئيل جدا وليس كله في حالة نمو ، لقد كان الشعير المزروع في شمالي الصين من أصل شرقي ولا يوجد ثمة سبب يلزم أن الاحتفاظ بالكلاب والخنازير يدل على ابتكارات أخرى .

اننا حقيقة نجهل على وجه التقريب كل شيء يتعلق بأصل الزراعة جهلا مزريا فاننا لا نعرف : هل زراعة « الجذريات » قد سبقت زراعة الحبوب أو أن عملية الانبات وتلك الخبرة الخاصة باقليم الزراعة الشرقي قد سبقت عملية بذر البذور وهي الخبرة الخاصة بالاقليم الغربي ، وان كان بعض الباحثين يثيرون أفكارا حولهذين السؤالين (٣٢) ؟ كذلكفاننا لا نعرف كذلك : هل كانت بعض أنواع معينة من الفاكهة أو الخضراوات ذات الاوراق وذات السنف والبندق والجوز سابقة على الحبوب أو متأخرة عنها . ، ولا نعرف الترتيب الزمني لعمليات التسميد والري البسيط واستئصال الاعشاب الضارة والتوليد الانتقائي وان كانت هناك نظريات مقنعة تتعلق بترتيب هذه العمليات كلها أو بعضها .

ان ما نعرفه فعلا ــ وذلك ما يمكن أن نتبينه من الدراسة المقارنة للزراعة التي لاتزال تباشر حتى اليوم ــ هــو أن زراعة الحبوب كانت أعظم الابتكارات الزراعية ومهما كان أصــل زراعة الحبوب أو الزمن الذى زرعت فيه فانها قد أفادت الجنس البشري أكثر من غيرها من ضروب الفلاحة ، وبعد زراعة الحبوب وبذر البذور جاءت الزراعة والزيادة العظيمة في السكان والتوقف عن العمل والراحة الموسمية التي تمتع بها سكان الاقليم الغربي الزراعي ، فاذا ما كان أقليم الزراعة الغربي قد وقف على هذه الخبرة أولا فانه يكون بذلك قد نال الاسبقية في الزراعة مهما كان الذى حدث من قبل .

اننا نعرف معرفة مؤكدة ، كذلك ، أن اقليم الزراعة الغربي قد

---

(٣١) سيرد ذكر ذلك بالتفصيل فيما بعد .

(٣٢) عرضنا بعض هذه الآراء في الحاشية رقم ٢٩ .

وصل الى الاسبقية فى استئناس الحيوانات وقد عرف الاقليم الزراعى الشرقى من العالم القديم الحيوانات الأليفة والحيوانات التى يحتفظ بها لاغراض دينية والكلاب والخنازير والطيور .

على ان هذه الحيوانات التى ذكرناها لم يكن لها اهمية كبيرة بالنسبة لغذاء الانسان ان لم يكن لا اهمية لها على الاطلاق ، كما لم تكن ذات علاقة كبيرة بالزراعة ان لم تكن لا علاقة لها على الاطلاق .

وكل الاحتمالات توحى بأن استئناس الحيوانات فى الاقليم الغربى كان أمرا ثانويا بالنسبة للزراعة ، ولاتوجد سوى أدلة أركيولوجية قليلة تؤيد هذا الاحتمال الآن ، غير أن الحجة القديمة التى تفترض أن الانسان الزراعى كان قادرا على استئناس الحيوانات عن طريق تغذيتها بالفائض من حقوله أو بتركها ترعى بقايا الحبوب فى الحقل ما زالت هذه الحجة على درجة من الاهمية (٣٣) .

وتنطبق هذه الحجة فقط على اقليم الزراعة الغربى ، ذلك لانه كانت هناك حيوانات أليفة ترعى أكثر مما كانت عليه وهى حيوانات برية .

ان الزراعة غير الاقتصادية فى الاقليم الشرقى من العالم القديم قد دانت للشعوب التى مارستها ولم تصبح مطلقا أساسا لمجتمع متحضر . والحيوانات التى جاءت لتدعم المجتمعات المتحضرة يمكن تربيتها من حيث استئناسها من الغرب الى الشرق مع وجود تفاوت كبير بينهما فقد كان فى الاقليم الغربى من العالم القديم كما ذكرنا أربعة حيوانات تؤكل ـ الأغنام والماعز والخنازير والمواشى ، ومن الارجح أن اقليم الصين لم يكن به سوى الكلاب والخنازير فى بادىء الأمر ، ولم يكن فى العالم الجديد اى نوع حتى قيام المجتمعات المتحضرة هناك ، وبعد قيامها كان بها أنواع قليلة .

وقد استرعى « رالف لينتون »الأنظار الى الأهمية القصوى لهذه الاختلافات (٣٤) فانها تتعلق بمصادر البروتين والشحم التى فى الغذاء

---

(٣٣) أثبتت الاكتشافات التى قام بها « بريد وود » في أقصي شمالى العراق وجود عظام أنواع متتالية لحيوانات وان أكثر من ٥٠٪ من هذه العظام لحيوانات قابلة للاستئناس ، وفي قرية «جارمو» وجدت عظام لحيوانات برية يعود عمرها الى ما بعد عمر الحيوانات (في شمالى العراق) الى الف سنة .

(٣٤) راجع Ralph Linton في مؤلفه The Maya and their Neighbours سنة ١٩٤٠ ـ (صفحة ٣٣ ـ ٣٥)

الانسانى ، ولما كان الانسان يمكنه ان يبقى دون (النشا) الذى يحصل عليه من الحبوب ولكنه لا يستطيع أن يبقى دون بروتين وشحم ، فلهذا يبدو ان استئناس الحيوانات كان هاما جدا بالنسبة لبقاء البشرية وبالنسبة للزيادة العظيمة فى عددها والتى جعلتها الزراعة الغربية ممكنة عن طريق فلاحة النباتات .

ولم يكن الامر فى الواقع على هذه الصورة :

أولا ـ لأن بعض النباتات ولا سيما الفول واللوبيا والفاصوليا تعطى هى أيضا المواد البروتينية والدهنية .

ثانيا ـ أن الفلاحة تستنفد وقتا أقل من جمع الحيوانات ولهذا السبب فهى تتيح للناس أن يقوموا بها أكثر من صيد الحيوانات والأسماك .

ثالثا ـ ان الحيوانات ذاتها تعيش على المحصولات النباتية .

ومع ذلك فان هذه الاشتراطات تترك الزراعة الغربية ومايصاحبها من استئناس للحيوانات فى مكانة عظيمة اذا ماقورنت بأنواع الزراعات الأخرى ، وفى الحق لقد زادت الزراعة الغربية من تفوقها لأن الزارع الغربى قد طور صناعة الالبان ومستخرجاتها التى حسنت الاقتصاد الحيوانى (٣٥) فى حين بقيت صناعة الالبان غير معروفة فى الاقاليم الزراعية الأخرى ، وليس هناك ترجيح معقول بالنسبة الى آيها كان أقدم أنواع الزراعات . هل هى الزراعة الشرقية أم الغربية ؟ فليس عندنا بالطبع أى تاريخ نعرف منه بدء كل من النوعين ، وأيا كان الامر فمن المحتمل أن تكون كلتاهما قديمة جدا (٣٦) .

كذلك فانه من المحتمل آن تكون أقدم التجارب الزراعية قد تمت فى فترة ليست طويلة بعد العصر الحجرى الوسيط ، اذ أن تجارب العصر الحجرى الوسيط الزراعية متماثلة جدا بحيث يخطىء الانسان فى التمييز بينها فى طبيعة العصور المتعاقبة والمحدودة تمهيدا قاطعا فى عصر ما قبل التاريخ .

اننا نعرف مثلا أن الرى بصورته الاولى قد عرف فى العصر الحجرى

---

(٣٥) « شجرة التراث » « لنثون » صفحة ٦٤ .

(٣٦) Economic Annuals and Human Cultures كمبردج ١٩٣٦ صفحة ١٣٦ .

الوسيط فى غربى أمريكا الشمالية دون أن يكون مصحوبا بأى لون من الوان الفلاحة ، وهاهى ذى تجارب خاصة باقامة السدود على القنوات الصغيرة وتحويل مياهها الى حيث تنمو خضراوات برية صالحة للاكل ، وتجارب كهذه يمكن أن ترجعها الى العصر الحجرى الوسيط فى فتراته الاولى فى الشرق الادنى من العالم القديم عندما كان المهاجرون فى التخوم المرتفعة من الصحارى لهم دون شـــك دراية كبيرة بمجارى الانهـــار الصغيرة ، كما كانت احتياجاتهم لتحسين موارد المياه الطبيعية كبيرة ، وذلك عندما يعتريها النقص فلم تعد تكفى النباتات البرية التى كانوا يأكلونها .

أما عن تواريخ التطور الكامل فاننا لسنا أحسن حالا فى معرفة اقليم الزراعة الشرقى عنه فى معرفة الأمور فى بدايتها .

اننا نعرف عن الاقليم الغربى أن ثقافة الفأس وبذر الحبوب مع وجود الحيوانات الرئيسية المستأنسة الاربعة قد وصلت اليه حوالى سنة ٥٠٠٠ قبل الميلاد وليس هناك ما يدعونا لافتراض أنها وصلت قبل ذلك بعدد كبير من القرون (٣٧) .

ويحتمل أن تكون الزراعة فى الصين الشمالية قد قامت بشكل منفصل يتأثر بالجفاف التام كما حدث للزراعة فى الاقليم الغربى من العالم القديم ، ويمكن أن يكون الاقليم الشمالى من الصين فى ذلك الحين قد ضم ستكيانج ومنغوليا وبعض أراضى سيبيريا والصين الشمالية الاصلية وهى أقصى الجزء الشرقى من الصحارى الشرقية وجزء كبير من الاراضى التى شماليها علاوة على الصين الشمالية ذاتها ، وكانت أجزاء كبيرة من هذا الاقليم عند نشأة هذه الزراعة فى الاصل — وهى تعد الآن صحراء أو مناطق جرداء — مأهولة بالسكان وتزخر بشـعوب العصر الحجرى الوسيط التى جاءت من الاقليم الغربى ، وكانت هذه أعظم حركة هجرة تجاه الشرق والشمال ، واننا اذا راعينا حجم هذه الهجرة وطول استمرارها فلا بد أن تكون قد ضاعفت من الضغط على السكان فى الاقليم الشمالى من الصين (٣٨) .

ان الصحارى الشرقية تختلف عن الصحارى الغربية فى أنها لم

---

(٣٧) وربما تكون بعد سنة ٥٠٠٠ قبل الميلاد كما يستدل من آثار جارمو ، ولكننى اشك أن يكون هذا قد تم في عصر ركود أساليب الفلاحة .

(٣٨) ارجع الى حاشية رقم ١٢ .

تفقد الرطوبة منذ بداية انهيار الجليد . وكانت هناك سلاسل جبال كثيرة وكبيرة جدا فى الصحارى الشرقية وقد أوجد الذوبان السنوى الضخم ابان انحسار الجليد موردا من المياه الصيفية أكبر بكثير من درجة التجمد العالية ، ومن ثم فان التغير فى الصحارى الشرقية لآلاف عدة من السنين بعد ذروة الجليد كان مناقضا لما حدث فى الصحارى الغربية التى كانت تفقد ما حصلت عليه من أمطار .

وقد شعر الناس بذروة التأثيرات فى الأراضى المتاخمة للجبال الشرقية والشمالية من التبت أى الصين الشمالية جنوبى ستكيانج الذى أصبح مغمورا بالمياه الى درجة كبيرة (٣٩) وقد عاد النهر الأصفر بفيضانات سنوية ضخمة بعد أن تجمدت مياهه وتماسكت عند منابعه ، وفاقت فيضاناته فيضانات الأنهار العظيمة التى فى الغرب .

لقد ارتفعت درجة الحرارة صيفا فى الصحارى الشرقية ، كما ارتفعت فى كل الاماكن وظلت الحالة كما هى حتى حوالى ٩٠٠٠ الى ٨٠٠٠ قبل الميلاد عندما بدأت تصلح الموارد العظيمة من الرطوبة (٤٠) . وعند نقطة التحول هذه التى لم ترتب عليها حادث هام له مثيل فى الغرب كانت موارد المياه قد بدات تتناقص بطريقة ثابتة ، وظلت تتناقص حتى عام ٢٠٠٠ ق. م. تقريبا ان لم يكن الى ما بعد ذلك . ان الأراضى التى استصلحت وأصبحت آهلة بالسكان أخذت تعود تدريجيا الى ما كانت عليه ، فى حين أن مناطق ستكيانج وشمالى الصين سرى اليها الجفاف بدرجة جعلتها آهلة بالسكان وان كان السكان قد آخذوا يتناقصون بالتدريج بعد ذلك ، وكان نقص عدد السكان فى ستكيانج بدرجة أكبر من شمالى الصين .

ومن الممكن فى هذه الظروف أن تكون الفلاحة قد بدأت بشكل مستقل فى اقليم شمالى الصين ، وان كان هذا الاحتمال ليس كبيرا ، فاذا ما كانت الفلاحة قد بدأت على هذا الشكل فيكون هذا قد تم فى تاريخ مبكر من الازدحام العظيم الذى نشأ فى الاقليم نتيجة تدفق سكان العصر الحجرى الوسيط من الغرب (٤١) ، أو حدث بعد ذلك التاريخ

---

(٣٩) هذا راى Loehr (صفحة ٤١)

(٤٠) اننى أتبع هنا الارقام التى وضعها «بوبك» بالنسبة الى ايران ، ويمكن ان نفترض ان التغيير قد حدث الى مسافة ما لجهة الشرق قليلا اذ ان التغير قد انتشر طبعا في كل العالم .

(٤١) انظر Sauer في Environment and Culture during the last deglaciation

نتيجة ازدحام السكان وبسبب الجفاف الذى حدث حوالى ٩٠٠٠ أو ٨٠٠٠ قبل الميلاد . ويبدو أن الرأى الاخير أكثر أحتمالا ، ولكننا حتى الآن نستطيع أن نقول ان الاكثر احتمالا هو أن بعض الخبرات الزراعية سواء اكانت مبكرة أم متأخرة قد جلبها المهاجرون من الغرب الى اقليم الصين الشمالية ، وهذا الاحتمال الاخير يتفق مع الافتراض الذى أتمناه وهو انه لا يوجد تمييز حاد فى الزمن بين ابتكارات العصر الحجرى الوسيط والابتكارات الزراعية ، واننا لا نرى فى الواقع أية فائدة من انعام النظر فى فكرة المنشأ المنفصل للزراعة الصينية ، وسوف نعرف فيما بعد أنها كانت متميزة عن غيرها تمييزا واضحا الى درجة بعيدة ، وانها كانت مخالفة لزراعات العالم القديم الأخرى ولم تكن الزراعة الصينية معروفة الا قليلا حتى عصر المجتمع المتحضر ، وقد تكون مختلفة جدا فى فتراتها الاولى وكان حدوثها المبكر على وجه اليقين فى سنكيانج وعلى الاغلب فى أقاليم منغوليا القابلة للزراعة والتى تشمل واحة (جوبى) غير أننا نجهل تلك المرحلة تماما اذ لم يعثر على أى سجل اركيولوجى (٤٢) .

وان آخر مالدينا من وثائق هو عن زراعة شمالى الصين الأصلية التى لم يكن به قط سكان العصر الحجرى بالمعنى المعروف الضيق . ولكن كان بها سكان أصليون من الزراعيين الذين انتقلوا الى هذه الأرض عندما أصبحت آهلة بالسكان ، وقد حدث هذا بعد أن حل الجفاف على الاقليم بأسره لمدة طويلة . وكان من جراء ذلك أن جف شمال الصين وأصبح قابلا للزراعة ، وبعد أن جفت جوبى لدرجة كبيرة دفعت بعدد كبير من السكان الى مناطق الصين المأهولة حديثا بالسكان (٤٣) .

وكانت عندئذ زراعة الحبوب ، وقد وردت الذرة العويجة المعروفة فى قائمة فافليوف باعتبار ان الصين مركزها الأصلى (٤٤) وقد يعنى هذا أن يمتد المركز الى أقصى شمالى ذلك الاقليم ، وقد زرع فى الاقليم كما لاحظنا وفى فترة مبكرة الشعير والحبوب والشوك ومحصول آخر من محصولات المجتمع المتحضر ، ولم تكن تبدو كنبات غربى ، ذلك لان

---

(٤٢) انظر Archaeological Researches in Falke Bergman Sinkeang ستوكهولم ١٩٣٩ صفحة ٣٦ ــ ٣٧

(٤٣) صفحة ٥٢ Lochr

(٤٤) فافيلوف في Origin, Variation ص ٢١

الحبوب والشوك بكل أنواعها كانت تزرع مبللة كالأرز وكان الأرز ذاته في الصين المتحضرة القديمة أيضا (هذا اذا ما كان التقرير الذى وضع عن مستعمرة يانج تشورتسم صحيحا) (٤٥) ٠

ومن الحقائق التى لا يمارى فيها أن الارز اذا ما كان قد وجد فلابد ان يكون قد اتى من الجنوب من الاقليم الذى يطلق عليه « الاقليم الشرقى الزراعى من العالم القديم » ومن المحتمل أن يكون الشعير قد اتى أيضا من هناك ، ويضع فافيلوف فى قائمته بعض أنواع الغاب الهندى والخيزران أو بعض أنواع الفاكهة وقليلا من الخضراوات الأخرى التى يمكن أن تكون من أصل شرقى ٠

وهنا يقوم تساؤل هل كانت الزراعة الصينية قد انحدرت أصلا من الاقليم الشرقى أو من الاقليم الغربى فى العالم القديم ؟ ولا يمكن الاجابة عن هذا السؤال اذ أن كل الشواهد قد وردت عن فترة متأخرة ، وفضلا عن ذلك فان زراعة الاقليم الشرقى ليســت زراعة حبــوب فى حين ان الزراعة الصــينية زراعة حبــوب ، وهذا يعود بنا الى مسألة الاشــتقاق الغربى ، فحتى الشعير المبلل يمكن أن يكون من أصل غربى ٠

وهناك احتمال كبير فى أن أصل الزراعات المهاجرة من الاقليم الغربى لزراع الحبوب الأوائل ومعهم محصول من الحشائش المختلطة . وهذا مما يتفق مع وجهة النظر العامة فى أن هذا الخليط من الحشائش قد يشتمل على جميع الأشياء حتى (السرنحو «الأذرة الصيفية») ، ان وجهة نظر فافيلوف عن أصل نباتات معينة ليست نهائية، وهذه النباتات قد تشمل القمح والحشائش الأخرى التى كانت لا تعيش فى مناخ الاقليم الشمالى الشرقى ، أما العشب البــــرى المحلى فقد دخل عن طريق الزراعيين سواء بقصد أو غير قصد واحتل مكانة هامة ، ولكن لا يوجد أى أساس قوى لهذا الرأى ٠

ويمكن القول بأن الزراعة الصينية غالبا ما أخذت النباتات أو المهارة الفنية عن كلتا الزراعتين الشرقية والغربية فى العالم القديم ، ولكن فى ضوء معلوماتنا الحاليـــة لا يمكن الجزم بتحديد أيهما أسبق فى اعطاء الزراعة الصينية دفعة البدء ، هل هى خبرة الزراعة الشرقية أو الغربية ؟

وفى زراعة العالم الجديد شأنها شأن الزراعة فى شمالى الصين يبرز

---

(٤٥) انظر G. Andersor (ابحاث ما قبل التاريخ لحياة الصين) ١٩٤٣

سؤال أمامنا هو : هل كانت هاتان الزراعتان هما أول ماوجد أو أن الانسان وصل اليهما فضلا عن زراعة أو زراعات أخرى ؟ فاذا ما كانت زراعة شمالى الصين او زراعة العالم الجديد قد جاءتا من انواع زراعة اخرى هى زراعة العالم القديم فان هذا يعقد المسألة أمامنا ؟ اذ كيف اذن تمر خبرات الزراعة وفكرتها من العالم القديم الى العالم الجديد فى الوقت الذى كانت فيه زراعات العالم الجديد موجودة ، وهذا الزمن هو الف السنة الخامس قبل الميلاد ؟ وربما تكون هذه الزراعة قد وصلت بحرا عبر الاقيانوس أو عن طريق بحرى مختصر كمضيق «بهرنيج» أو عن طريق البر من شمالى شرقى آسيا الى الاسكا ، لأنه من الممكن أن تكون الثلوج فى أزمنة العصر الحجرى الوسيط الأولى قد ذابت كلها ووجد جسر أرضى بين القارتين .

وثمة ادلة تؤيد طريقتين ممكنتين لقيام زراعة فى العالم الجديد أصلا، وتؤيد قيام ابتكارات مستقلة فى العالم الجديد أيضا ، وان كانت هذه الأدلة لا ترجح طريقة على الأخرى ، وسوف تعالج هذه الأساليب والحالات كلها هنا معالجة سريعة ومختصرة ، الا أننا سنتوسع فيها بحيث نبين أن عدة زراعات قديمة قد ساعدت الزراعات الكبرى التى ظهرت أخيرا فى أقاليم مختلفة من العالم الجديد ، ومن بين هذه الزراعات الكبرى ــ الزراعة التى نمت حوالى ٤٠٠٠ قبل الميلاد وهى زراعة القمح والذرة فى اقليم أمريكا الوسطى وفى الاقليم الذى تشغله الآن فنزويلا وكولومبيا ، وقد وجدت زراعة مبكرة أيضا هى زراعة النباتات ذات الجذور ولا يوجد تاريخ معروف لهذه الزراعات ، ولكن يحتمل أن تكون جميع أنواع الزراعة الاخرى فى العالم الجديد قد انحدرت من احدى هاتين الزراعتين أو منهما معا ، واذا ما كان الامر كذلك فتكون هاتان الزراعتان أو واحدة منهما قد نشأت عن طريق الانتشار من العالم القديم ، ولا بد أن يكون قد حدث هذا فى الالف الخامسة قبل الميلاد أو حتى قبل ذلك ، وهذا يعنى أنها كانت عن طريق عوامل الانتشار البدائية أو عن طريق الجماعات البدائية فعلا ، ذلك لأنه لم يكن حتى ذلك الحين شعوب متحضرة قد تقدمت بدرجة تمكننا من تمييزها عن الشعوب البدائية .

واذا ما كانت ممارسة الفلاحة قد انتشرت من العالم القديم الى العالم الجديد عن طريق البحر فانه ينبغى أن نفترض أن هذا قد حدث مصادفة ، فقد تكون الشعوب البدائية قد ساقتها تيارات المحيط من مكان الى آخر على طول ساحل ما فى العالم القديم وقذفت بهم فى آخر

الأمر على ساحل العالم الجديد ، وقد تكون الشعوب البدائية التي قامت بهذه الحركة ، وقد اختزنت المقادير الكافية من الطعام في قواربها عن وعى منهم كى تتمكن من البقاء طوال الرحلة ، أو تقصد البدء فى زراعة هذه الجذور أو الحبوب من جديد فى القارة الجديدة .

وقد تكون الشعوب البدائية قد جرفتها ثلاثة تيارات ، التيار اليابانى وربما يكون قد أخذهم بعيدا عن شواطىء جنوب شرقى آسيا وسار بهم شمالى الباسيفيكى ، ثم أودعهم مكانا ما على ساحل كاليفورنيا، والتيار الشمالى الاستوائى وربما يكون قد اخذهم بعيدا عن الساحل الشمالى الغربى من افريقية ، والتيار الجنوبى الاستوائى وهو الذى يكون قد أبعدهم الى غينيا أو ساحل الكونغو . وان أى تيار من هذه التيارات كان فى وسعه أن يحملهم عبر الاطلنطى ويودعهم ساحل فنزويلا وكولومبيا من أمريكا الجنوبية أو أى مكان على ساحل أمريكا الوسطى .

واننى أعتبر الطريق البرى أو مضيق بهرنج أقل الطرق احتمالا على الرغم من أن بعض العلماء يعتبرونه الطريق الوحيد الذى سلكته الشعوب البدائية وهم فى هذا لا يراعون الاحتمالات السابقة بالمرة ، وان كان هذا لا ينفى أن مضيق بهرنج هو الطريق الذى سلكه من عاشوا فى العصر الحجرى الوسيط والعصر الحجرى القديم من العالم القديم الى العالم الجديد ، وقد تدعمت تجارب الفترات المتأخرة من العصر الحجرى الوسيط بالزراعة والرى البدائى الذى يمكن أن يجىء عن هذا الطريق ، وبالمثل فان بعض خبرات معينة كصناعة الفخار تعود الى العصر الحجرى الأخير ، واننا اليوم لا نجد صعوبة فى تصور انتشار الفخار دون زراعة أو انتشار زراعة دون فخار ، ويمكن تصور ان الفلاحين الذين سلكوا طريق بهرنج قد حاولوا بكل تأكيد أن يستقروا ، ولعلهم فعلوا هذا لعدة مرات وهم على الطريق ، ووجدوا انه لايمكنهم الزراعة فى خطوط العرض الشمالية ، وبهذا يكون من المحقق أنهم فقدوا ما لديهم من جذور وبذور فى محاولاتهم تلك ، ثم مارسوا أطوار الحياة المختلفة كالصيد وصيد الاسماك والتقاط الاشياء .

أما طرق الحياة الاخرى فاننا لا نكاد نجد لها أثرا فى مجرى الاحداث فمثلا اننا نكاد ندرك أن المهاجرين قد تحركوا بسرعة كافية ليسترجعوا أعمال الزراعة بعد أن فقدوا النباتات التى زرعوها ، ولا بد أن هجرتهم قد استغرقت أجيالا عدة ومع ذلك فهناك نظريتان جديرتان بالتأمل حول هذا الموضوع ، وأيا كان الامر فان النظرية الاولى لم تعرض عرضا جديا

وكلتا النظريتين تفترض حركة سريعة الى درجة خيالية من آسيا الى امريكا الوسطى أو ما بعد ذلك مباشرة ، ونحن هنا لم نبحث هاتين النظريتين (٤٦) .

ويمكن أن نعتبر انهم اجتازوا طرقا بحرية طويلة على أن نضيف فورا انه لم يعثر على اى أثر من نباتات العالم القديم فى اية زراعة من زراعات العالم الجديد فى الفترات القديمة . وانى ارى أن هذا لايضعف من فكرة الاتصال بين العالمين ، فأيا كان الامر فانه يوجد احتمال حقيقى بأن زراعة العالم القديم او زراعة العالم الجديد أو كلتيهما قد بدأت بنباتات مختلفة عن النباتات المعروفة لنا ، وبهذا الخصوص (وهذا لايصدق بالطبع على النواحى الاخرى) فان كلتا الحالتين قد وضعت على الاساس ذاته مثل امكانية العلاقة بين زراعة الصين الشمالية وزراعة العالم الجديد ذات الجذور وتنبهنا تماما الى الأصل الافريقى فمن المحتمل ان يكون اى تيار من تيارى الاطلنطى قد أودع الشعوب البدائية التى حملها من الساحل الافريقى ـ أودعها الساحل ذاته من الاقليم الزراعى فى امريكا الجنوبية الذى عرف زراعة الجذور ، ومن الممكن تماما أن تكون هذه الزراعة فى العالم القديم قد وصلت الى افريقية فى زمن مبكر (٤٧) .

وثمة دليل خاص لعلم النبات يرجع أصل زراعة العالم الجديد الى زراعة العالم القديم ، فهؤلاء الزارعون قد وجدت بقاياهم على ساحل الانديز ويرجع تاريخ البقايا الى حوالى ٢٥٠٠ قبل الميلاد (٤٨) .

وكان أولئك الناس يعرفون القطن ونباتات (الجناريا) (٤٩) وهذان النوعان من النباتات يرجع أصلهما الى العالم القديم (٥٠) .

على أن تاريخا متأخرا كهذا لا يعنى شيئا على الاطلاق بالنسبة لموضوع أصل الزراعة فى العالم الجديد ، وذلك لاعتبار واضح فان الشعوب التى نتحدث عنها تشبه الشعب الذى يعيش على الهامش ، والذى يمكن

---

(٤٦) قال بالنظريتين ، كارل سور في كتابه Agricultural Origins صفحة ٥٦

(٤٧) Sauer صفحة ٣٤ ـ ٣٦ Agricultural Origins

(٤٨) انظر الفصل الاول ص ١١ من الاصل الانجليزى

(٤٩) كان يستخدم نباتات كجناريا في صناعة الكئوس والفناجين والاطباق عندما وصل الاسبانيون الى العالم الجديد .

(٥٠) Plauts across the Pacific George Carter ١٩٥٣ ص ٦٢ ـ ٦٦

أن يكون قد تراجع الى هذا الساحل الجدب قبل ضغط شعب آخر اكثر نجاحا من ذلك الشعب ، فاذا كان الأمر كذلك فان اسلاف تلك الشعوب فى الألف الخامس أو ما قبل ذلك ، ربما يكونون قد جاءوا من الجنوب الشرقى لآسيا حيث لم يعد القطن زراعة برية وحيث رسخت صناعة الصينى من أقداح واطباق ، وذلك عن طريق تيار اليابان الذى أودعهم ساحل كاليفورنيا ، ولم يصل القطن الى افريقيـة حتى تاريخ متأخر جدا ، وعلى ذلك فتلك الشعوب لم يكن فى وسعها ان تأتى عن طريق المحيط الاطلنطى .

ان الجفاف يؤيد نظرية الأصل المنفصل للزراعة المستقلة فى العالم الجديد . وقد أثر الجفاف على الاقليم الذى يشغله الآن جنوب غربى الولايات المتحدة وشمالى المكسيك ، وترجع أبحاث « انتيفز » حول تتبع عملية الجفاف من بداية عام ٨٠٠٠ قبل الميلاد تقريبا الى درجته القصوى حوالى ٥٥٠٠ قبل الميلاد ، وظلت الحال هكذا الى حوالى ٢٠٠٠ قبل الميلاد .

ويطلق « انتيفز » على العصور الألفية الثلاثة والنصف الاخير « الجدب الطويل » (٥١) حتى لو كان لا مثيل لهذا العصر ، والتواريخ محققة فى المنطقة الصحراوية من العالم القديم ، انه من الصعب أن تقاوم انطباعا بأن هذا التحلل فى المناخ عندنا بمثابة العامل الرئيسى لكل من تطور الزراعة ، ثم فيما بعد ظهور المجتمعات المتحضرة أو على الاقل المجتمعات المتحضرة الأولى التى نشأت فى العالم الجديد .

وهنا يمكن أن يثبت أن الممارسة الأولية للفلاحة قد جىء بها من آسيا قبل أو فور أن أصبحت تأثيرات الجفاف قاسية ، وربما كانت هى الممارسة الاولية التى وجدت باقية على ساحل الأنديز بعد ذلك بعدة آلاف من السنين ، أو يمكن أن يثبت أن زارعى النباتات الجذرية من الساحل الافريقى قد ألقى بهم على شواطىء فنزويلا وكولومبيا ، حوالى ذلك الوقت ، وأن بعض نسلهم قد تحركوا شمالا وانتقلوا بزراعة الحبوب تحت تأثير الجدب المتزايد ، أو ربما قد حدث شىء آخر مختلف تماما لا نجد مايشير اليه فى البيانات المعروفة فى الوقت الحاضر ، وما زال من العسير أن تظن بأن تأثير الجدب كان هو التأثير الكبير على الحوادث ،

---

(٥١) ذكر كارل سور مؤخرا ان تقدم الثلوج الاخير في امريكا الشمالية في زمن ادنى بكثير مما كان يظن .

كما كان ذلك محققا فى حالة اقليم الصحراء الغربية من العالم القديم .

وبطبيعة الحال فاننا نستطيع ان نضع فروضا جيدة ، وكثيرا من الشواهد الموجودة عن كيفية بداية زراعة الحبوب فى العالم الجديد .

اولا ـ أننا نعلم تعاقب نوبات الجفاف والرطوبة فى وادى المكسيك (٥٢) وهذا يوحى الينا (وان كان لا يمكن أن يثبت) بأن التأثيرات المحلية ـ وربما كانت تأثيرات الأمطار التى حملتها الرياح الغربية المعروفة من خليج المكسيك ـ قد عدلت فى أوقات معلومة تأثيرات الجدب فى الوادى وربما الى مسافات موغلة الى اقصى الجنوب عادة .

ثانيا ـ ان الدليل على بداية زراعة الحبوب فى أمريكا الوسطى قد أصبح الآن كافيا الى حد بعيد وسوف ندرس بعد هنيهة زراعة الذرة ، ولكن أمامنا الآن زراعة نباتات (الدلسيم) لنبحث حبوبه ، لقد بين «جوناثان سور» ان نبات (الدلسيم) ذا الحبوب انما هو من نباتات العالم الجديد فى الأصل (٥٣) .

وكانت المناطق التى تعنى بنباتات الدلسيم تشتمل على امريكا الوسطى ولا يوجد أدنى شك فى أن هذه النباتات قد زرعت فى تاريخ مبكر (٥٤) ومن الاحتمالات البعيدة،ان نباتا كهذا يمكن أن يزرع فى الوقت الذى يكون قد توطن فيه محصول الذرة واصبح غلة ثابتة .

أما بخصوص الذرة نفسها فان أقدم البقايا المعروفة من اشكالها المزروعة قد وجد فى (بات كاف) اى فى سهول (سان اوجستين) فى (نيومكسيكو) وهى ترجع الى أعوام (٤٠٠٠ ـ ٣٥٠٠) قبل الميلاد (٥٥) ولكن هذا الاقليم لايمكن أن يكون هو اقليم منشأ الفلاحة لأن النبات هو نبات الأنجاد والمرتفعات كما يصدق هذا أيضا على الحبوب المزروعة فى العالم القديم ، وانى لا اظن انه يمكن أن يوجد أدنى شك فى أن زراعة الذرة قد نشأت فى الأرض المرتفعة فى أمريكا الوسطى ، ومما يؤيد هذا

---

(٥٢) Selected Papers of International Congress — Paul Sears of Amersicanists ١٩٥١ ص ٥٧ ـ ٦١

(٥٣) جوناثان سور « نباتات الدلسيم » ـ دراسة تاريخها صفحة ٦٥١ ـ ٥٦٢ .

(٥٤) كارل سور (صفحة ٤٦٧ ـ ٤٦٨) .

(٥٥) انظر مؤلف Libby صفحة ١١٢

الافتراض الآن احتمال ان تكون الذرة البرية قد نمت فى وادى المكسيك منذ امد طويل يقرب من ٦٠ الف عام مضت (٥٦) .

ان تاريخ بداية الفلاحة ينبغى أن يكون قبل تاريخ «بات كاف» اى ٤٠٠٠ قبل الميلاد او اقدم من ذلك .

وعلى ذلك يمكن ان نعرض رأيا موجزا هو ان اللاجئين وقد تحركوا نحو الجنوب بعيدا عن المنطقة متجهين نحو الاراضى الحجرية والصحراوية قد لجئوا الى مرتفعات امريكا الوسطى وبدءوا هناك زراعة الحشائش المتنوعة التى تشمل نباتات الدلسيم والذرة . وان الذرة قد أصبحت المحصول المفرد الاكثر نجاحا من المحصولات كلها ، المماثلة لشعير وقمح العالم القديم كليهما ، وربما يكون زارعو الحبوب فى العالم الجديد قد اخترعوا تجربة الزراعة لأنفسهم ، أو ربما قد أخذوا هذه الفكرة من الذين زرعوا نباتات اخرى وان اسلافهم قد جلبوا فكرة الفلاحة من العالم القديم .

وهناك مصدر واحد للفكرة مأخوذ من فلاحى زراعة الجذور التى قامت فى اقليم فنزويلا وكولومبيا من امريكا الجنوبية ، ومع هذا فانه من الممكن جدا الا يكون ذلك هو المصدر ، ففى الواقع أن زراعة الجذور فى اقليم فنزويلا وكولومبيا لم تكن اقدم من زراعة القمح فى أمريكا الوسطى . ان سبب تحرك السكان نحو الجنوب من الاقليم (الحجرى ـ الصحراوى) يمكن أن يكون سببه الأزدحام ، ليس فى الأراضى الواسعة التى فى امريكا الوسطى فحسب حيث بدات زراعة القمح ، بل أيضا وراء الاراضى البرزخية التى لم تكن تستطيع الاحتفاظ الا بعدد قليل من السكان فى اقليم فنزويلا وكولومبيا ، وربما يكون مثل هذا الازدحام فى ذلك الاقليم قد ادى الى ظهور زراعة الجذور هناك ، كما أن ازدحاما آخر نشأ بطريقة أخرى ربما يكون قد ادى الى ظهور زراعة جذور أخرى فى الاقليم الشرقى من العالم القديم .

كانت زراعة امريكا الوسطى أقدم زراعات حبوب العالم الجديد كما ذكرنا وأن الحدود الشمالية من اقليم أمريكا الوسطى الزراعى لابد انها كانت فى مكان ما فى شمال وسط المكسيك فى بلاد مرتفعة ، طالما أن

---

(٥٦) انني مدين للبروفسور Junius Bird في تحذيره بعدم اخذ هذا الدليل على علاته .

جميع خضرواتها الهـامة وكذلك الحبوب من أصـل الاراضى المرتفعة ، كالحال فى الاقليم الغربى من العالم القديم .

واذا ما أردنا تعيين حدود الاقليم جنوبا فان هذا أصعب بكثير لأن المناخ وجغرافية السكان سيظلان مناسبين تماما لكوستاريكا على الاقل غير ان المحصولات قد نشأت دون شك فى أمريكا الوسطى ذاتها . ان الذرة والفول واللوبيا والفاصوليا والقرع قد زرعت معا هناك على روابى عالية صغيرة من الارض ، وكانت الخبرة فى هذه الزراعة غير متشابهة تماما لخبرة زراعة القمح فى العالم القديم ، ولكنها ذات أهمية كبيرة من حيث علاقتها بممارسة الزراعة ذات الجذور فى اقاليم العالم الجـديد نحو الجنوب (٥٧) . ووجد ايضا الفول واللوبيا والفاصوليا وعدد من انواع الفاكهة واشياء اخرى متنوعة ، ولم تعرف الحيوانات المستأنسة ، اذ كان الموجود من هذه الحيوانات قليلا لدرجة كبيرة عن الموجود منها فى أقاليم العالم الجديد التى القينا عليها نظرة ، ولكن بعضها نقل من أقاليم أمريكا الجنوبية كما أن الدندى قد وجد فى وقت ما .

ان زراعة الحبـوب فى العالم الجـديد التى تهمنا هى من الاقليم الغربى لأمريكا الجنوبية ومن العسير تحديد حدود هذا الاقليم شمالا شأنه شأن حدود اقليم أمريكا الوسطى جنوبا ، وربما كان الاقليمان غير منفصلين، ولكن الاقليم الغربى لأمريكا الجنوبية له ــ بدرجة ما ــ شخصية مستقلة ، لأنه قد أوجد عددا من النباتات المعينة التى زرعت حديثا ، وقد اتسع الاقليم الى جهة الجنوب بسبب مناخ بوليفيا والارض التى تضم جميع المرتفعات الوسطى بسلسلة جبال الانديز وارتفاعات أعلى من الوسط لعدد قليل من مناطق الخضروات ولاشك أنه وجدت أراض عانت من الجفاف بالقرب من الاقليم فى الوقت الذى بدأت فيه الزراعة هناك . .

وكانت الصحراء الساحلية موجـودة بلا شك منـذ أمد طويل ، وكانت أطرافها دون أدنى شك تمتد نحو الخارج كلما قلت موارد المياه التى يسببها الذوبان السنوى فى جبال الانديز . والامر الاكثر احتمالا عن غيره هو ان مساحات عريضة كهذه مثل صحراء سيشورا فى شمالى بيرو وصحراء «اتاكاما» فى الطرف الجنوبى من الاقليم ربما تكون مصدر السكان الذين دفعتهم الظروف للترحال ولكن هؤلاء السكان لم يكونوا عددا كبيرا جدا . ومن المؤكد أيضا انه كان قبلهم عدد وافر من السكان

(٥٧) كارل سور في « الاصول الزراعية » صفحة ٤٥ ، ٧٠ .

الذين كانوا يقيمون فى الأراضى المرتفعة ، ووجدوا أن مواردهم من المياه آخذة فى النقصان .

غير أن الصعوبة فى اكتشاف الظروف المحلية فى الاقليم الغربى من امريكا الجنوبية التى كانت كافية لدفع الناس الى الفلاحة ، انما هى التى تتمثل فى اتساع رقعة المكان بدرجة أكثر مما يحتاجون اليه كمأوى لهم، وكانت هناك ضرورة الى أولئك السكان تقتضيها الحاجة الملحة اليهم فى ذلك الحين .

وبدات الغابة الاستوائية فوق الجبال العالية فى المنحدرات الشرقية ولا بد ان السكان الذين استطاعوا الوصول الى ذلك المكان كان فى مقدورهم بالتأكيد أن يجدوا مقومات الحياة دون ما حاجة الى القيام بتجارب لا جدوى منها . ولا يوجد أدنى احتمال فى أن ذلك الاقليم كان آهلا تماما بالسكان ، وربما كانت الجبال ذاتها غير مملوءة بالسكان المشتغلين بصيد الحيوانات والذين عرفوا الجنى ، هذا اذا اكتفينا بالاكتشافات الاركيولوجية الناقصة التى اجريت هناك باعتبارها دليلا كافيا .

ومهما كانت معرفتنا قليلة عن الزراعة القديمة فى الاقليم الغربى من امريكا الجنوبية فانها تحمل الينا على الأقل نذرا يسيرا من التلميحات العامة التى يفاد منها أن الزراعة قد جلبت الى هناك من اقليم أمريكا الوسطى ، ولقد سبق ان اقترحنا ان المستوطنين الزراعيين الأوائل على ساحل بلاد بيرو فى امريكا الجنوبية كانوا من الشعوب التى تعيش على الحدود أو التخوم ودفعتهم الشعوب الاخرى نحو الجنوب ، فاذا ماكان هذا صحيحا فان هؤلاء السكان قد جلبوا معهم زراعتهم البسيطة من اقليم زراعى أقدم من اقليمهم فى اقصى الشمال .

لقد جاء الفخار وجاءت الذرة سريعا من بعده الى هؤلاء الناس وربما عن طريق تدخل أناس غيرهم حوالى العصر الألفى الثانى قبل الميلاد ومن ثم توطدت مجموعة من زراعة الحبوب توطدا تاما فى الاقليم الزراعى الغربى من أمريكا الجنوبية ، وهذا يوحى الينا بقوة أن زراعة ذلك الاقليم قد اشتقت من زراعة اقليم امريكا الوسطى ولا يدعو هذا الى الدهشة لأن علاقة كهذه باقليم أقدم منها من اقاليم العالم القديم شىء منطقى نظرا الى عدم وجود دليل بأن الانسان فى الاقليم الغربى من أمريكا الجنوبية كان ملزما بأن يجد لنفسه موارد طعام جديد أو يهلك .

وأيا كان الامر فاننا نعرف شيئا اكثر قليلا من هذا عن أصل

الزراعة فى الاقليم الغربى من آمريكا الجنـوبية ، وقد اصـبح فى هذا الاقليم تدريجـا مجموعة من الخضروات وهى ـ ولو أنها كانت صغيرة ـ كانت كافية تماما ، ولا شك فى أن البطاطس كانت أشهر صنف من هذه الاصناف .

ولقد زرعت أصناف متعددة من البطاطس فى مرتفعات الانديز ، ولقد نجحت زراعة البطاطس ونمت ولا تزال تنمو فى أمريكا الوسـطى الى أقصى الجنوب قبل منطقة بوليفيا (٥٨) ، واصبح بهذا الاقليم نوعان من الحيوانات المستأنسة هى «اللاما» (وهو حيوان من فصيلة الجمل) و «الالباكا» (وهو نوع من الاغنام) غير أن هذين النوعين لم يؤكلا الا فى عدد قليل جدا من الاحتفالات التى تجرى فيها الطقوس الدينية .

وليس من الضرورى أن يكون المستوطنون الأوائل على سـاحل الانديز والذين احتلوا مكانا هاما فى بحثنا هذا هم أقدم الزارعين فى الاقليم الغربى بأمريكا الجنوبية أو ربما كانوا كذلك ، وفى حالة وجودهم فليس هناك مايحمل على الظن بأن الزراعة كانت هناك حوالى عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد أو قبل ذلك التاريخ .

وبهذا يتم تخطيطنا لأصل أنواع الزراعات السبعة الأولى فى العالم . خمسة أنواع منها زراعة الحبـوب وتضمنتها فيما بعد أبحاث أصـل المجتمعات السبعة الاولى المتحضرة ونوعان من الزراعة ذات الجذور التى قد يتضمنها أو ربما لا يتضمنها أصـل زراعة الحبوب ، ووجـدنا أن الاشتقاق ثابت تماما فى حالتين من الزراعات السبع .

وهناك رأى بأن زراعة الحبشة قد اشتقت من الزراعة الغـربية للعالم القديم وأن الزراعة الغربية لأمريكا الجنوبية قد اشتقت من زراعة أمريكا الوسـطى وهى تعد الزراعة الأقل عمـرا بلا شك ، وكل حالة من هاتين الحالتين تعتبر مدينة بمحصولها من الحبوب الخاصـة التى تميزت بها وبغيرها من المحصولات الاخرى للزراعات التى هى اكثر تقدما فيها ، واذا ما بدا من المحتمل أن زراعة الصين الشمالية مدينة بشىء ما لكلتا الزراعتين الغربية والشرقية فى العالم القديم فانه غير مؤكد تماما انها مدينة بأصلها لأية منهما ، ومن المحقق انها ليست مدينة لاحداهما بمحصولات القمح الخاصة بها . كما انه غير محقق أيضـا أن زراعات

---

(٥٨) فافيلوف في « الاصل والتنوع » صفحة ٤١ .

الحبوب الرئيسية فى العالمين القديم والجديد وهى الزراعة الغربية فى العالم القديم وزراعة امريكا الوسطى مدينة بأصلهما للزراعتين ذات الجذور أو العكس أو أن الزراعة ذات الجذور وزراعة الحبوب قد نشأتا مستقلتين الواحدة عن الاخرى .

واخيرا نتساءل : هل العلاقات بين زراعات العالم الجديد والعالم القديم ما زالت غير مؤكدة فحسب او هى غامضة أو تتناقض مع معلوماتنا الحالية ؟

اما عن رايى الشخصى فهو انه اذا ما وجد دليل كاف يركن اليه عن العلاقات التى هى موضع نظرنا فانه يبين فى معظم الحالات لبعض ديون زراعات العالم الجديد لزراعات العالم القديم ، وطبعا هذا لايعنى الديون بعد الاصول فان ديونا كهذه محققة بالبرهان تماما ، وكلما زادت المعرفة ، فمن المحتمل أن تبدو من الامور العادية كما انها لا تعنى ان تكون (ديونا) من مادة رئيسية كهذه التى نسميها محصولات اساسية، وانما تعنى ديونا ترجع فى الواقع لأصل الأفكار والخبرة الاولية التى يمكن أن تحل محلها ارادة أخرى أكثر تأثيرا ، وربما تخلفها خبرات ونباتات تصبح مناسبة لاقليم من الاقاليم ولكنها لا تناسب الاقليم الذى قام بنقلها ، واننى اتصور أن سكان العصر الحجرى الوسيط قد استخدموا كثيرا من العناصر الزراعية من أجل حصولهم على غذائهم وهذه العناصر لم يكشفها علماء الآثار القديمة بين بقايا أولئك السكان حتى الآن .

وقد توصل علماء الآثار القديمة الى بعض هذه البقايا ، وتميزت بعض الفروق بين الزراعات الاولى عن طريق اقتراض هذه العناصر بعضها من بعض ، أكثر من النقل المباشر من زراعة الى زراعة أخرى .

فاذا كان هذا حقا هو طبيعة العلاقات بين الزراعات الاولى المختلفة فهل ثمة مشابهة فعالة اذن بين تقدم الزراعات ذات الجذور فى العالم القديم والجديد بين تطور ثلاث الزراعات الأصلية القديمة ؟ زراعات الحبوب . وتشابه تعاقب زراعات الحبوب للزراعة ذات الجذور أو العكس فى حالتين ومن ثم ظهور مستقل لزراعتى الجذور والحبوب فى الحالتين بشكل متماثل ، ان هذه المتماثلات لا يمكن تحديدها تماما بالعلاقات الوثيقة الأصلية بين الزراعات المختلفة ، كما أنها لم تتسبب عن مشابهات

البيئة وحدها ولا عن طريق الوحدة الروحية للجنس البشرى (٥٩) غير أن عقلية الناس المتشابهة عادة ـ والتى يمكن أن تطلق عليها بصعوبة الوحدة الروحية ـ وتتمثل فى البيئة المتشابهة والتغيرات المتماثلة فى البيئة والاستمرار الحقيقى للتقدم .

هذه العقلية تبدأ بالعلاقات الأصلية فاذا ما اخذت هذه العوامل مجتمعة فانها قد تبين جيدا التكرار فى « اصل » و « تحسين » الزراعات الاولى .

---

(٥٩) يندد كارل سور بالوحدة الروحية للجيش البشرى كما يندد أيضا بقوة تأثيرات البيئة .

الفصل الثالث

وديان النهر

كانت خمسة من الأقاليم الضيقة التى نشأت فيها المجتمعات المتحضرة الأولى فى وديان الأنهار وهذه الخمسة هى : المجتمع المصرى والمجتمع العراقى والمجتمع الهندى والمجتمع الصينى والمجتمع الأنديزى . وكان تحلل المناخ نتيجة الجفاف فى جميع هذه الحالات الخمس هو السبب النهائى لالتجاء الناس الى وديان النهر ، ولكن هناك عاملان آخران أسهما فى دفع الناس الى التحرك ، واحد هذين العاملين هو الزيادة فى عدد السكان ، والآخر هو انهاكهم للتربة فى الأقاليم التى كانوا يستوطنونها من قبل . ويمكن أن نعتبر ان هذين العاملين ثانويان بالنسبة للجفاف بمعنى أنهما كانا عرضيين بالنسبة للزراعة ، والزراعة كما نعلم كانت قد تطورت على يد الانسان باعتبارها جزءا من دفاعه القديم ضد الجفاف وقد تفاعلت جميع هذه العوامل الثلاثة ـ زيادةالسكان وانهاك التربة واستمرار الجفاف ـ تفاعلا وثيقا على دفع البشرية بلا هوادة الى الرحيل من البلاد التى كانت تعتبر المأوى الأمين الذى التجأتاليه فى زمنما .

لقد تيسرت الزيادة التى حدثت فى اعداد السكان بفضل موارد الطعام التى زادت زيادة كبيرة ، والتى طورتها الزراعة واقتناء الماشية ، وبالطبع فان زيادة موارد الطعام هى التى جعلت البشرية تسترد أنفاسها فى نضالها ضد المناخ ، وزيادة عدد البشر هى الدليل الحاسم على فترة الراحة هذه ، غير ان الاعداد الزائدة من السكان كانت عاملا دافعا حتما للزارعين البدائيين بجانب كونها عاملا مساعدا فلقد كثرت الأيدى العاملة فى المزارع حتى الأولاد كان يمكنهم القيام بأية أعمال مفيدة فى الزراعة ، وقد أكسبت زيادة عدد الناس قوة

ضد الأعداء وضد الاعداء من البشر بالذات دون ماريب ، غير أنها كانت تستخدم أيضا ضد الحيوانات المفترسة الخطيرة ، ومن الممكن أن نفترض ان الزارعين البدائيين قد عرفوا شيئا عن الازدحام الذى تعرضوا له اخيرا وذلك عندمابدات خبرتهم بزيادةعائلاتهم ، ولابد انهم اكتشفوا هذا عندما توطدت هذه الخبرة جيدا وأصبح من الصعب الخروج عليها أوكبحها ، وفى الواقع لم يكن خطرها الكامن وغير المحسوس قد رجح تماما مزاياها الحقيقة .

أما فيما يتعلق بانهاك التربة فلا يوجد أى دليل على أن الشعوب البدائية فى أزمنة ما قبل الحضارة قد بذلت أية محاولة لعمل أى شيء للتغلب على انهاك التربة ماعدا ترك هذه التربة الى اراض جديدة ، وفى الواقع هناك ادلة كثيرة على أنهم تركوا الارض مرات كثيرة الى حد أننا نفترض انهم لم يقوموا بأية محاولة على الاطلاق لصيانة الارض أو أنهم نجحوا فى أية وسيلة لها تأثير ذو قيمة . وكما ذكرنا فى الفصل الأول فان تأثير تلف التربة لابد انه كان متنوعا الى درجة كبيرة مع تنوع الصفة الأولية للتربة فى المناطق الزراعية المختلفة ، وربما أيضا مع الاسراف النسبى فى استخدام طرق الزراعة المختلفة ، غير أن جميع الطرق التى كانت معروفة عند جميع الاقاليم الزراعية المختلفة فى ذلك الحين كانت تالفة جدا .

وشعرت الشعوب بتأثير الجفاف عندما بدات الزراعة ، كما كانت الحال أيضا عندما بدأت الجماعات المتحضرة فى وقت متأخر فى العالم الجديد بكثير عن الجزء الغربى من العالم القديم ووقعت الازمة فى الجزء الشمالى الشرقى من العالم القديم فى وقت متأخر عن مجيئها فى الجزء الغربى ، كانت هذه الاختلافات تعزى اجمالا الى الفروق فى زمن التغيرات الطبيعية فى الأجزاء الثلاثة من العالم المشار اليه .

وايا كان الأمر فان حركة السكان كانت عاملا من العوامل أيضا كالحال بين جزاى العالم القديم . فاللاجئون فى الاقليم الغربى الزراعى لم يبحثوا عن الوديان العظيمة للنهر فى ذلك الاقليم فحسب ، بل ان بعض المهاجرين تحركوا شرقا تجاه اقليم الصين الشمالية ، ولم يمض وقت طويل حتى ضمتهم الصين الشمالية الاصلية فى حوض النهر الأصفر حيث نشأ المجتمع الصينى المتحضر .

كانت الازمة التى ادت الى خلق المجتمعات المتحضرة هى بذاتها والى درجة كبيرة الأزمة نفسها فى كل اقليم ، لقد تكونت أربعة مجتمعات

مختلفة متحضرة فى الاقليم الغربى الزراعى . المجتمع المصرى والعراقى والهندى ومجتمع جزيرة كريب ومع أن الأزمة أوجدت مجتمعا واحدا فى كل اقليم فى حالة المجتمعات الثلاثة الاخرى ، وقد يكون هذا لأن الزراعة الغربية فى العالم القديم والاحتفاظ بالماشية قد أديا الى زيادة أكبر فى السكان عن الزيادة التى جاءت بها الزراعات الأخرى ، ولكن لا يمكن أن نقول : اننا نعرف هذا فربما كان اللاجئون المتعاقبون أقل ، وليس من السهولة الوصول الى شـــعوب الاقليم الغربى من العالم القديم ، واننى أظن انهم كانوا هناك ، اننا لا نعرف الأهمية النسبية للعوامل الثلاثة ، ــ زيادة السكان و نهاك التربة والجفاف ــ فى الأقاليم الأربعة وربما كان فى استطاعتنا أن نخمن مما سنذكره عن الديانات فى الفصل الخامس أن الجفاف فى جميع الحالات قد ظهر للشعوب بالنسبة الى كل منها على أنه الخطر المشترك الكبير ، ولا توجد أدنى اشارة الى أن أى شعب من تلك الشـــعوب حاول مواجهة تزايد الســـكان عن طريق اتباع عمليـــات الاجهاض أو تحديد النسل كما فعل بعض البدائيين فى التاريخ .

ومن المحتمل جــدا أن يكون الخصب الخـــاص وتجـــديد الارض سنويا فى وديان النهر قد أبطلت تماما فى واقع الامر تأثير انهـــاك التربة وهذه تكون مصادفة موفقة ، وقـــد يكون الأمـــر غير ذلك وربمـــا يكون المهاجرون قد اكتشفوا هذا قبل أن يبحثوا عن مأوى آخر لهم فى الوديان .

واعتقد أن اللاجئين ربما قد عرفوا وجود الوديان بزمن طويل قبل نزوحهم اليها ، وأنهم لم يعثروا عليهـــا ابان فرارهم اليائس ولكن وادى النهر لم يكن جذابا فى ذاته فى اية حالة كانت وكان فى كل واد صعوبات هائلة باعتباره موطنا للناس العاملين بالزراعة .

ومما لاشك فيـــه أن هـــذا هو السبب فى أن الشـــعوب المشتغلة بالزراعة لم تستقر فيها منذ زمن مبكر ، وكانت الوديان فى جميع الاوقات ماعدا فترات الفيضانات مملوءة بالمستنقعات وبالنباتات الكثيفة النمو والتى كان من الصعب جدا تنقيتها ، ولكن كان لابد من انتزاع هذه الاحراج اذا كان لابد من وجود حقول تكفى الزراعة .

وقد وجد العلماء أماكن لاتزال تبين حتى اليوم الظروف الطبيعية لبعض الوديان قبل أن يخضعها الانســـان لارادته ، فان النيـــل فى ذلك الوقت كان ينبسط على نطاق أوسع فى البلاد السودانية جنوب بحـــر الغزال ، أما وديان دجلة والفرات فعلى النقيض من ذلك ، اذ كانت تبدو فى حالتها الاولية ، ولكن على نطاق اضيق وأكثر رطوبة مما كانت عليه

في الاراضى ذوات المستنقعات التى امتدت من شط العرب حيث تحمل تلك القناة المياه الى الخليج العربى (الفارسى) (١) .

ان الوادى الاسفل للنهر الاصفر مايزال كما كان فى وقت استيطانه ينعكس فى الوادى الأعلى من « يسورى » وهو من روافدنهر يصب فى (أمور) على الحدود الشرقية من منشوريا (٢) .

اما فى حالة النيل فثمة سند أدبى مستمد من التأكيد الطبوغرافى والاريكيولوجى القديم عندما كانت بعض الأراضى البرية ما زالت باقية فى الوادى (٣) والسند الأول يعتبر شرحا لوصف طرق الصيد فى الوادى الذى تكثر فيه المستنقعات ويبين السند الثانى انواع الطيور والحيوانات التى وجدت هذه الأيام فقط على افرع النهر العليا وبالمثل فان حالة «الهندوس» الاولى يمكن أن نعرفها جيدا عن طريق الحيوانات الخاصة ببلاد رطبة وهى قد اختفت الآن وقد وضحت منذ زمن طويل فى البقايا المصور التى عثر عليها موهنجو دارو (٤) .

ولقد كان امام الزارعين البدائيين مهمة كبيرة ، اذ كان يتحتم عليهم توطيد أنفسهم فى بلاد مملوءة بمستنقعات من هذا النوع . ان الفيضان السنوى وحده كان تهديدا لوجودهم وان مواطنهم الاولى كانت تكاد تكون محصورة دائما بأراض ابعد مايمكن حتى لايصل اليها الفيضان ، هذه الاراضى كانت خالية من المستنقعات الى درجة كبيرة أو أقل من ذلك ، وأيا ماكان الامر فانها كانت خالية من نبات البردى القوى .

وكانت مساحة الاراضى التى كانت رطبة لدرجة تكفى زراعة المحصولات تختلف اختلافا كبيرا على حسب الحالات المختلفة .

وهذه الأراضى كانت جيدة على الدوام ، غير أنها كانت تحت تأثير الجفاف الدائم فى كل مكان ، ويقضى على هذا الجفاف بعد مدة باستخدام المستوطنين لطرق الزراعة ، وأخيرا اضطر المستوطنون فى جميع الحالات

---

(١) راجع The Geographical Journal ١٩٤٢ (صفحة ٢٤ — ٣٦)

(٢) راجع Toynbee في A Study of history
لندن ١٩٣٤ (صفحة ٣٠٣ — ٣٢١)

(٣) راجع John A. Wilson في The Burden of Egypt
شيكاغو ١٩٥١ (صفحة ٧٦ — ٧٧)

(٤) راجع Sir John Marshall في «موهنجو — دارو وحضارة الهندوس لندن ١٩٣١ »

الى أن يتحركوا الى أرض المستنقعات ذاتها ، والجدير بالملاحظة ان المستوطنين عندما كانوا يضطرون الى هذا كانت المستنقعات والفيضانات اقل مما كانت عليه في الأزمنة الغابرة في أثناء وجود الانسان الزراعي ٠ فان الجفاف دفع المستوطنين من مواطنهم القديمة ، ثم من المناطق التي لجئوا اليها مؤقتا ، وكان يعمل دائما على نقص الفيضانات السنوية والمستنقعات التي في الوديان الداخلية نقصا مستمرا . وانك لتجد تدرجا معينا محققا في حركة المستوطنين الى الوديان الداخلية ٠٠ لقد كانوا في بدء الأمر يستدرجون تحت تأثير انحسار المياه ، ثم يعودون فينكمشون بانكماش ملاجئهم المؤقتة ٠

ومن المحتمل انهم اضطروا على الفور الى عمليات المصارف والمجاري واقامة السدود والحواجز . وايا كان الأمر فان هذه المهام قد انجزت ، ويعتبر انجازها في كل حالة نجاحا وظفرا . فانه قدم الحل المناسب لمشكلة المياه ، وفي الوقت ذاته قدم حلا لمشكلة تلف التربة وانهاكها ، ذلك لأن الفيضان يجلب كل عام طبقة جديدة من التربة من الغرين الذي يحمله ، وبهذا لم تعد الأرض منهكة بالمعنى الحرفي ، ولم تكن كذلك خصبة الى درجة خيالية ، غير انه كان عليهم في باديء الامر ان يتعلموا : كيف يتركون الفيضان يغمر الأرض ، وكيف يبقون في أمان منه ، وكيف يحتفظون بالحيوانات ويربونها كما يحتفظون بأمتعتهم سالمة من خطر الفيضان ؟ ٠٠ وبعد ذلك كان عليهم تصريف المياه بعد اخصابها للتربة وترك الحقول معدة لبذر البذور ، بل انهم استطاعوا أن يجدوا الحلول لمشكلة السكان لزمن طويل ولدرجة تتيح للمجتمعات المتحضرة أن تكبر وتنمو ، وأن تجد طرقا جديدة بأكملها لتوسيع مواردها المادية التي يمكن أن تدعم الجنس البشري .

وسوف نراجع الظروف المادية عند قيام كل مجتمع من هذه المجتمعات التي نشأت أصلا في وديان الأنهار ٠ ولنبدأ بالمجتمع المصري ٠

ومصادر معلوماتنا عن هذا المجتمع ثلاثة :

أركيولوجية وجيولوجية وميثولوجية ، والمصدران الاولان يتضمنان البيانات المألوفة التي تستخدم عند الدراسات المتعلقة بأصل المجتمعات المتحضرة وسيضاف اليها كما هو الامر عادة كل البيانات التي جاءت فيما بعد والتي لها ثمة علاقة بأصول هذه المجتمعات ، ولن تستخدم البيانات الميثولوجية في هذا الفصل فحسب ، بل في سائر فصول الكتاب الباقية أيضا . وفي اعتقادي أن هذا المصدر من المعلومات لم يستغل

استغلالا كافيا (٥) • أما الأساطير التيسوف نتعرض لها فى هذا الفصل ، فهى على الخصوص ، أساطير الخلق والتكوين •

اننا نعلم أن جميع أساطير الخلق المصرية تبدأ بالمياه « الهيولية » • وتحدثنا احدى الأساطير عن اله كان فى ذاته هو الارض التى نشأت من المياه ، وعن اله آخر صنع الانسان على صورته ، وهو يسد جميع احتياجات الانسان بابعاد وحش المياه الهائل عنه •

وهناك عدة أساطير تصور المياه الهيولية بأنها « الالهة نن Nun » والتى من مادتها خرجت الحياة •

وهناك اسطورة اخرى تصور « رابية أولى » خلق عليها الهالشمس « الأم » نفسه ومن ثم خلق بقية الكون (٦) •

ويبدى « هنرى فرانكفورت » فى عرضه العام لأصول الحضارات فى الشرق الأدنى – رأيا يتلخص فى أن بعض المستعمرات الأولى والقديمة جدا والتى تكونت فىوادى النيل قد أقيمت علىروابٍ وسط المستنقعات والأراضى الموحلة (٧) • وهو يعتقد ان روابى كتلك الروابى قد تكونت بمثابة ضفاف للنهر عن طريق رواسب الفرين مع التراب الذى تحمله الرياح ، الا أن النهر ، بعد مرور فترة من الوقت ، يشق الشاطئ الذى تكون على هذه الصورة تاركا المجرى القديم أرضا موحلة وتاركا الشاطئ سلسلة من الروابى تقف فوق كل من النهر والمستنقع (٨) •

ويستطرد فرانكفورت قائلا : « كانت جميع آثار هذه المستعمرات فى الوادى الأصلى قد اختفت منذ زمن طويل ، انها لم ترسب فحسب ، بل جرفتها المياه أيضا بفعل التغييرات التى حدثت فى طريق النهر ، وهذا يوضح لماذا نجد أثر المستعمرات الأولى على حافة الوادى وسفوح الجبال وفى أسفل الجروف العالية (جروف الصحراء العالية) ثم يبدأ انخفاض الوادى » (٩) •

---

(٥) بعض موارد الاساطير التى سنعالجها ترجع الى الازمنة البدائية •
راجع « Historical Tradition and Oriental Research — H. Breasted »

(٦) راجع ولسون وآخرين في The intellectual adventure of ancient man
١٩٤٦ (ص ٤٥ – ٥٥)

(٧) هنرى فرانكفورت في « مولد الحضارة في الشرق الادنى » ص ٤١ •

(٨) لايذكر فرانكفورت اذا ما كان يتمثل الاساطير أمامه وهو يدلى بهذا الراى !

(٩) راجع « فرانكفورت » في « مولد الحضارة » ص ٤١ •

ثم يعتقد فرانكفورت أنه - وان لم يكن يوجد الآن أى دليل على المستعمرات الأولى مباشرة فى الوادى - فان مستعمرات كهذه قد تكونت ، وان أقدم المستعمرات التى لدينا دليل أركيولوجى على وجودها لم تكن هى وحدها المواطن القديمة جدا دون سواها .

أما بخصوص المستعمرات التى تحتفظ بتاريخهافانها فى مجموعتين:

المجموعة الأولى : من هذه المستعمرات ، فى الشمال وهى الاقليم المعروف بالوجه البحرى .

والمجموعة الاخرى : الى جهة الجنوب فى منتصف طريق النيل فى اقليم صعيد مصر « مصر العليا » وكان أحد هذين الموطنين خارج الوادى تماما . وكان هذا الجزء بجانب بحيرة الفيوم ، تلك البحيرة الكبيرة التى وجدت فى وقت ما على الجانب الغربى من النهر بحوالى ٢٥ ميلا ، وعلى مسافة ١٣٠ ميلا من ساحل الدلتا فى الوقت الحاضر (١٠)

وكانت على الشاطىء الشمالى الغربى من بحيرة الفيوم ، قرية كبيرة مبعثرة أو ربما كانت مجموعة من القرى الصغيرة المترابطة ، وكانت قرية أخرى على مسافة تزيد عن ٥٠ ميلا أقصى الشمال بالقرب من « بنى سلام » التى على مسافة ميل واحد أو أكثر قليلا من مصب رشيد الآن (١١) .

أما المجموعة الاخرى من المستعمرات الاولى فهى ، معروفة من البقايا المنتشرة على طول الجانب الشرقى من نهر النيل ، عند الطرف الخارجى للوادى فيما بين الحافة الخارجية التى وصل عندها الفيضان والجروف عند نهاية الصحراء المرتفعة . وهى فى الاقليم المعروف الآن بقرى الخوالد وديرتاسا مارا ببلدة البدارى الى الهمامية . وتقرب المسافة من ٣ر٥ من الميل ، ومعظم البقايا التى عثر عليها كانت عبارة عن مقابر قريبة من قرية أو مخيمات .

ويبعد مكان هذه المجموعة عن مكان المجموعة الاولى بمسافة ١٥٠ ميلا . ان الاختلافات الثقافية بين المجموعتين ، المجموعة الشمالية والجنوبية على درجة من الأهمية ولكن ليست كبيرة . والمستوى العام للثقافة على درجة واحدة ، وان كان فى مجموعة الفيوم أفضل قليلا ،

---

(١٠) ان بركة قارون الموجودة الآن هى الى حد كبير من مخلفات بحيرة الفيوم بعد أن انكمشت كثيرا .

(١١) انظر الحاشية رقم ١٧ من هذا الفصل .

وتختلف بعض التفاصيل الخاصة بالفخار والأمور الاخرى ، وكانت الجماعتان ـ من الشعوب ذات الثقافة المسماة بـ (ثقافة الفأس) الأصيلة ، أما الأوانى الفخارية فلم تكن دقيقة بل كانت نماذج بدائية . وقد وجدت الماشية والأغنام والخنازير المستأنسة وربما كانت قليلة العدد ولاسيما فى قرى الفيوم ، وكان صيد الحيوانات فى المستنقعات عاملا هاما فى معيشة السكان . أما الحبوب التى زرعت فكانت القمح والشعير ، ووجدت (الفيوم) فى أقاليم كانت الصحراء تجور عليها ولا سيما فى الفترة التى قامت فيها المستعمرات وبعدها مباشرة (١٢) ومن المحتمل ألا تكون قد وجدت نباتات على مدار السنة فى أى من المكانين ، ولم يكن من المحتم تنقية الصحراء او تصريف مياه المستنقعات ، ولم يكن لبحيرة الفيوم أى اتصال مباشر بالنيل عندما قامت المستعمرات (١٣) .

وعلى ذلك لم تتأثر (بحيرة الفيوم) بالفيضان السنوى وهذه ميزة جديرة بالذكر بالنسبة للبدائيين الذين لم يكن لديهم خبرة كثيرة ، أو لم تكن لديهم خبرة على الاطلاق فيما يتعلق بالتحكم فى المياه ، ولم يكن هذا الوضع متيسرا فى (ميرمد) .

وثمة دلائل تشير الى انه كانت هناك بركة ماء وربما كانت بمثابة خزان مياه بدائى (١٤) يمتلىء سنويا من فيضان النهر على مايظن .

وكانت المستعمرة على رابية صغيرة عند (ميرمد) نفسها ، ومن المحتمل أن فرع رشيد كان يجرى وقتئذ حيث يجرى الآن أو فى مكان ما قريب جدا الى جهة الشرق ، ولا بد أن تكون قد اتخذت بعض الاحتياطات الضروريةابان الفيضان وانلم يكن لدينا ثمةدليل على ماكانت عليه تلك الاحتياطات .

أما فى صعيد مصر ، فقد عاش بعض سكان البدارى (١٥) أو جميع سكان منطقة ديرتاسا بعيدين عن الفيضان ومن المظنون انهم وأسلافهممن قبل قد عاشوا فى منطقة لايصل اليها الفيضان كما ذكرنا اى فى الاراضى

---

(١٢) راجع (صحراء الفيوم) تاليف كاتون طومسون وجاردنر لندن ١٩٣٤ ص ١٧ .

(١٣) المرجع السابق ص ١٨ .

(١٤) انظر مؤلف المؤرخ Junker ص ١٧٢ .

(١٥) كثيرا مايطلق اسم اهالى ديرتاسا على السكان الاوائل فى صعيد مصر ، ولكنهم عنصر غير محدود الى درجة ما في التاريخ . وغالبا ما يعتبرون عنصرا اصيلا ومميزا من سكان البدارى .

الجافة أوالتى جفت تحت سفوح الصحراء المرتفعة . ويرى «فرانكفورت» أنه كان هناك سكان من هذا النوع يعيشون على الروابى داخل المنطقة الموحلة ، ومازال هذا من باب التخمين ٠

وقد تبلورت الآراء بشكل ثابت فى السنوات العشر الاخيرة حول اصل جميع هؤلاء المستوطنين الاوائل ، على انهم قد جاءوا من الجنوب من النوبة أو من المنطقة التى وراءها . وكانوا من نسل أولئك الذين تحدثنا عنهم فى الفصل الاخير وهم الذين تركوا الاقليم الغربى الزراعى قبل قيام المجتمعات المتحضرة فى الاصل بزمن طويل وساروا متبعين طريقا ما واستقروا فى منطقة الحبشة (١٦) ٠

وفيما يتعلق بهؤلاء الناس فمن المهم أن نذكر أن الحبوب التى أحضروها الى مصر والاغنام وهى الحيوان الوحيدالذى جاءوا به كانت من آسيا فى الاصل وليس من افريقية أو بمعنى آخر ان هذه الحبوبوالاغنام كانت من أصل آسيوى وليس من أصل افريقى ٠

ويرجع تاريخ مستعمرات الفيوم الى حوالى ٤٥٠٠ و ٤٠٠٠ قبل الميلاد (١٧) ٠ وفى تقديرى أنهم ربما كانوا هناك قبل ذلك التاريخ بقرون قليلة أكثر من ٤٥٠٠ ق٠م٠

وأيا كان الامر ، فان القمح الذى أخذ من مخازن الحبوب فى الوقت المشار اليه ربما لا يكون أول قمح قام أهالى الفيوم بزراعته ٠ اننا لانعرف متى زرع أهل البدارى القمح ولكننا نعرف متى زرعه سكان نقادة الأوائل الذين خلفوا أهل منطقة البدارى وكانوا يشبهونهم شبها عظيما ، ومن المحقق أنهم انحدروا منهم فيما بين ٤٠٠٠و٣٥٠٠ ق٠م (١٨) ٠

ويستنتج من ذلك أن أهالى البدارى وأهالى ديرتاسا كانوا معاصرين لسكان الفيوم ، وهذا افتراض ظل قائما لمدة طويلة وان كان بعض العلماء يظنون أنهم عاشوا قبل ذلك التاريخ بخمسة قرون أو أكثر من التاريخ الذى توصلنا اليه ٠

---

(١٦) تحدثنا فيما سبق عن هؤلاء الناس ٠

(١٧) انظر ابحاث Williard F. Libby في Radiocarbon Dating شيكاغو ١٩٥٥ ص ٧٧ – ٧٨ ٠

(١٨) قام Libby على دراسة هذا الموضوع في مؤلفه السابق ص ٧٨ ٠

وثم شعب آخر فى (عصر نقادة الثانى) (١٩) وهو شعب قد وفد الى مصر حوالى عام ٣٠٠٠ ق٠م الى نقادة (رقم ٢) رأسا من جنوب غربى آسيا ضمن الاقليم الغربى الزراعى ، ولكننا لا نستطيع أن نحدد من أى جـــزء جاءوا من ذلك الاقليم (٢٠) ٠ وبناء على ذلك فان شعب نقادة الثانى كان مختلفا عن المستوطنين الأولين لمصر وهم شعب نقادة رقم ١ الذين جاءوا جميعا فى بادىء الأمر من افريقية ٠ ولم يكن شعب نقادة فى الرحـــلة الثانية مجردا من كل صلة بأسلافه ، وقد بدأ الاندماج بين أهالى نقادة رقم ١ ونقادة رقم ٢ ٠

وقد ذكرنا فى الفصل الاول أن أنماط المستوطنين الثلاثة الاوائل الذين عاشوا فى مصر لم يتركوا أى دليل لعلماء الآثار يفيد وجود مجتمع متحضر يضم سكان الفيوم وسكان البدارى وسكان ديرتاسا ، ومن المؤكد أن المجتمع المتحضر قد بدأ عندما جاء سكان نقادة رقم ٢ وربما قبل ذلك٠

ويتضح بشكل جلى من السجل الأركيولوجى أن المستعمرات التى وجدت بجوار الفيوم قد اندثرت أو ربما قد هجرها السكان (٢١) والوضع نفسه يقال عن (ميرمد) ولم يكن هناك تغيير كبير ، أو أى تغيير فى الفترة التى وجدوا فيها ، وهذا ما يستدل عليه من نوع الآثار الباقيـــة فى مكان كل منهما ٠

أما عن بقايا تاسا والبدارى ، فانه لا يوجد ثمة شك فى وجـــود تغير بينهما غير أن « برنتون » مكتشف هذه البقايا يقول فى أكثـر من مناسبة : ان من الصعب جدا أن تفصل أهالى البدارى عن أهالى تاسا (٢٢) واذن لم يوجد تغيير كبير بينهما ، وان التغيير كان بطبيعة الحال نتاج الهجرة الجديدة ، ولم يوجد أى دليل اركيولوجى على ميزة التقدم السريع نسبيا الذى هو من خصائص المجتمع المتحضر . ومن المحتمل الا يكون انتقال شعب البدارى الى (شعب نقادة رقم ١) يغرى بالهجرة الجديدة ، غير انه وجدت حالة ركود واضحة بعد الانتقال أو حدوث التغير الى أن جاء غزو (شعب نقادة رقم ٢) وهو (غزو الهكسوس العمالقة) ٠

اننا لا نجد سجلات من التاريخ الاركيولوجى لجماعات هذه الشعوب

---

(١٩) هذا التاريخ الذى ذكره Libby يبدو تـــقريبا جـــدا من التـــاريخ المتعـــارف عليه لتوحيد مصر ٠

(٢٠) انظر Baumgartil ص ٧١ ــ ٧٢ ٠

(٢١) ارجع الى آراء كانون ــ طمسون وجاردنر ٠

(٢٢) ارجع الى حاشية رقم ١٥ ٠

الثلاثة التى استوطنت مصر اذ ذاك ، وهو الدليل الوحيد الذى يمكن أن نعتمد عليه كدليل على الأحوال المتحضرة · ولكن هذا ليس معناه عـــدم وجود مجتمعات متحضرة ، وعلى أية حال ينبغى أن نراعى أيضا الدليل بطريقة أخرى فى بحثنا عن أصل المجتمع المصرى المتحضر · حتى اذا كان الاساس قد وجد فقط بعد وصول العمالقة أهل نقادة الذين جاءوا من جنوب غربى آسيا وكان من نسلهم الشعوب الاولى يقينا ، لانهم كانوا لا يزالون بمصر واندمجوا مع سكان نقادة رقم ٢ فى الثقـــافة والدم ، ولا يوجد أيضا ما يبرر استثناء سكان الفيوم وان كانت مستـــعمراتهم التى قامت بجوار بحيرة الفيوم أصبحت خاوية من سكان الفيوم وبنى سلام (التى تبعد بأكثر من ميل قليلا من مصب الدلتا حيث فرع رشيد الى مكان آخر فى الوادى) ·

أما بلاد ما بين النهرين ـ فلها فى الحقيقة أسطورتهـــا التى تصف بأعظم وضوح وأجمل أسلوب فنى تكوين موطن مجتمع الوادى · وأيا كان الامر فينبغى أن نعى أن هذه الاسطورة فى شكلها الحالى عبارة عن تنقيح متأخر قام به الكهنة المتعلمون . وبالتأكيد كان الوادى الرئيسى موضع تأمل الانسان الكامل ، قبل زمن الكهنة وان كانوا قد كتبوا فى عصر التطور ، وحدث عصر الانحطاط فى الواقع عندما ارتد سكان بعض أجزاء الوادى الى ظروفهم الطبيعية . ومن ثم هناك احتمال أكثر بأن أسطورة ما بين النهرين المسماه (انوما اليش) كانت نتاج لمسة جديدة من أيدى المعلمين الجدد بنموذج فنى رائع · وتفترض أسـطورة (انومـا اليش) وجود مادة مائية هيولية فى البدء تشـــتمل على الماء المالح والماء العـــذب وعنصر آخر (قد يكون السحاب أو الضـــباب الخفيف) ولم يستطع علماء اللغة تحديده بشكل قاطع حتى الآن ، وكانت هذه العناصر ممتزجة معا ، وكثيرا ما كانت تحدث حالة مشابهة لهذه بعض الشىء فى الاقليم حيث يحمل شط العرب وقارون Karun مياه الدجلة والفرات الى الخليج العربى (الفارسى) وبدأ ظهـــور الأرض بعد امتزاج هـــذه العناصر الثلاثة بعضها ببعض ، وكانت الارض تحمل راسبا من الغرين يحتوى على خليط من الطين (من الماء العذب) والملح (من الماء المالح) ومثل هذا الغرين مازال يرسب الآن عند مصبى شط العرب وقارون ·

بعد ذلك جاء تكوين الأفق ، وكان مكونا من العنصرين السماوى والترابى ، كذلك كان يمكن رؤية الأفق من معظم نقط المراقبـــة داخـــل وادى النهر المتدفق على طول الصحراء ، وتكون بعد هذا السماء والأرض كقرصين ضخمين ، كل قرص منها نتاج عنصر من عناصر الأفق ، وأخيرا

اضطر كل قرص الى أن ينفصل عن الآخر بفعل الريح الذى نفخهما الى أعلى وأدخلهما الى الكيس الكبير الذى نعيش نحن بداخله وكان جانبه السفلى هو الأرض وجانبه العلوى هو السماء (٢٣) ٠

وهذه الرواية تعكس بشكل مقرب جدا الاحوال الطبيعية فى الصحراء قبل استيطان الانسان لها حتى أنه يمكن أن نتصور تصورا صحيحا حقيقيا له ما يبرره تماما ، ان الكهنة المثابرين الذين نعرف عنهم أنهم كانوا يبشرون ببشارة منقحة فى العصر الالفى الثانى المبكر قبل الميلاد عندما جمعت أجزاء أسطورة (انوما اليش) بعضها الى بعض بحيث تطابق بدقة وعناية حقائق الطبيعة ٠ ولا نستطيع أن نجزم بأن الكهنة ـ وهم يشتغلون بالابحاث الكونية ـ قد استخدموا المواد التى استمدوها من الزمن الحقيقى الذى قامت فيه المستعمرات، اى قبل هذا التاريخ بألفى سنة ، ولكن يوجد احتمال له ما يبرره وهو أن مواد كهذه كانت موجودة ، فاذا ما كانت هذه المواد قد وجدت فتكون أسطورة (انوما اليش) قد اقتبست فى نهاية الامر اذن من تلك المواد ، ذلك لانه مهما كثرت تنقيحات الكهنة واعادة كتابة المواد الكثيرة فانهم كانوا بالتأكيد يريدون الحفاظ على قدسية البشارة ٠

وأيا كان الامر فان كل ما نعرفه فى الواقع من عملية اشتقاق الاسطورة من الموضوعات القديمة هى أجزاء صغيرة لبقايا ترجمات لتلك الأسطورة فى زمن متأخر وضعت فى فترة ما بين العمل الأصلى والترجمة له ٠

وقد وطد المستوطنون الاول فيما بين النهرين أنفسهم فى الجزء السفلى من الوادى العلوى وسمارا وربما عند « ياجهوس » وغيرهما من الأماكن (٢٤) الا انهم لم يسهموا فى تأسيس المجتمع المتحضر ٠ وحتى هؤلاء المستوطنين من المحتمل أن يكونوا قد عرفوا شيئا عن التحكم فى المياه (٢٥) ٠ لأنهم قد جاءوا من ايران حيث كانت موارد المياه فى فوران ومن الصعب التحكم فيها ٠ غير أن المجتمع المتحضر قام فى جنوب العراق ٠

---

(٢٣) كان هذا زمن اضمحلال مجتمع مابين النهرين فى نهاية الدورة الاولى من تاريخه عند تشييد الديانة من جديد ٠

(٢٤) يفترض « بريدوود » أن المستعمرة الاصلية عند « سمارا » بالقرب من دجلة والمستعمرة عند « يامهوز » على الفرات انها أول مكان للمستوطنين الذين وفدوا من الاراضى الشمالية ٠

(٢٥) يقول فرانكفورت انهم أقدم مستوطنين فى وادى النهر ٠

وقد كشفت أعمال التنقيب هناك عن بعض منشآته الأولى • وأقدم هذه المنشآت المعروفة كانت عند اريدو Eridu المعروف الآن باسم (أبو شهرين) الا أن أولئك الذين كانوا فى الموضع الذى يعرف الآن باسم (آل عبيد) وعند (أور الكلدانيين) فهم من المستوطنين الأصليين ، شأنهم فى ذلك شأن غيرهم من المستوطنين الذين جاءوا من بعدهم • (أل عبيد) و (أور) و (اريدو) كانت كلها مستعمرات بجوار الفرات الذى كان يتجه وقتذاك الى غرب مجراه الحالى •

أما المهاجرون فاما أن يكونوا قد عبروا أراضى الوادى من الشرق الى الغرب ابان اختيار مواطنهم الجديدة أو يكونوا قد سافروا بحرا ، وربما بمحاذاة ساحل البحر عبر الخليج الفارسى لانهم جاءوا بدورهم من ايران (٢٦) • وربما جاءوا من السهل الايرانى المرتفع ذاته حيث تقدم الجفاف (٢٧) • والأرجح أنهم جاءوا من الجبال الواقعة فى الطرف الغربى للسهل المرتفع (٢٨) • حيث تنحدر مجارى المياه فى الفصل الممطر وتكون أحواض زراعة فيضانية لمدة معينة ينبغى استغلالها بسرعة وبطريقة فعالة ، ثم تصبح المياه نادرة بقية السنة الى درجة خطيرة . وفى الواقع أن الخبرة التى اكتسبوها ازاء فيضانات الجبال ربما تكون قد أوجبت عليهم فكرة الانتقال ، الى سهول ما بين النهرين الطينية اذا ما عرف السكان شيئا عنها ، وهذا هو ما قاموا به على الارجح ، وأيا كان مكان موطنهم السابق على وجه التحديد ، وربما يكون البعض قد جاء من مكان وجاء البعض من مكان آخر ـ فان هؤلاء الناس قد عرفوا جانبا كبيرا من شئون التحكم فى المياه (٢٩) وهم بلا شك قد وقوا أنفسهم من النهر فى العراق كما عرفوا كيف يستخدمونه (٣٠) •

---

(٢٦) يقول Stein انه كان يوجد عدد كبير من السكان الذين عاشوا في أزمنة ماقبل التاريخ وانتجوا الفخار الذى أنتجته سمارا .

(٢٧) يعتبر Bobek الحد الادنى لتاريخ الجفاف (٩٠٠٠ ـ ٤٠٠٠ ق٠م) وينبغى ان يكون التاريخ الثانى متأخرا جدا عن ذلك •

(٢٨) لم يأخذ Bobek بياناته من الجزء الغربى من ايران ولكن من Elburz الى الشمال ، وذلك الجزء الغربى من ايران ليس خاليا من المياه ولا اعتقد أنه كان كذلك في الالف سنة الخامسة الى الالف الرابعة ق ٠ م ٠

(٢٩) يجد Stein بقاياهم في الجبال والاراضي المرتفعة الموقع بالقرب من جهة الفيضان والمصادر الاخرى للمياه ولا بد أن كثيرا من هذه كانت تتطلب صيانة دقيقة .

(٣٠) لأعتقدان ماكتشفه Lees و Falcon عن الطبيعة الجيولوجية لجنوب مابين النهرين يقلل من احتمال أن الجزء الاسفل من دجلة والفرات في اقليم (ايردو ـ اور) كان يتميز بجميع صفات النهر العظيم •

ولا توجد تواريخ لأية مستعمرة من مستعمرات ما بين النهرين ، ولكن المستعمرة الشمالية جارمو Jarmo يمكن ارجاعها ـ حسب ترتيب الوقائع بطريقة تقريبية الى الزمن الذى وجدت فيه (سامرا) فى القرون الاولى من العصر الألفى الخامس (٣١) . ومن المعقول ان تفترض اذن أن (سامرا) انما ترجع الى القرون الوسطى فى العصر الألفى الخامس وربما كانت بداية ايردو الى ما بعد ذلك بقليل وان (آل عبيد) و (أور) كانوا حوالى سنة ٤٠٠٠ ق.م.

ان اساطير الخليقة فى مصر وبلاد ما بين النهرين بالصورة التى لدينا اليوم عبارة عن نظم مجتمعات لا تزال فيها أراضى الوادى وسط الصحراء لها الكفة الراجحة فى الثقافة العالية بالنسبة لجميع الأراضى الاخرى التى ضمت الى هذا المجتمع ، والامر ليس كذلك بالنسبة لأسطورة الخليقة الهندية ، ان أسطورة الخليقة الهندية باقية فى الريجفيدا Rigvida وبعض كتابات البراهمة واماكن اقل اهمية ، ان كتابات البراهمة أعمال متأخرة جدا ، وهى سوفسطائية خصصت لأغراض اكليركية ، وحتى الرجفيدا بالصورة التى وصلتنا عبارة عن وثيقة متأخرة اعاد الكهنة كتابتها مرات كثيرة (٣٢).

وفى الوقت الذى كانت تؤلف فيه هذه الاسفار المقدسة كانت الثقافة السامية فى الهند تنتشر فى شبه الجزيرة أقصى الجنوب، وفضلا على ذلك فقد حدثت هوة عظيمة قبل ذلك بقرون عديدة ـ عند تحول مركز المجتمع من وادى (الهندوس) الى حوض نهر الكنج (٣٣) . حيث كانت المستعمرات غير محصورة بالوديان الفعلية على اية صورة من الصور ، وكذلك لم تكن تتوافر للشعوب الهندية الاوربية التى اندمجت فى المجتمع وقتئذ وجاءت لتلعب دورا عظيما فى تطوره ، لم يكن تتوافر لديها خبرة ايجاد حضارة فى وادى النهر أو فى أى مكان آخر ، بل لقد عرفوا الحضارة من نسل أولئك الذين أوجدوها فى وادى (الهندوس). غير ان الشعب الهندى الأوربى قد استورد افكاره ذاتها عن الخليقة التى لا صلة لها بوديان النهر ، وضمت هذه الأفكار الى ذخيرة التقاليد التى استعان بها الكهنة فيما بعد لوضع علم الكوزمولوجيا (او علم القوانين العامة المسيطرة على الكون) .

---

(٣١) أنظر مؤلفات Libby

(٣٢) أنظر (ديانة الهندوس) ـ مورجان : نيويورك ٩٥٣ ص ١٥٥ ـ ١٥٧ .

(٣٣) انتقال دورى آخر يشبه ما أشرنا اليه في حاشية ٢٤ من قبل .

ومع ذلك فقد بقى فى الاسطورة الهندية الحديثة قدر لابأس به من المسألة المتعلقة بالماء على الأقل • وأفكار تدل على أن مياه النهر كانت فى وقت ما على درجة عظيمة من الأهمية • وينظر الى المياه الأصلية على أنها مصدر لجميع العناصر والاشياء عند بدء الخليقة • وأيا كان الحال فانها صفة خاصة بالميثولوجيا الهندية • وهى أن الخليقة وجميع المراحل الاخرى لتحسين العالم فقد حدثت بصورة مكررة فى سلسلة لا نهاية لها ، وبالتأكيد فان هذا لا شأن له بأصول المجتمعات فى وادى النهر ، بل لا دخل له بكافة أشكال الزخارف التى ادخلت على القصة . حتى ان المياه الأصلية تحتفظ بما كان من المحتمل أن يكون بديلا لها فى الأصل (٣٤) .

ان المعرفة الاركيولوجية المباشرة للاصول المادية فى الهند أقل بكثير من مثيلتها فى مصر وما بين النهر • وبالدرجة الاولى ، فان درجة الكشف والتنقيب فى الجزء الشمالى من اقليم المجتمع الهندى من الدورة الاولى كان صغيرا وغير منسق ، بينما نجد صعوبة بشكل خاص تجابه اليمن عند البداية فى الاقليم الجنوبى . حيث نجد استكشافات أكثر بكثير • والصعوبة هى نتيجة وجود سهل نهرى فى حوض النهر بسبب كمية الغرين الضخمة التى جلبها « الهندوس » ووزعوها ابان القرون التاريخية العديدة عندما كانت مياهه لا تخضع للتحكم ، وفى الوقت الحاضر نجد أن وادى النهر أعلى من مستوى مستعرة موهنجودارو والمواضع الجنوبية الاخرى ، وان واجب المنقب أصبح عسيرا جدا فى الحقيقة (٣٥) ولا يوجد فى الواقع أى منقب وصل الى القاع فى أى موضع من مواضع الوادى السفلى ، وربما يمضى زمن طويل قبل أن يتمكن أحد منهم من أن يفعل ذلك •

والى جانب هذه المصاعب فى الوادى ذاته ، يوجد تعقيد فى البحث عن البداية الهندية • وأيا كان الأمر ، فان هذا التعقيد مسألة ذات أهمية كبيرة ، والحقيقة انه فى المنطقة ما بين الجانب الغربى من وادى (الهندوس) الأدنى وتلال كيرثار فى بلوخستان ووراء كيرثار نحو الغرب وجدت

---

(٣٤) فى رواية ما من روايات الاسطورة الهندية تقول ان « براهما » قد القى بذرته فى المياه كما فعل « اتوم » فى احدى روايات الاسطورة المصرية ... وهذا يمكن ان يكون تراثا عاما للازمنة البدائية .

(٣٥) راجع The Cambridge History of India
تأليف مورتيمر هويلر ..

سلسلة كاملة من المستعمرات متمثلة في قرى زراعية بدائية ظاهريا . وعلى الاقل كانت كذلك قبل ازدهار المجتمع المتحضر فى دورته الأولية. وكل ما نعرفه ان الزارعين البدائيين ربما كانوا قد وطدوا أنفسهم فى مكان أبعد شمالا فى أرض لم يكتشفها أحد تقرب منه النهر هنـــاك . وتعتبر أراضى السند اليوم التى يجرى فيها نهر (الهندوس) فى طريقه المنخفض كذلك وأراضى بالوشى من الاراضى الجافة جدا القريبة من طبيعة الصحراء ماعدا وديان (أنهر الهندوس الصغير هناك)، الا انه يبدو من المؤكد انها كانت بعيدة عن مثل هذه الحالة وقت قيام تلك المستعمرات.

وقد قدمت تفسيرات شتى لهذا التغير ، ولكن يبدو من الأرجح أن هناك عاملين قد أثرا أكثر من غيرهما ، وهما التغيير فى اتجاه الرياح الموســمية الهنــدية والاضرار التى لحقت بالارض بوســاطة الزارعين البدائيين كالحال بالنسبة لطبوغرافيا السند (٣٦) . ويكاد يكون البحث عن الأصول الطبيعية للهند لم يبدأ بعد ، وهنا لا نملك الا أن نثير بعض الاسئلة :

هل المتحضرون قد انحدروا من البدائيين الذين كانوا يعيشون فى منطقة (السند وبلوخستان) أو دخلوا وادى النهر من اقليم أبعــد من هذا شمالا ؟ ويمكن الاجابة على هذا الموضوع فنقول : انهم قد جاءوا من مكان أبعد شمالا وذلك على أساسين :

الاول : هو أن الجزء الجنوبى من هذا الاقليم قد قام بكشفه السير أوريل ســـتين (٣٧) الى درجة كبيرة ، أما جومدار (٣٨) فلم تكشف عن أى أثر واضح لأسلاف الشعوب المتحضرة (٣٩) .

الثانى : هو أنه فى حقبة المجتمع المتحضر التى نعرفها نجد الفخار كان له لون أحمر ، والآنية الحمراء التى يتميز بها شمالى ايران فى حين

---

(٣٦) انظر A Wheeler في Prehistoric India ص ١٣٣ ـ١٣٦ ـ ١٩٥٢ .

(٣٧) انظر An archaeological tour in Waziristan and northern Bavahichistan دلهى ص ٧ ، ١٣ ، ٣٤ ، ٢٥ ، ١٠

(٣٨) انظر . Exploration in Sind-Memoirs N.G. Majumdar

(٣٩) ان السدود في ايخاد والتى لايعرف مشيدها قد تدل على ان أسلاف الشعوب المتحضرة قامت بانشائها ..

أن أواني السند البدائية كانت تنحدر من «جلود البقر» وهي في منطقة جنوب ايران ٠

وأيا كان الامر فانني لا أعتقد أن المجتمع الهندي قد بدا شمال اقليم البنجاب الذي كانت تتدفق فيه فروع نهر الاندوس ، واني أشك كثيرا من أن (هزابا) Hassapa المدينة التي يقوم هذا الاقليم عليها كانت مدينة قديمة (٤٠) ٠ وأظن أن المستوطنين قد ولجوا وادي الاندوس ذاته في بادىء الامر كما كانت عادتهم بالطبع ، هذا اذا كانوا قد جاءوا من ايران غربا لان نهر (الهندوس) يصب غربا في مكان أبعد عن مصبات الفروع الكبرى ، وفي رأيي أنهم قد تحركوا جنوبا على طول نهر (الاندوس) وادخلوا في آخر الامر التحسينات على المركز العظيم عند «موهنجودارو» في حين أنه كانت توجد مراكز أخرى أقدم منهـا وأبعد الى جهة الشمال على النهر الرئيسي ٠

فاذا كان هذا هو الذي حدث فان مستعمرات السند تكون قد شيدت بعد ذلك بوساطة مستوطني نهر الاندوس ، وهذا هو الارجح على ما يبدو ، وذلك بما أن أنماط بعض تلك المستعمرات كانت قد تأثرت بالحضارة في مرحلة متأخرة ، وبدأ الناس ينتجون الفخار والأشياء الاخرى التي تبين ذلك التأثير (٤١) . ويتضح تماما انتشار المجتمع المتحضر في هذا الاقليم ولا سيما على طول الساحل الشمالي الغربي الى (مكران) ، وان لم يكن قد شمل جميع البدائيين في اقليم السند وبلوخستان على أية صورة من الصور حتى ولو كان جميع المستوطنين الجدد الذين جاءوا من ايران وأفغانستان لينتفعوا بالتجارة من المصادر الاخرى التي كانت تعولهم والتي اقتضاها وجود المجتمع المتحضر .

اننا نسلم بأن هذه صورة للتمعن والتفكير في الاصل المادي للمجتمع الهندي ، ولكنها تبين سبب الحقائق الرئيسية المعروفة ولا تتناقض مع احداها على قدر ما أستطيع أن أحكم ، ولهذه الصورة وان كانت للتأمل والتفكير أهمية في بحثنا الحالي لانها تشتمل على وجود قدر كبير من

---

(٤٠) من المحتمل ان تكون دولة كبيرة قد ازدهرت في الدون المناخي للحضارة .

(٤١) لاتوجد لدينا سجلات تبين المراحل التكوينية ، ومن المرجح ان تكون ثقافة آمري تالية او معاصرة لمراحل التكوين في الثقافة المتحضرة ، ولما كانت هذه هي الثقافة البدائية السائدة أكثر من سواها حسب الظاهر على الشاطىء الغربي من الهندوس السفلى فان هذا يدل على ان البدائيين قد وطدوا انفسهم في الاراضي الواقعة غرب الوادي بعد ان بدأ المجتمع المتحضر في الوادي ذاته .

الاختلاف فى الأصل والطريق المبكر لمجتمع متحضر اولى تأسس فى وادى النهر ، سواء أكان النهر يجرى داخل صحراء أم لا يجرى ، فاذا كان الأمر الأخير ، فانه يكون للمجتمع المتحضر جيرانه من الشعوب البدائية .

ويمكننا أن نضيف افتراضا آخر لذلك الافتراض الذى قدمنـــاه وهو ان نفترض أن السند وبلوخستان وان كانا قديما غير متحجرين أو صحراويين كما هما الآن فانهما قد أعالا عددا صغيرا من السكان ، ولم يكونان على درجة كبيرة من الخصوبة ، ويبدو ان حياة اولئك السكان كانت الى حد ما عارضة بالنسبة لحياة المجتمع المتحضر الذى كانت اغلب اتجاهاته نحو أعالى النهر ، وعلى طول الساحل ، وربما تســير جنوبا الى كتش وكيثارار ، كما تسير فى الشمال الغربى الى ماكران .

والآن نعرج على الصين ، لقد امتد المجتمع الصينى شأنه شأن المجتمع الهندى الى الخارج عن قاعدة الوادى الاصلى بنسبة كبيرة ، غير ان الدليل الميثولوجى ليس كدليل المجتمع الهندى . يتكون تماما من بقايا عصرية وسجلات ترجع الى أزمنة تحرك المجتمع بعيـــدا عن واديه الأصلى وترجع جميع شواهد المجتمع الصينى على وجه التقريب الى وقت كان فيه الوادى لا يزال سائدا فى بقاعه ، وتلك كانت ميزته .

فأساطير الخليقة الصينية لا تبدأ بالمياه الاولى كما هو الحال فى الاساطير المصرية او العراقية او الهندية ، كما انها لا تصف بوضوح تام الوادى الاول قبل أن يأتى الانسان اليه ويستوطنه ، ولكنها فى مقابل ذلك تركز على الفيضانات الهـــائلة ، والاحداث الجليلة التى وقعت فى مجتمع مابين النهرين والمجتمع الهندى بعد زمن كبير من قيام المستعمرات الاولى فى حين لم يكن فى مصر اية اسطورة عن الفيضان أو عندما لم تكن قد وردت الينا أسطورة كهذه ، وليس هناك أية غموض حول هـــذه الفروق . وقد كان فيضان الصين الشمالية فى العصور الالفية الاولى من الجليد الاخير على نطاق اعظم بكثير مما حدث فى ذلك الحين فى الوديان الواقعة نحو الغرب اكثر من سواها (٤٢) ويوجد فى الواقع تباين عظيم بين الصين الشمالية وأندوس الهند فى هذه المسألة لان حوض النهر فى الصين الشمالية كان مسدودا بأكمله ، والبلاد خالية من السكان فى حين كان من المحتمل فى الهند ان يكون البدائيون ، كما رأينا ، قد عاشوا فى الاقليم . غرب النهر أو الأنهار ، ولم يكن هذا بالطبع فى وديان النهر

---

(٤٢) يتتبع ماسبيرو الاساطير الى مواطنها الاصلية بما تبقى لليوم من عبادة الابطال .

العظيم ذاتها ، بعدة قرون قبل آن يتكون المجتمع المتحضر ، ولايمكن أن يقوم تباين بين مصر والعراق بالطبع ، ذلك لان الانهار تشق الصحراء.

وعلى هذا فان الاساطير الصينية الخاصة بخلق الفيضان تسجل تجارب المستوطنين الذين دخلوا البلاد عند الانخفاض الهائل فى المياه الى الحد الذى جعلها غير مأهولة بالسكان ، وتسجل احدى هذه الاساطير أيضا التجفيف المصاحب لهذه الاقاليم فى (جوبى) التى كانت مأهولة بالسكان فى حين كانت الصين الشمالية غير مأهولة .

وتقع الاساطير فى مجموعتين :

المجموعة الاولى : أسطورة مزدوجة تتعلق بالتحكم فى الفيضان فى شانس وهونان ، وهذه الاسطورة المزدوجة هى أسطورة (تاي تاى) وأشهر الاساطير التى تسمى (يو) .

المجموعة الثانية : وهى الاساطير الثلاث الاخرى وهى (ناى يوكويا) و (كنج كنج) و (شى يو) وهذه الاساطير الثلاث هى التى أوضحها « ماسبيرو » وذكر أنها تتعلق بالركن الجنوبى الغربى من « شانتنج » وتروى أسطورة (تاى تاى) كيف أن » تاى تاى » قد سد (نهر فهد) (وهو يسمى الآن سوج) وعلى ذلك صرف مياه حوض كو - ان ريو بحيث جعل اقليم تاى بوان غير مأهول بالسكان (٤٣) .

ومن بين الامور الكثيرة التى ترويها أسطورة (يو) كيف آن «يو» قد طهر مجرى النهر الاصفر ذاته ومضيق (منج - من) فيما بين تلال (لنج - من) فى شمال هونان وبذلك أنقذ الصين بأسرها من الفيضانات (٤٤) .

اما أسطورة (نيو - كويا Niu-Kua) فهى رواية مضطربة عن كيفية معالجة « نيو - كويا » للاضطراب الكونى ، وذلك عندما خرجت الجهات الاربع الاصلية عن موضعها ، وخرجت السماء والارض عن أوضاعها الطبيعية الصحيحة . واشتعلت النار بشكل مستمر وغمرت المياه كل شىء ، وبعد أن قام « نيو - كويا » بتعديل كلّ هذه الأشياء وغيرها ونظمها ورتبها فقام بخلق الانسان من التراب الاصفر .

وتروى الاسطورتان « كنج - كنج » و (شى - يو) الاضطراب

---

(٤٣) يحتوى الاقليم على منطقة لاتزال يطلق عليها تاى تاى - شو والتى جفت على أية حال .

(٤٤) راجع راى ماسبيرو في Journal Asiatique

فى النظام الشمسى ذاته ، الا ان اسطورة «كنج ــ كنج» لا تنتهى بخلق الانسان ولكنها تنتهى بقيام « هو ــ تو » اله الأرض ، وتبين أسطورة « شى ــ يو » الحوادث الى زمن « الامبراطور الاصفر » الذى جعل الأرض مغمورة بالفيضان أولا تحت تأثير عوامل شتى ، ثم لما تبين أن الفيضان كان كارثة أرسل (با) ربة الجفاف . ولم يكن فى مقدورها أن تعود للسماء بعد أن قامت بعملها ، وعلى ذلك ارتحلت الى الشمال ، ومن المحتمل ان تكون (جوبى) حيث لا تزال تعيش هناك .

وتبين بادىء ذى بدء من الدليل الاركيولوجى أن المزارعين البسطاء الذين عاشوا من قبل فى ستكيانج وجوبى قد دخلوا الصين الشمالية من ناحية (كان سو) الى شانتنج وشمالى شرقى الصين الى (ميهول) ، وربما الى أبعد من ذلك (٤٥) وهؤلاء هم الذين صنعوا الفخار السنجابى غير المصقول مع نماذج من مشط وحبل مخطط ، وهو يبين أيضا بمكان استيطان شعب فى (كان سو Kansu) عمل الفخار الملون المماثل للفخار المأخوذ عن ايران والذى كان خاصا بالمستوطنين الاول فيما بين النهرين وسكان (نقادة رقم ٢) الذين عاشوا فى مصر (٤٦) . وقد انتشر هذا النوع من الفخار من (كافسو) الى (شانس) و (شنسى) و (هوتان) ولكنه لم يدم طويلا فى هذا الانتشار (مع أنه كان كذلك فى كافسو) ، وغالبا ما تحرك سكان كافسو أنفسهم الى جهة الشرق .

ان استيطان كافسو لابد أنه كان من المهاجرين الحقيقيين الذين جاءوا من الغرب ، وهؤلاء لم يكونوا وحدهم الذين جاءوا من هناك ، فسرعان ما جاء أناس آخرون صنعوا الفخار الأسود الفاخر ، وكانوا يسمون بشعب (لنج شان) وأطلق « هين جلدرن) عليهم شعب (شرق كاسبيان) فى احدى منشئاتهم الهامة فى أقصى الغرب (٤٧) . ويعتقد « هين ــ جلدرن » انهم جاءوا أخيرا من الأناضول الشرقية ومن المؤكد انهم كانوا معروفين هم وأقاربهم من الناحية الثقافية فى الأماكن الآسيوية الغربية والأماكن الأوربية الجنوبية الشرقية .

ان شعب (لنج شان) لم يدخل الصين عن طريق كافسو ، وربما كان ذلك لأنهم وجدوا الفخار الملون من قبل عند السكان هناك (٤٨) .

---

(٤٥) أنظر Max Loehr ١٩٥٢ ص ١٥ ــ ٣١ .
(٤٦) أنظر Max Loehr ص ٣٣ .
(٤٧) راجع مؤلفات هين ــ جلدرن عن الصين .
(٤٨) راجع Sidney Kaplan ١٩٤٩ ص ٣٦ ــ ٤٠ .

لقد تحركوا شمالا غير أنهم لم ينحدروا الى شنسى أوشانس لأن الشعوب القوية كانت هى التى تملك تلك البلاد ، ودخلوا الصين الشمالية الاصلية عن طريق شانتنج ، وهوثان الشرقية وانهواى ، ومنها توغلوا غربا الى هونان الغربية وبعد ذلك جنوبا الى أن وصلوا الى (سزشوان) ان اسطورة (تاى تاى) بسيطة ومعقولة ومن الممكن أن نفترض انها تذكرنا بتجارب المستوطنين القدامى جدا . وهم الذين صنعوا الفخار غير المصقول .

اما أسطورة (يو) فهى أكثر تعقيدا ، وتشتمل على ضروب من العجائب بعضها سياسى . ويوصف (يو) على انه مؤسس (اسرة هزيا) ، واذا كان ذلك قد تم فعلا فمن المحتمل أن يكون قد تم بعد الاتصال بالمستوطنين الذين عاشوا فى اقليم (هونان ــ شانس) ومعهم تقاليدهم عن الفخار الملون ، ومن الأمور التى لها بعض الأهمية أن ابن (يو) وهو (هزيا ــ هورش) قد عاش فى جوبى (٤٩) ، وعلى ذلك فان الواحات الباقية فى الصحراء ربما تكون قد كونت جزءا من النطاق الثقافى بعد أن أسس المهاجرون فى الصين الشمالية المستعمرة التى استوطنوها ، ومهما كانت بعض عناصر أساطير شانتنج الثلاث قديمة فلا يعقل الا نضمها بشكل جزئى الى شعب (النج شان) لأن شانتنج كانت الأرض الرئيسية التى دخلوا منها الى الصين ، كما أنه من المهم ايضا أن يكون الجزء الجنوبى الغربى من (شانتج) قريبا جدا من انحناء النهر الاصفر فى طريقه الى البحر ، وقد بقيت تلك المناطق مدة طويلة ولا تزال كذلك الى اليوم مكانا من اخطر الأماكن المجاورة للنهر . فالنهر يقطع شاطئيه دائما هناك ، كما انه كثيرا ما غير مسلكه فيصل الى البحر عند نقاط تبعد بعضها عن بعض جدا ، وهو يغمر فى طريقه مساحات شاسعة من الأرض المأهولة بالسكان . اذن فلا عجب أن يكون الجزء الجنوبى الشرقى من شانتنج قد أوجد أساطير الفيضان ، وانه لشىء ممتع أن تحتوى أسطورة من تلك الاساطير على الربة « با » ربة الحرارة المميتة ، وأن يظن مؤلفو الأسطورة أن « با » قد أرسلت للارض لاصلاح ما أتلفته الفيضانات ، وذلك بعكس النظام الذى قابلت به الكائنات البشرية النعمتين ، ولكنها ليست تفسيرا رديئا للعملية الكونية التى تحاول الأسطورة توضيحها .

---

(٤٩) راجع مؤلفات Loehr

وثمة مسألة واحدة ليس لدينا عليها أى دليل اركيولوجى ، تلك هى دخول الشـعوب من الجنوب الى وادى يانج تس وما وراءه ، الى شمال الصين . ولكن بعض الاسـاطير توحى – فى رأيى – بأن هـذا قد حدث ، لأنه كما يبين « ما سبيرو » توجد مطابقات معينة بين أساطير الصين الشمالية وأسـاطير « لولو » فى جنوب الصـين وأسطورة « تاى نوكيو » فى الهند الصينية (٥٠) وأيا كان الأمر فاننا لا نستطيع ان نذكر من هذا الدليل متى بدأت الشعوب الجنوبية فى الحركة الى الصين الشـمالية وما اذا كانت تدخل او لا تدخل فى أصل المجتمع المتحضر هناك .

ويدلى « اوين لاتيمور » برايه وهو ان الحضـارة الصينية قد نشأت على فروع النهر الاصفر فى تـلال الصين الشمالية الغربية (٥١) أى فى شانسى ، وربما فى شانسى وهونان الغربية ، وأعتقد أن جميـع الشواهد تشير الى ذلك الأقليم وليس الى شانتنج وهونان الشرقية كما يقول بذلك راى آخر مناقض لهذا الراى بأن البـلاد ذات التلال الواقعة فى الشمال الغربى لها طبيعة جيولوجية خاصة .

وجاء وقت فى العصر الألفى الرابع أو أوائل العصر الألفى الثـالث قبل الميلاد أصبحت فيه الاراضى مأهولة وملائمة ، ولا سيما للشـعوب الزراعية لأنه لم تكن توجد غابات عظيمة فى حاجة الى تنقية ، وكانت غنية الى حد ما بالأعشاب ، والزراعة سهلة جدا فى تربة كهذه ، ولقد كانت مثل هذه البلاد تجتذب جميع الشعوب البدائية والتى تميل اليها بطبيعتها .

وفى البداية جاء أولئك الذين كانوا يعيشون بالقرب منها شمالا ، وهم صناع الفخار غير المصقول الملون بلون رمادى ويحمل عـلامة على شكل مشط ، ولما كان الجفاف لا يزال مسـتمرا فى المنطقة الصحراوية الغربية كما هو الحال فى المنطقة الشرقية جاء صـناع الفخار الملون ووطدوا أقدامهم فى (كافسو) . وأخيرا انضم اليهم فى حركتهم (شعب لنجشان) الذى جاء هو أيضا من الغرب مع البـدائيين المحليين من

---

(٥٠) أعتقد ان هذا هو المعنى الحقيقى للمشابهات بين الاساطير الصينية والاسـاطير الجنوبية ، واعنى ان بعض الاراء الجنوبية قد جاءت الى الاسطورة الصينية المجمعة.

(٥١) يعتبر « لاتيمور » أن بداية الزراعة في الصين جزء من اصل الحضارة الصينية ويرى ان الاصل كان في الاماكن الواطئة .

الشمال والشرق ، وبدأت هذه الشعوب المتباينة تستقر بجوار فروع النهر الأصفر أو بالقرب من النهر الرئيسى الذى كان يحمل كميات ضخمة من المياه الى الأراضى المنخفضة من الجبال العالية الى أن تدفق الى كثير من الأراضى فى بطن المضيق ، ولا نعرف على وجه التأكيد كم من الزمن استغرقه الاستيطان بجوار فروع النهر فى سد احتياجات المستوطنين ، ولكن من المحتمل أن هذه المدة لم تزد عن عدة قرون ، وقد كانت موارد الأمطار متغيرة دائما فى ذلك الاقليم تغيرا عظيما من سنة لأخرى فيما بعد العصر الجليدى ، وفى حالة ندرتهـا كانت تكفى لرى المحصولات مباشرة لسد النقص فى موارد المياه على سطح الأرض . ويتبع هذا أن الذوبان السنوى الشديد للتجمد المنخفض هو الذى جعل البلاد فى وقت ما على هذه الدرجة من الجاذبية وهذه العوامل الجذابة لابد وأن تكون قد تناقصت بطبيعة الحال على مر الزمن .

وفضلا على ذلك فان المجارى الصغيرة كما يبين « اندرسون » قد تبعت فى مدة ما تاريخ النهر الرئيسى (٥٢) ، وفى الواقع هبط منسوب الماء حوالى ١٢٠ قدما فيما بين زمن الاستيطان والآن .

ولقد انتقل الناس من مكان لآخر تحت تأثير انخفاض مستوى المياه وزيادة حجم السكان الطبيعى ، ولابد وانهم اضطروا فى آخر الأمر الى السير مع النهر وراء الأراضى المرتفعة حيث السهل المكشوف .

وهكذا فان المسألة الخاصة بالبيئة فى أصل المجتمع الصينى مسألة ذات أهمية خاصة جدا .. وان مقارنة تربة (لوس) بتربة طمى النهر تبين أنه فى أراضى « لوس » قد أدركوا الثبات والاستقرار الذى قام به مستوطنون آخرون فى وديان الأنهار العظيمة فى الشرقين الأدنى والأوسط .

أين ومتى اذن بدأ تكوين المجتمع المتحضر ؟

اعتقد أنه من المحتمل ان يكون قد بدأ بجانب الروافد فى التلال ، ولكنه استمر فى وادى « لوس» بعد أن وصل الى سهل الصين الشمالية ولا يمكن أن يقال ان البقايا الاركيولوجية توضح التقدم السريع الخاص بالمجتمعات المتحضرة ، وان كانت تبين ذلك أحيانا فى هس وبن وشى وبن

---

(٥٢) راجع Children of the Yellow Earth I. G. Anderson نيويورك ١٩٣٤ ص ١٥٦ — ١٨٧ .

والأماكن الكبيرة المجاورة فى شانسى الجنوبية (٥٣) بيد انه لم يوجد اى تعاقب فى التغيرات المتعلقة بجزء كبير من الاقليم يمكن أن نقيمه بحيث يكون صحيحا الى درجة يركن اليها (٥٤) . ولا يمكن الجزم بأن الشعوب البسيطة جدا من جوبى وما وراءها قد بدأت خلق المجتمع المتحضر قبل أن ينضم الناس اليه .

ومع ذلك فمن المؤكد أن هذه الشعوب الأولى والشعوب المتأخرة عنها كانت تتكون من اللاجئين الذين هربوا من الجفاف ، وذلك قبل أن يصلوا الى مواطنهم الجديدة . وتبين الأساطير انهم واجهوا اخطار الفيضانات ، ولا سيما أولئك الذين اتجهوا شرقا فيما بعد الى السهل ومن المحتمل اذن أن يكون لديهم بعض الاعمال المعينة ، وهذا بالتأكيد امر عادى عند اولئك الذين اسسوا المجتمعات المتحضرة ، ومن المؤكد أن سكان ما بين النهرين قد عرفوا تلك الأنواع المعينة من الأعمال ، واذا ما درسنا الأماكن التى اقام فيها اولئك المستوطنون فى التلال الايرانية فمن الممكن أن نضيف ذلك الاقليم أو جزءا منه الى الأرض الأساسية لمجتمع ما بين النهرين ، وعلى اية حال ليس ثمة شك فى أن مرتفعات الصين الشمالية كانت جزءا من القاعدة الأصلية للمجتمع الصينى وانها قد بقيت بعدئذ ضمن أراضى المجتمع .

ويمكن أن نستدل من التواريخ التقريبية على أن اقدم المستعمرات هى التى اسسها المهاجرون الذين جاءوا من (جوبى) وسنكيانج حوالى عام ٢٥٠٠ ق. م أو ربما قبل ذلك بقليل ، لقد ظهر تأثير صانعى الفخار الملون وعرفنا شيئا عن هؤلاء الذين عاشوا فى شانس قبل عام ٢٠٠٠ وبعد ذلك بقرن أو قرنين عرف شعب (لنج شان) .

أما التحرك شرقا الى سهل الصين الشمالية فيمكن أن يكون قد بدأ فى وقت ما بين ١٨٥٠ و ١٦٥٠ ق.م (٥٥) .

أما آخر المجتمعات الأولية المتحضرة التى قامت فى وادى النهر فهو مجتمع (الأنديز) وقد قام ذلك المجتمع فى وديان بعض الأنهار القصيرة العديدة التي تعبر السهل الساحلى لبيرو الجديدة من سلسلة جبال الأنديز الى المحيط الباسيفيكى وهنا نجد أيضا الطبوغرافيا

---

(٥٣) انظر Oehr ص ٤١ — ٤٣ .

(٥٤) الخطوط العريضة فحسب التى لاتشتمل على تفاصيل .

(٥٥) راجع Lochr ص ٥١ .

الخاصة بوديان الصحراء والنهر ، الا أنها تختلف تماما عن طبوغرافية مجتمعات وادى العالم القديم فى أن تلك الأنهار كثيرة العدد وقصيرة بالنسبة لمجراها عبر الصحراء ، وان طريقها كان بالعرض داخل أراضى المجتمع بدلا من أن يكون ممتدا طوليا ، وان الصحراء ذاتها على شكل (شريط) يسير بين الجبال والساحل ، وان الجبال المرتفعة جدا تتاخم الصحراء على جانب واحد ، والمحيط يتاخمها على الجانب الآخر . وتوجد بعض الوديان المرتفعة ، ومسطحات أخرى بين سلسلة الجبال الوعرة والجبال المنخفضة بالقرب من الساحل .

وقد تكون تلك الأراضى المرتفعة ، أو لا تكون جزءا من مقر المجتمع المتحضر فى وقت قيامه فى الأصل ، لقد حصل كل هذا فى أزمنة متأخرة ، وهكذا فان موقع المجتمع يشابه أو لا يشابه مواقع مجتمعات وادى العالم القديم . وبناء على هذا الوضع فقد أوجد مجتمع الانديز صفات خاصة تختلف عن بعض صفات مجتمعات العالم القديم ، ونحن لا يتيسر لنا أن ندرك بشكل عام هل كان مجتمع الانديز قريبا أو بعيدا عن تلك المجتمعات ؟ وفى الفصل الخامس سوف نعرض للسبب الذى حملنا فى حقيقة الأمر على افتراض أن المجتمع المصرى من زاوية واحدة معينة هو الذى كان يختلف عن تلك المجتمعات وليس مجتمع الانديز .

ان الأساطير الخاصة بالخلق أو أصل مجتمع الانديز ضعيفة ، وذلك لأنها وصلت الينا بعد تدمير المجتمع تدميرا شاملا على أيدى الغزاة الأسبان ، أو على أيدى الاكليروس الأسبان الذين كانوا يهتمون فعلا بميثولوجيا شعوب الانديز ، ولكنهم كانوا معرضين للمقارنة والخلط بينهما وبين الميثولوجيا المسيحية التى كانوا يعتقدون أنها حقيقة تاريخية (٥٦) .

وتصور أساطير الانديز الفيضانات بتوسع وافاضة ، ومن المؤكد أن أساطير الفيضان تعيد الى الأذهان الكوارث التى حلت بالعالم فى الأزمنة الأولى بفعل الزلازل وانهيار الأرض وما الى ذلك ، لأن حركات الزلازل هذه قد حدثت دون شك فى ذلك الوقت كما تحدث اليوم (٥٧) .

---

(٥٦) راجع P. A. Means فى Ancient Civilization of the Andes
نيويورك ولندن ١٩٣٦ ص ٥٢ – ٤٢٣ (الطبعة الثانية) .

(٥٧) هذه الملاحظات لاتعنى انى أقدر آراء كاربون عن دمار مجتمع Chavin
فى كوارث الزلازل .

وعلى أى الوجوه فان الأساطير تبين أن الكوارث الناجمة عن عواصف الأمطار الهائلة التى كانت تسقط على الاقليم بأكمله فى السهل الساحلى والجبال معا ، وكانت تصل فى بعض الأحايين الى عشرين سنة متقطعة ، وتنشأ التقلصات المناخية الأخيرة نتيجة حركة التيارات المعادية للرياح الباسيفيكية من أماكنها على شــكل عرضى ، وفيما عدا تلك الفترات فلا ينزل المطر على السهل الساحلى حيث قام مجتمع الأنديز .

وتفقد أساطير الأنديز الخاصة بالفيضان أهميتها شأنها فى ذلك شأن الأساطير الصينية ، اذ لم تشتمل على أساطير الخلق ، وأيا كان الأمر فانها تختلف عن معظم الأساطير الصينية فى أنها تبين أن معظم المخلوقات حتى الأجرام الســماوية قد حدثت بعد الفيضان ، وان شعوب الأنديز من حيث علاقتهم بحكمهم الأسبانى فى البداية قد تميزت عن الشعوب التى جاءت بعد الفيضان ، وكانوا جزءا من الخليقة التى تعهدها « الكائن الأســمى » لقد اعتبروا جميع الشعوب التى عاشت قبل الفيضان غريبة وكذلك الأمر بالنســبة للشــعوب التى غمرها الفيضان .

وقد تدل هذه المفهومات والأفكار على ان شعوب الأنديز هى التى شيدت الحضارة التى دخلت أراضى المجتمع فى وقت ما بعد أن حدث فيضان عظيم ، ولكن قد توجد حجة واحدة على الأقل تبرر رفض ذلك الرأى ذلك أن الأســاطير لا تذكر أى شىء عن الطبوغرافيا كما تفعل أساطير المجتمع المصرى والعراقى ، وقد تتعرض أســاطير الأنديز الى هذا الأمر اذا ما كانت ترجع الى الفترات الأولى للاستيطان عندما كان المستوطنون يهتمون بطبوغرافيا بيئتهم .

وقد بدأ علم الآثار اليوم بايجاد أوجه الشــبه والاختــلاف بين الأساطير برسم الخطوط الأولية لقصــة الاستيطان الأول والتى يمكن أن تكون واضــحة المعالم ، كما هو الحال فى قصص المجتمع المصرى ومجتمع ما بين النهرين ، وبالطبع توجــد بعض الأمور الجـديدة فى أسطورة استيطان الأنديز وهكذا نجد فى مستعمرات الأنديز الأولى طبقة من الزراع ممن نود أن نلقى أشباههم فى العالم القديم، وقد عرضنا لهؤلاء من قبل فى الفصلين الأول والثانى ، وقلنا : انهم لم يصنعوا الأوانى الفخارية ولم يعرفوا الحبوب ، وأن زراعتهم لمواد الطعام وغيرهــا كانت مقصورة على (القرع العســلى) وانواع معينة من التوابل والفول واللوبيــا والفاصوليا ، أما الخضراوات الاخرى فمن المحتمل أن يكونوا

قد جمعوها وهي لا تزال برية ، ولم يعرفوا الحيوانات المستأنسة وكذلك الصين • وكانوا يأكلون مقادير كبيرة من السمك الصدفي ، كذلك فانهم كانوا يصطادون سمك الفقريات وعجل البحر (٥٨) • ويبدو أن أولئك الناس ليسوا من سكان الوادي الذين عاشوا بجوار شاطىء البحر واعتمدوا في حياتهم على مستخرجاته (٥٩) • وعلى أحسن الفروض فهم يعرفون الساحل الشمالي من بيرو بالقرب من مصبات أنهار (شيكاما) و (فيرو) ، ولكن من المحتمل أن يكونوا قد عاشوا أيضا في اماكن كثيرة أخرى على ساحل بيرو ، وربما في أماكن أخرى بعيدة في الجنوب (٦٠) •

وثمة موضعان يمكن أن يكون قد وجدت بهما بقايا في وادي فيرو بالقرب من النهر ذاته ، وليس من الممكن في الوقت الحاضر أن نعرف ما اذا كانت البقايا الأقدم من غيرها تشير حقيقة الى الحرف البشرية أم لا ، وان كان يبدو أنها تشير الى ذلك • فاذا كان الأمر على هذا النحو فيكون هذا الشعب البسيط قد عرف كيف يفيد من النهر ومستخرجاته •

وقد عاش المستوطنون الأول القدامى جدا في وادي نهر شيكاما فيما بين ٢٥٠٠ و ٢٠٠٠ ق٠ م (٦١) • وبقيت الكثافة هناك دون تغيير الى ما يقرب من عام ١٣٠٠ ق٠م (٦٢) حتى بدا نوع من الذيوع والانتشار كان أوضح عناصره اضافة الفخار غير المصقول ، ومن المحتمل أن يكون قد جاء شعب جديد وحمل معه الاختراعات والابتداعات ، ولكن اذا كانت مواضع حرفهم يمكن أن تدل عليهم فهذه المواضع قليلة ، وهؤلاء عاشوا في عصر كانوا يجدون فيه نقاط توقف كثيرة داخل الوادي ، وبعد مرور بضعة قرون ظهرت الذرة كما ظهرت بعض المكتشفات القليلة الأخرى .

ووجد التغيير عند نهر شيكاما ونهر فيرو حوالي عام ١٠٠٠ ق ٠ م أو بالأحرى قبل ذلك التاريخ . ثم وجدت بعض البقايا التي ترجع الى بداية عصر جديد في أصل المجتمعات ففي ذلك الحين وطد المستوطنون

---

(٥٨) انظر لا الحضارات) تأليف Junins B. Bird

(٥٩) انظر Prehistoric Settlement Patterns Gordon A. Valliyin the Vira Valley واشنطون ١٩٥٣ ص ٣٨ ــ ٤٠ •

(٦٠) وجدت حديثا بقايا مشابهة على الساحل الجنوبي لبيرو وبين مصبات أنهار نازكا ولوماس (الاكتشاف الاركيولوجية في جنوب وسط بيرو) تأليف : W. D. Strong

(٦١) تحقيقات . Libby العلمية .

(٦٢) تحقيقات Libby

انفسهم فى وديان الانهار واصبحوا سكانا لوادى النهر بالمعنى الصحيح ، وترجع هذه البقايا الى مجتمع الانديز .

وانى اعتقد ان هذه البقايا لا بد وأن تشتمل على البقايا المتحضرة الأولى بالفعل ، وقد بينا طبيعة تلك البقايا فى الفصل الخامس ، وهى التى ستكون لها اهمية عظيمة جدا بالنسبة للدين فى مراحله الأولى واقدم صوره . ولكن البقايا الحقيقية لعصر Chavinoid ليست معروفة حتى الآن . وقد بين «سترونج» و «ايفانز» أن بقايا شيفينويد الأولى المعروفة حتى الآن هى بقايا وديان نهر شيكاما وسنتاكاتالينا وفيرو (٦٣) وهى البقايا التى بحثناها فيما تقدم ، كما انه قد تبين من العلماء أنفسهم ، وان لم يكن بطريقة حاسمة ، انها ليست البقايا الفعلية للمجتمعات الأصلية من حيث الأسلوب (٦٤) .

ومع هذا فثمة نظرية ينبغى أن نوليها اهتمامنا ــ وهى نظرية (٦٥) « جوليوتللو » وهى تتضمن مزايا جوهرية معينة ، كما انها توحى على الأقل بالاتجاه الذى جاء منه مؤسسو المجتمع المتحضر .

وترى النظرية أن بداية التراث عند الشافينويد قد ظهرت على المنحدرات الشرقية من الانديز فى اقليم (هولاجا) ومنها انتقلت فى بداية الأمر الى الانديز الغربية ، ومن ثم الى الساحل الا انه يمكن اعتبار هذه (البدايات) بمثابة شحنات بدائية للتراث ، وفى وسعها ان تثبت ان أسلاف الشعب المتحضر الأول (وليس الشعب المتحضر ذاته) قد عاشوا فى اقليم هولاجا . ان الملامح المنحدرة منها كانت مجرد ثقافة الأزمنة البدائية كما كان يوجد فى جميع المجتمعات المتحضرة فى أيامهم السابقة .

وفى الحقيقة بوسعنا أن نفترض أنه يمكن تتبع أصل الاراضى المرتفعة للمجتمع بطريقة افضل فى الأقاليم مابين المرتفعة والواطئة والتى ذكرنا قبلا أنها تقع غرب سلسلة الجبال الوعرة العالية ، ولابد أنه كانت توجد أقاليم عديدة متاخمة لمساحات صحراوية من صحراء سيشورا فى الشمال والتى كانت تجف وقت نشأة المجتمع المتحضر ، ولم تكن

---

(٦٣) راجع Cultural Strategraphy in the Vivin Valley — W.D. Strong
في نيويورك ١٩٥٢ ص ٢٢٩ – ٢٣٧ .
(٦٤) راجع Julio Tello ليما ١٩٤٢ .
(٦٥) ص ٦٩ – ٩٣ و ١٢٢ – ١٤٤ .

الأحوال الجغرافية كما كانت من قبل منذ الفى سنة » عند ظهور الزراعة فى بادىء الأمر فى الاقليم الغربى الأمريكى حيث كان التضييق يتزايد بفعل النظام الزراعى .

واضطر الزارعون البدائيون الذين كانوا يقيمون فى أحد اجزاء الحواشى الممتدة من المساحات الصحراوية فى العصر الألفى الثانى ق.م. وربما تحت ضغط تزايد السكان ، الى أن يجدوا مأوى لهم فى وادى مرتفع أو فى احد الوديان الساحلية ، او لعلهم اضطروا الى البحث فى بادىء الأمر عن واد فى الأراضى المرتفعة يكون ايسر عليهم من سواه ، ثم انتقلوا الى واد ساحلى بفيضاناته الأشد وخضراواته التى تنمو فى مستنقعات اقوى ، فاذا لم يكونوا حقيقة قد لجئوا فى بادىء الأمر الى مكان ما ثم الى مكان آخر فانه يوجد تطابق بين سكان الانديز الأصليين الذين عاشوا أولا فوق التلال الشمالية الغربية وسكان ما بين النهرين الأصليين الذين أقاموا فى الحد الجبلى من السهل الايرانى المرتفع .

وعلى أية حال فلا جدوى من الوصول الى أى شىء حول هذا الموضوع حتى تتم أبحاث اركيولوجية جديدة فى الأقاليم المرتفعة أكثر من الأبحاث الضئيلة جدا التى تمت حتى الآن .

واننا نختتم هذا العرض فى ملاحظات هامة قليلة للأماكن الأولى لمجتمعات الوادى المتحضرة التى استوطنها البشر . ان خريطة المنطقة الصحراوية التى ترسم صورة نصف الكرة الأرضية الشمالى من العالم القديم والتى لا يمكن تفسيرها مطلقا بشكل بسيط — انما تخدعنا اذا ما اتخذناها كدليل لأصل مجتمعات الوديان . فان كل نهر من الأنهار التى ورد ذكرها فيما تقدم يمر اليوم وسط الصحراء وثمة سبب معقول يبرر افتراضنا بأن « الأندوس » لم يمكنه ذلك عند قيام المجتمع الهندى فى الأصل ، وفضلا عن ذلك فلم يبد أحد مطلقا الرأى القائل بأن المجتمع الصينى قد قام على امتداد النهر الأصفر الذى يمر داخل الصحراء .. ان الفكرة القديمة هى أن الشعوب التى كانت تعيش فى الأرض التى اصبحت صحراء قد تحركت خارج تلك الأرض واحتمت مباشرة بالوديان ثم اختفت هذه الشعوب نهائيا .

وبدلا من هذه الفكرة فهنالك فكرة بأن امتداد الصحراء الواسع يتخذ كدليل عام على أن نقص موارد المياه كان هو العامل المتحكم فى كل مكان من ذلك الاقليم وأن فرار البشرية من المناطق الصحراوية الحقيقية ربما قد حدث لسنين قبل قيام المجتمعات المتحضرة بعدة

آلاف من السنين ، وأن الناس الذين جاءوا لاستيطان وادى النهر لم يأتوا من الأقاليم التى كانت أكثر جفافا عن سواها ، وانما جاءوا من الأقاليم الأقل جفافا عن غيرها فى المنطقة الصحراوية العامة ٠

لقد وجدنا فى مستهل هذا الفصل - من قبيل التكهن - عنصرا من التدرج فى اقتراب معظم المستوطنين من وادى النهر ، غير اننا لا نعرف لسوء الحظ شيئا بهذا الخصوص عن الهند ، وأيا كان الأمر فان الصين تقدم حالة كلاسيكية للشعوب الزراعية التى كانت قد عاشت قبلا على جوانب انهار صغيرة تصب فى النهر العظيم ، وهناك تعلمت هذه الشعوب شيئا ما عن كيفية استخدام مياه النهر ، ومن ثم تحركت نحو النهر ذاته الذى كان مضطربا بلا شك ، الا انه لم يسبب الفيضانات فى كثير من الأماكن لأنه كان مغلقا داخل مضيق ٠ وحتى اذا ما كان الأمر كذلك فقد تعلم المستوطنون شيئا اكثر عن التحكم فى النهر الرئيسى على مدى شاذ حيث يستطيع النهر أن يغمره بالماء وقد غمره فعلا كما تبين أسطورة (يو) بوضوح ٠

وتوضح أسطورة (يو) تماما أن الناس قد تعلموا لحد ما أن يوسعوا مجارى المياه أكثر مما كانوا يعتمدون على الحواجز وحدها ٠

وبعد ذلك تحرك الصينيون الى الأمام ليتمكنوا من معرفة النهر الأصفر فى السهل المكشوف حيث قد يكون هناك اخطر الأنهار بأسرها التى صادفها المتحضرون الأول فى مستهل عهدهم بالحياة المتحضرة ٠

كان اقتراب الصينيين الأول من موطن مجتمعهم المتحضر تدريجيا بالمعنى الخاص الذى نقصده من ان طبوغرافية موطنهم هى التى كانت تتحكم فى مصيرهم وتتعهد أمورهم بمعنى انها دفعت بهم ثلاث خطوات حتى ترسخ أقدامهم فى الوادى ٠

واننا عندما نبحث عن أوجه الشبه والاختلاف يبدو لنا ان الجمعيات الثلاث التى استوطنت مصر قد بقيت زمنا طويلا فى الطرف الخارجى البعيد من الوادى الى ما وراء الحدود التى يمكن أن يصل اليها الفيضان وحسب ما يذكره « فرانكفورت » فمن الصحيح انه كانت هناك بعض المنشآت التى استوطنتها تلك الشعوب فى الوادى ذاته على التلال الصغيرة التى كانت بعيدة عن المستنقعات فى مكان مرتفع عنها ولكننى أعتقد أن تلك المنشآت ان كانت على هذا النمط فمن المحتمل الا تكون اكثر من نقطة امامية وبيوت صغيرة وأكواخ كانوا يستخدمونها على

الأرجح فى الصيد او ربما كانت مواقع يحصلون منها على المياه بطريقة اكثر آمنا وثمة أدلة تجريبية عن منشآت مشابهة فى مستنقعات الوادى عند أحد أنهار الانديز تبين أن السكان الأول الذين اســتخدموا تلك المساكن كانوا من صيادى الســمك والذين كانوا يقيمون على ساحل النهر ولا يمكن أن نعتبرهم من المتحضرين على اى وجه من الوجوه .

ومما ينبغى أن نذكره أنه لم تكن هناك أمطار بالفعل فى كل من وادى النيل وعلى ساحل الأنديز ، وكان على أى شعب من الشعوب يريد أن يبقى على قيد الحيــاة أن يقترب من ماء النهر طالما لم يكن يوجد سواه .

وفى بداية ظهور سكان مجتمع الانديز بدأ الاقتراب تدريجيا من وادى النهر الا أننا لا نعرف سوى النذر اليسير عن ذلك الوقت . ولكن بوصول المصريين الأوائل فى المجتمعات الرابعة الذين نطلق عليهم (سكان نقادة رقم ٢) والذين ربما وصلوا الى مصر حوالى ٣٠٠٠ ق . م . فقد حدث فى مصر ايضــا الاقتراب من النهر ويمكننا أن نرى فى حالة مصر بدء الاقتراب من النهر ، وذلك حسب درجة معرفة الشعوب الأولى التى عاشت من قبلهم على النهر وحسب كيفية الاقتراب منه وطريقة استخدام مياهه . وفى رأيى أن ازدياد السكان 0 التدريجى فى المجتمع الانديزى والمفاجىء فى المجتمع المصرى قد أدى الى قيامهم تحت وطأة الحاجة فى مكان أوسع كما أدى أيضا الى أن يجازفوا بتوسيع مجرى النهر والواقع ان القوى الناجمة من ضغط السكان على موارد الارض هى التى دفعت السكان الى زيادة المساحات التى يقيمون فيها فى كل من حالتى المجتمع الانديزى والمجتمع المصرى .

أما الوضع فى بلاد ما بين النهرين فيبدوا مختلفا ولكنه يشبه حقا الى درجة كبيرة الأوضــاع الأخرى ، ويبدوا أن التدريج لم يكن موجودا مادام قد وجدت انفصالات كاملة فى تفاوت الاحداث عندما وصل سكان ما بين النهرين الأول من ايران واســتوطنوا الأماكن المجاورة لجنوب الفرات . واننا اذ نتغاضى فى الواقع عما حدث قبل وصول المستوطنين الى جوار النهر فاننا نستطيع أن نقول ان استيطان ما بين النهرين كان يختلف تماما عن استيطان الشعوب الاخرى التى جاءت من مساحات تبعد مئــات الاميال عن هذا المكان المجــاور للنهر ، والتى تمكنت من الاستقرار السريع بجوار النهر الكبير . لقد كان فى وسع هــذه الشعوب ان تستخدم فى الحال طرق التحكم فى مياه الوديان الاخرى . والتى كان

عليها ان تتعلمها بعد وصـولها الى موطنها الجديد بعد أن عانته كثيرا وتعرضت لأخطار جمة ... وتمضي الحجة هكذا . وهي أن سـكان ما بين النهرين الأول قد تعلموا منهم في التحكم في الميـاه من موطنهم القديم (إيران) وهذا ما لم يكن يعرفه غيرهم من المستوطنين الآخرين . ومن ثم فان حالة ما بين النهرين هي الاستثناء عن القاعدة العامة وهي أن المستوطنين الذين بدءوا بايجاد المجتمعات الأولية المتحضرة في وديان النهر لم يتمكنوا من مكافحة المياه في بداية وصولهم بل كان عليهم ان يظلوا فترة انتقالية على حافة الوادى أو في مكان ما لا يبعد كثيرا يتعلمون فيه وسائل التحكم في المياه .

ولم يكن السكان الاول فيما بين النهرين ، يختلفون في الواقع عن سائر الذين أوجدوا مجتمعات الوادى اذ كان عليهم هم أيضا أن يتعلموا فنون ضبط المياه وكذلك ايران حيث تعلموا هذه الفنون لم تكن أبعد من أية مسافة بالنسبة للأماكن السفلى من الفرات كما كان السكان عند الانهار الصغيرة العليا المتفرعة من النهر الاصفر العظيم حيث تعلموا أولا الفنون المماثلة من المجرى الاساسي المنخفض للنهر عبر سهل شمال الصين . وترجع أوجه الشبـه والاختلاف الى التقارب بين الموضـع الاسـاسي للمجتمع في الحالتين المصرية والاندبزية . ومتوسط المسافة التي اقدرها ٢٠٠ و ٣٠٠ ميل (٦٦)

لقد كانت عملية ضبط المياه التي تعلمها هؤلاء جميعا في مكان أو آخر على أعظم درجة من الأهمية باعتبارها احدى الخطوات الاولى في تكوين مجتمعات الوادى الأولى . ولكن ينبغي أن تؤخذ على انهـا كانت محدودة النطاق كما انه يمكن ان توصف بصعوبة على انها (عملية رى) على اعتبار أنها عملية توصيل المياه الى الحقول الجافة الاخرى والتى لم يكن يتيسر الافادة منها بدون هذه العملية وقد تقدم الرى بهـذا المعنى على نطاق واسع في جميع مجتمعات الوادى (وهـذا يصدق على سائر تلك المجتمعات باستثناء الهند) ، الا ان التحسينات الجديدة وهي ازدياد عدد السكان ، وقد نشأت هذه المشكلة عندما كانت المجتمعات في احسن وقت من الدورات الاولى من تواريخها وهذه نقطة أخرى لم نبحثها في هذا الكتاب وربما حدث التحكم في المياه في بادىء الامر في

---

(٦٦) ربما يكون سكان نقادة رقم ٢ قد جلبوا معهم معرفة ضبط المياه واخذوا يطبقونها حال وصولهم .

مجتمعات الوادى عن طريق اقامة الحواجز وتطهير المياه وخاصة للوقاية من الفيضان . اذ كان الفيضان هو عامل الرى الرئيسى واذا كان يوجد فى بعض المجتمعات شىء أرقى من هذا ، فان بعض هذه المياه كان يدخل تحت اصطلاح الرى . كما جاء فى تعريف القاموس لكلمة « رى » على انها ضبط المياه .

وأخيرا نتناول أنواع المناخ فى مجتمعات وادى النهر . لقد كانت جميع تلك المجتمعات ماعدا مجتمع واحد فى الاقاليم شبه الاستوائية . أما الاستثناء فهو المجتمع الصينى الذى نشأ فى مناخ معتدل . ان مناخ المجتمع الانديزى وان كان قد نشأ أقرب لخط الاستواء من المجتمعات الاربعة الاخرى فانه من المحتمل ان يكون ابرد من المجتمعات الثلاثة التى وجدت فى المنطقة شبه الاستوائية . ومن المقرر أن تلك الاختلافات فى موارد المياه هى أحد العناصر التى كانت تؤثر فى المنـــاخ وهى ليست بذات أهمية عظيمة بالنسبة للمجتمعات التى كانت تجلب المياه من الانهار الخاصة بها . الا ان موارد المياه كانت فى الواقع غير مختلفة على الاطلاق أو مختلفة قليلا جدا عنها فى بيرو ومصر . من حيث التيارات التى تحدث احيانا كل سنة فيما بين النهرين والصين وقد تصل أسوأ التيارات فى بيرو فى فترات تمتد الى عشرين عاما بين المرة والاخرى . وقد تحدث امطار عادية موسمية فى معظم السنوات على الهند .

وليس من الواضح حتى الآن ان المناخ باعتباره العامل الوحيد لم يكن هاما بالنسبة لأصل مجتمعات الوادى ونحوهـــا ومن الأوفق تأجيل البت فى ذلك الموضوع الى نهاية الفصل التالى حيث ســنجد بيـــانات جيدة كثيرة اخرى عن المناخ ، ليس عن مناخ مجتمعات الوادى فحسب بل عن انواع المناخ فى المجتمعات المتحضرة الاولية ايضا .

الفصل الرابع

أمريكا الوسطى وكريت

تدل جميع الاحتمالات على أن مجتمعين من المجتمعات السبعة الأولى المتحضرة قد نشأا فى بلاد مختلفة تماما عن وديان النهر • فنشأ مجتمع كريت فى جزيرة صغيرة ونشأ مجتمع امريكا الوسطى فى اقليم عريض ، كان الجزء الاكبر منه غابات استوائية •

وأصبح مجتمع كريت يشمل وسط الجزيرة وشرقها وامتد المجتمع الى بعض جزر سيكولادس وبلوبونيزيا والتى أصبحت فيما بعد بوقت طويل جزءا من بلاد الاغريق الأوربية ، وأصبح مجتمع أمريكا الوسطى يشغل مساحة شاسعة من الأراضى تمتد من فيراكروز ووادى المكسيك فى الشمال الغربى ، ومن شبه جزيرة يقطان فى الشمال الشرقى الى جواتيمالا وجزء من هندوراس جنوبا •

ولقد يبدو غريبا أن عملية خاصة كهذه العملية وقيام مجتمع متحضر من حالات بدائية يمكن أن يحدث فى مكان آخر غير وادى النهر ، طالما أن وديان النهر لها طبوغرافيتها الخاصة بها ، فان طبوغرافيتها تطابق دون شك مطابقة صحيحة تلك العملية الخاصة وهى قيام المجتمعات المتحضرة •

ولا بد أن نذكر فورا فى ضوء هذه الاعتبارات أنه توجد امكانية جدية على أن مجتمع أمريكا الوسطى قد بدأ ظهوره فى أحد الوديان ، ولكن اذا كان هذا قد حدث فعلا ، فانه قد امتد فى وقت مبكر جدا خلف الوادى وانتشر فى أماكن مختلفة تماما • ولا يمكن أن

نفترض بشكل معقول أن مجتمع كريت قد بدأ فى واد ولكن ليس من المستبعد أن يكون هناك نهر صغير فى الجزيرة ذو نفع خاص للمستوطنين لمدة قصيرة جدا ، ان الصعوبة ترجع الى أننا لا نملك أية بيانات حاسمة عن الاصول الفعلية لأى مجتمع من هذين المجتمعين ٠

ان العوامل الثلاثة هى ذاتها التى دفعت الناس لتثبت أنفسهم فى كريت وأمريكا الوسطى كما هو الحال فى أقاليم الوديان الخمسة ، وهذه العوامل هى الجفاف وزيادة السكان وانهاك التربة ٠

وفى حالة مجتمع أمريكا الوسطى لا يوجد أى سر غامض بالنسبة الى مكان ودرجة تفاعل هذه العوامل الثلاثة وتأثيرها من حيث الاتساع ومقدار هذا التأثير وفاعليته أما فى حالة مجتمع كريت فينبغى تبيان كيف جاء هؤلاء الناس الى الجزيرة ولكن هذا لا يعنى عرض أية مشكلة كبيرة ٠

ان مصادر المعلومات عن أصل هذه المجتمعات هى ذاتها التى جاءت عن مجتمعات الوادى ، فهى بيانات أركيولوجية مع بيانات أدبية قليلة ترجع لأزمنة متأخرة وهى تلقى ضوءا عن الزمن والبيانات الجيولوجية والطبوغرافية والأساطير ٠

كانت الأقاليم الواسعة فى مجتمع أمريكا الوسطى فى الزمن القديم تشمل الاراضى المرتفعة عند قاعدة شبه جزيرة يقطان والجزء الساحلى من فيراكروز مع الاراضى المرتفعة فى شياباس فيما بينهما وأجزاء منخفضة أخرى بعيدة نحو الجنوب فى هندوراس وكانت تشمل بجانب هذه الأجزاء مساحات من الأراضى المرتفعة فى وأوكساكا كذلك جزء هام جدا من الاراضى المرتفعة من وادى المكسيك٠ أما الاراضى الواطئة فكانت غابة استوائية ممطرة ٠ هذا فى حين أن الأراضى المرتفعة مختلفة تماما عن سواها فلها مناخ معتدل كثيرا أو قليلا ويبقى مناخ وادى المكسيك أزمنة طويلة بين الرطوبة والجفاف ٠

كان المناخ حوالى الزمن الذى نشأ فيه المجتمع المتحضر لايزال رطبا وربما كان من المحتمل وقتئذ أنه كان يميل نحو مرحلة الجفاف الطويلة ٠

وليس ثمة احتمال بأن المجتمع المتحضر قد نشأ فى جواتيمالا وفى اراضى أوكساكا ، اذ كانت أوكساكا بعد جميع الاقاليم الاخرى فى المجتمع فيما عدا مرتفعات جواتيمالا ، وكان من الواضح أن مرتفعات جواتيمالا هى

الاراضى الاقليمية فى أواســط يقطان فى دور النمو ، ولم تكن كما تدل الشواهد الاركيولوجية تسبهم بأى نصيب فى المستوى العالى الذى بلغته الحضارة • أما مسألة المكان الذى نشأ فيه المجتمع المتحضر فعــلا ، فهذه مسألة نجيب عنها ، فقد نشأ المجتمع المتحضر فعلا بين وادى المكســيك واقليم الأرض الواطئة •

وعندى أيضا أنه لا يوجد شىء مما تكشف عنه البقايا الاركيولوجية الاولى فى الوقت الحاضر يمكن ارجاعه الى أصــل المجتمع الحقيقى ، فهى كلها بقــايا ترجع الى زمن متأخر نوعا عن ذلك (١) • ولــكنها ليست متأخرة كثيرا كما أنه من المحتمل أنها تشير الى الطريق الذى ينبغى أن نسلكه لنجد المكان الذى قام فيه هذا المجتمع فى الأصل ، أما فيما يتعلق بمواد الغابات أو تلك التى تتعلق بأولئك وأيهما سابق للآخر فاننى متأثر فى هذا الموضوع تأثيرا قويا بالحجة التى قدمها « ماك نيش » (٢) • لقد اعتبر ماك نيش أن أقدم المواد التى وجدت فى اقليم هواستيكا فى جنوبى فيراكروز وفى أواسط يقطان وبيتينPeten اقليم يوجوا من هندوراس ، أى فى الأقاليم الأربعـــة الواطئة تعتبر أقــدم من المواد التى وجدت فى وادى المكسيك أو أى مكان آخر من الأقاليم المرتفعة وهذا الرأى يقــوم أصلا على النماذج النسبية للفخار وغيره من الصـــناعات المتنوعة ، ومن الممكن أن يثبت خطأ هــذا الرأى بعد الاكتشـــافات التى تجرى فى المستقبل (٣) • ومع هذا فاذا كان ذلك صحيحا فسوف يتبع ذلك شىء طريف : فان أقدم المواد ترجع للاماكن التى قامت بالفعــل فى الغابات الاستوائية ومما هو أكثر من ذلك أنها كانت تمتد مع وجود ثغرات كبيرة، من طرف غابة الى طرف غابة أخرى من غابات المجتمع المتحضر •

ان هذه المواد بطبيعة الحال لا تشكل الصعوبة التى اعترضتنا عند العثور على المواد الاولى لمصر والصين أى أنه لا توجد أية صــعوبة لمعرفة ما اذا كانت تلك المواد قد تختلف عن مجتمع متحضر أو لا ، ان المواد الأولى التى ترجع الى أمريكا الوسطى هى جزء من سلسلة تتقدم تقدما مستمرا ثابتا ، مثل السلسلة التى تتغــير أنواعها تغــيرا سريعا ومتزايدا بحيث لا يمكن أن تكون نتاج مجتمعات بدائية ، وتظهر الآن عملية التجمع التى

---

(١) سنورد أسباب ذلك فى الفقرات التالية .

(٢) فيلادلفيا ١٩٥٤ ــ صفحة ١١٦ ــ ١٢٤ .

(٣) يجزم ماك نيش بصحة رأيه وهو يقدم فى الواقع تفسيرين مختلفين للبيانات الخاصة بعلم شرح الرموز الكتابية . التفسير الاول الذى يعتبر المواد التى ترجع الى الغاية أقدم والتفسير الثانى لا يعتبرها كذلك ويفضل التفسير الاول عن الثانى .

يتم بمقتضاها تجمع الوحدات الاجتماعية فى المجتمع المتحضر ، تظهر فى أنواع منتجاتها ، وهذه مسألة تتطلب عناية خاصـــــة فى مجتمع أمريكا الوسطى لان الاجزاء المختلفة من المجتمع كانت مبعثرة بشكل كبير الى درجة استثنائية فى كل الأزمنة ، وعلى الاخص فى الازمنة المبكرة نسبيا الخاصة بهذه البقايا (٤) • ولكن توجد ثغرة فى التاريخ قبل العثور على هذه البقـايا وكان ضمن هـذا الزمن موعد نشـوء المجتمع المتحضر فى الأصل •

ويتطلب هذا الدليل الأركيولوجى اهتماما بالغا عندما توجد العلامة بينه وبين الملامح الرئيسية فى الاسطورة المجتمعة ، هـذا هو أعظم وضع فى كافة أنواع الاتصالات والعلاقات من أول الاسـطورة الى آخـرها ، الاسطورة التى تتعلق بآلهة المطر • وهذه مسائل تخص المجتمع ، ولا يوجد أى مجتمع متحضر آخر يتخذ له آلهة من هذا النوع • ويكاد يكون من الضرورى أن نشير الى المجتمع الذى تضع طقوسه آلهة المطر فى مكان مرتفع وبدرجة عالية عن بقية الآلهة من حيث الكم • فيجب أن يتلقى موارده من المياه مباشرة فى شكل المطر ، وربما كان ذلك بطريقة فضولية تبعث على الملل وهذا مما يجعل من المحتمل كثيرا أن الحضارة قد بدأت فى الغابات الاستوائية حيث الأمطار موسـمية وغزيرة أكثر مما بدأت فى وادى المكسيك ، ذلك لأن سكان الوادى قد اعتمدوا اعتمادا واضحا على مياه البحيرة والنهر كما اعتمدوا مباشرة على المطر ولكن هذا لم يمنعهم من أن يصبحوا أيضا من عباد المطر ، وأن وحدة دينية كهذه تعد عادية أيا كان الأمر ولكنها ثابتة على ما أعتقد أثناء عصر الايمـان فى المجتمع المتحضر ، وتكتسب الديانة خصائصها من الاقليم الذى نشأت فيه حيث قام المجتمع ذاته فى الاصل • ومن ثم فان تقدير «ماك نيش» بأن البقايا الاولى المعروفة فى أقاليم الغابات كانت متقدمة عن تلك التى تعود الى الاراضى المرتفعة هذا التقدير يعنى أيضا أن البدايات الحقيقية للمجتمع المتحضر كانت من بقايا اقليم الغابات وأن ذلك المجتمع قد انتشر كما يستدل على ذلك من جميع الاحتمالات فى مكان من تلك الاقاليم •

وللمجتمع أساطيره فى الخلق تبدأ بالمياه الاصلية ، ومن الممكن أن يؤخذ هـذا على أنه يعنى أصل الوادى الذى يغمره الفيضـان • وتوجد

---

(٤) اعتقد أن ملاحظات ويللى وفيليبس يمكن تطبيقها على جميع المجتمعات المتحضرة فى مواطنها الاصلية ولكن يوجـد شىء وراء هذه الظواهر الطبيعية الذى يتحدثون عنه والذى لا نستطيع أن ندركه •

وسيلتان للنهر العظيم تجريان داخل الغابة عند قاعدة شبه جزيرة يقطان وهى وسيلة « يسيوماستتا » ووسيلة رميرجراند دى شـــــياس · أما الطريقة الاولى فمعروفة بطريقة الاتصال الرئيسية داخل المجتمع ؛ وقد وجدت بجوارها منشآت للسكنى الا أن هناك مساكن أخرى أقدم من هذه كلها ، أما النهر الثانى فانه يعرف بصعوبة من الناحية الاركيولوجيـة حتى الآن، ولهذا يكون من المهم جدا بالطبع أن تكتشف بعض الآثار التى ترجع لنهر من هذه الانهار أو أى نهر من الانهـــار القصيرة التى تصب فى خليج المكسيك أو الكاريبى · الا أنه حتى وان وجدت مساكن كهذه فانها لا تغير من الوضع الذى يقضى بأن المجتمع قد انتشر فى جميع أنحاء الغابة بعد قيامه بأمد قصير فى الأصل واننى شخصيا لا أعتقد أن منشئات كهذه من الممكن وجودها اذ أننى أعتقد أن ظهور آلهة المطر يعنى أن مياه الامطار كانت منذ البداية هى المياه التى اعتمد عليهـا المجتمع وأن أى مياه مطر كانت تستخدم من مياه طارئة ·

ونصل الآن الى المسألة القاطعة وهى كيف أن طبوغرافيا مجتمع امريكا الوسطى غابة الامطار الاستوائية يمكن أن تفيـد المجتمع كقاعدة أصلية للبيئة · ان الغابة الاستوائية المطرة ليست وادى نهر ولكن يوجد بها مستنقعات مثل وادى النهر · انه يوجد فى غابة أمريكا الوسطى المطرة أراضى مستنقعات وبحيرات كثـيرة وبها فائض مياه لنصف العـام وليس ذلك مقصورا على وقت الفيضان فى وادى النهر · ان تطهير الغابة المطرة من النباتات البرية كان بالتأكيد عملا مشابها لما يحدث فى وادى النهر ولكنه كان أعظم بكثير كما أوضح « أريك لمسون » ذلك (٥) ·

لقد كان هذا دون شك أصعب مهمة مادية لاقاها المجتمع المتحضر الاول فى أيامه الأولى ، وهناك رأى مناقض لهـــذا الرأى وهو أن عملية التحكم فى المياه ربما لم تكن مهمة خطيرة · وفضلا على ذلك فانه يوجد دائما ماء اذ أنه توجد بعض الأمطار الى جانب وجود الأنهـــار والبحيرات حتى فى الشهور التى يطلق عليها شـــهور الجفاف ، أما الشىء الذى كان يفتقر اليه هذا المجتمع فهو تجديد الاراضى القابلة للزراعة تلقائيا مثل مجتمعات الوادى التى تتغذى من الفيضان ولم يكن لدى الزارع فى الواقع سوى سنتين أو ثلاث سنوات يستخدم أثناءها الاراضى التى ظهرت بعد المهمة الثقيلة للغاية التى كان يقوم بها الزارع لتطهير الغابة الاستوائية،

---

(٥) Eric Thompson : The Rise and Fall of Maya Civilization
١٩٥٤ صفحة ٢٣ — ٢٦ ·

وكان عليه عندئذ أن ينقل حقوله فى مكان آخر ويقوم بتطهير الغابة مرة أخرى ، وازاء هذا كانت الاراضى تتجدد بسرعة الى درجة حسنة عندما يتحول ثانية الى حالة الغابة ، ولهذا فانه يمكن تطهير الغابة واستخدامها من جديد بعد عشرات قليلة من السنوات وينشأ نوع من الحركة الدائرية من موضع الى آخر ، فى حين ينمو المجتمع وعلى أية حال فان هذا مجرد افتراض ، الا أننا فى الواقع لا نعرف كيف واجه المجتمع هذه المسألة اذا كان عليه أن يواجهها بأية طريقة أخرى غير طريقة الخضوع الذليل .

وعلى أية حال فلا يتسنى لنا أن نغالى فى التركيز على أن مهمة التطهير المتناوب لم تكن عبئا ثقيلا جدا ، وهذا ما يمكن أن نقوله أيضا عن مهمة التحكم فى المياه ، حتى ولو كان التحكم فى المياه بدرجة بدائية تماما فى مجتمع الوادى وقد لعبت أعباء كهذه دورها دون شك فى أصل المجتمعات المتحضرة .

وثمة صعوبة قليلة فى النظرية التى تتعلق بأصل الشعوب التى أوجدت مجتمع أمريكا الوسطى ، ومن حسن الحظ أن الاعتبارات النظرية فى هذه الحال يمكن أن يعتد بها ، بمعنى أنها واضحة فى حد ذاتها ، الا أنه لا توجد أية بيانات تربط بين المستوطنين المعروفين الاول بالناس الذين عاشوا فى الاماكن الاخرى الذين سبقوهم ولا يمكن أن يوجد أدنى شك فى أن المستوطنين قد جاءوا من الشمال . لان ذلك هو المكان الذى كانت تترك فيه الارض للجفاف ، وقد بقيت على هذه الحالة وقتا طويلا بلا انقطاع من وقت قيام الزراعة فعلا فى الاصل وقبل ذلك بعدة آلاف من السنين (٦) .

الا أن هناك ثغرة كبيرة جدا فى التاريخ الاركيولوجى ازاء البيانات الاولى عن الشعوب المتحضرة ثغرة تسبب قدرا كبيرا من الحيرة لعلماء الآثار القديمة، (٧) أما فيما يتعلق بذلك فينبغى أن نشير أيا كان الامر الى أن هذه الثغرة أينما توجد فى جزئها الاخير على الاقل ، وفى المناطق الصحراوية المطرة ، كما هو من المتوقع أن يحدث تماما ـ وهذا يعنى فقط أن الشعوب الاولى المتحضرة كانت من المهاجرين الذين جاءوا الى الغابة المطرة كما نعلم تماما أن مؤسس المجتمعات المتحضرة كانوا من المهاجرين الذين جاءوا الى وديان النهر ، لقد كانت الصحراء المطيرة أقل

---

(٦) انظر الفصل الثانى .

(٧) انظر مؤلف Willy and Phillips

جاذبية للزارعين البدائيين عن سكان وديان النهر ، وأن المهاجرين لم يلجئوا الى أى مكان من المكانين الا بعد أن اضطروا الى ذلك ، وبالطبع فنحن مضطرون الى البحث عن تاريخ المستوطنين الحقيقيين فى الغابة ، على أنه من الامور البعيدة الاحتمال جدا أن يكون البدائيون قد عاشوا هناك قبلهم وربما يكون سكان العصر الحجرى الوسيط قد زاروا الغابة لاصطياد حيواناتها ومن المحتمل ألا يكون سكان كهؤلاء قد تركوا أى أثر سوى أسنة الرماح الا نادرا ٠

الا أن هذا الفرض الذى يتعلق بالغابة المطيرة يعتبر فقط سببا فى الجزء الأخير من الثغرة ، والجزء الذى تشغله أمريكا الوسطى الذى يشمل الغابة الممطرة ، أما بالنسبة لبقية هذه المساحات والتى يشغلها المجتمع المتحضر فان التاريخ الذى يسبق ذلك ضئيل جدا الى درجة غير عادية فى الواقع ويرجع التاريخ الزراعى الوحيد الاول الى سكان الركن الشمالى الشرقى من الاراضى التى توجد فى كهف تامابوليباس ، وهــذا الشعب الذى يختلف اختلافا عظيما هو من أقدم الشعوب التى نعرفهـا فى أى مكان فى اقليم المجتمـع المتحضر ، ومن الممـكن جدا ألا يـكون شـعب (تامابوليباس) من أســلاف الشعوب التى كونت المجتمع المتحضر على الاطلاق، وان كان السكان الاول الذين ينتسبون الى ذلك الشعب بلاشك يؤرخون بتاريخ سابق على المجتمع المتحضر بخمسمائة عام وقد تزيد عن ذلك بمـدة ٢٥٠٠ عام قبل الميـلاد ٠ وخلافا لذلك فيوجد تاريخ لامريكا الوسطى خاص بسكان العصر الحجرى الوسيط فقط ، أو ربما هو خاص ببعض الزارعين الاول مثل شعب تامابوليباس الذين لم يتركوا أى أثر عن آثار زراعتهم ٠ وحتى هؤلاء الذين عاشوا فى العصر الحجرى الوسيط وغيرهم اذ كانوا قد وجدوا فهم قلائل جدا ٠

وأعتقد أن ثم ايضاح محتمل لهذا كله فى اكتشافات « بول سيرز » عن المناخ بوساطة التحليل المقارن للقـــاح وهى التى تساعد الى حدما فى التوسع فى أبحاث انتيفز عن أمريكا الوسـطى ولقد وجد كل من « سيرز » و « انتيفز » عصر جفاف طويل قبل زمن قيام المجتمع المتحضر نوعا وكانت كل البحيرات فى عصر الجفاف ومن المحتمل الانهـار أيضا ، أدنى بكثير مما أصبحت عليه فى الأزمنة المتحضرة الاولى لعصر الرطوبة المتداخل قبل ذلك ، ومن المحتمل أن تكون الرطوبة ــ وان كانت قد أخذت

في الانخفاض ـ أن تكون قد استمرت الى العصر المتحضر المتقدم جدا ؛ ويعتقد « سيرز » أن المواطن التي اختارها السكان في أزمنة ما قبل التاريخ المتحضر كانت على شواطىء البحيرات الواطئة وان تكون البقايا المادية لتلك المنشئات قد نقلت الى أماكن بعيدة ودمرت بفعل المياه المرتفعة التي حدثت منذ ذلك الوقت • ولهذا فاننا نواصل البحث دائما دون تاريخ حقيقي لأسلاف الشعوب المتحضرة ومع ذلك فأعتقد أننا قد نفترض أن الناس الذين بدءوا المجتمع المتحضر قد جاءوا من الأراضي المرتفعة التي كانت لا تزال بها مياه ، ولكنها كانت تفقدها تدريجيا ، وينبغي لنا في الواقع أن نتطلع الى الاقليم الذى كان أقل جفافا عن سواه ، وليس للاقليم الاكثر جفافا من غيره ، كما هو الحال في المنطقة الصحراوية الغربية من العالم القديم كمصدر للسكان في زمن متأخر كهذا في عملية الجفاف كأساس لمجتمع متحضر • ولا توجد أية دلائل حقيقية لمعرفة المكان الذى وجد فيه اقليم كهذا غير أن « سيرز » يعتقد أن اقليم « تكسكوكو » كان الاقليم الذى أخذ في الجفاف في الزمن المتقدم لتطور المجتمع المتحضر ؛ وعلى ذلك فانه من الممكن أن يكون الآن قد أصبح أكثر جفافا قبل أن ينشأ المجتمع المتحضر ، وربما يكون الفائض من السكان قد هاجر الى الغابة الممطرة حيث أن مقدار المياه لم ينقص ولو الى درجة محسوسة حيث يكون قد بدأ نمو المجتمع المتحضر (٨) وبالطبع لا يوجد أدنى شك أن البدائيين كانوا يعيشون حيث كانت المياه آخذة في النقصان في حين كان عدد السكان في تزايد ، وفي الوقت ذاته كانت هناك كميات مياه كافية لايجاد جو رطب في مرحلة لقاح النبات وفضلا على ذلك ربما كانت الزيادة الناجمة عن انخفاض المياه هناك تكون قد نتجت من زيادة طبيعية أيضا •

اننا لم نفترض أن زراعة العالم الجديد قد أدت الى زيادة عدد السكان بدرجة كبيرة كما فعلت زراعة العالم القديم ، الا أنه لا يوجد أدنى شك في أن زراعة العالم الجديد قد جلبت بعض الزيادة في عدد السكان •

فاذا كان الذين بدءوا المجتمع المتحضر أو أسلافهم المباشرون قد عاشوا من قبل في اقليم بحيرة تكسكوكو فان ذلك من شأنه أن يمدنا بايضاح عن الأهمية التي كانت لذلك الاقليم • وربما ظلت علاقة المستوطنين الذين عاشوا في الغابة حسنة بالوادى ومن الواضح تماما أن

---

(٨) يقول «سيرز» ان الثقافات المهجورة قد أفادت من المناخ الرطب نسبيا ولكن هذا لا يعنى أن الثقافات التي جاءت قبلا ـ من المحتم أن تكون قد تمتعت بقدر اكبر من الرطوبة .

الذين جاءوا فى زمن متأخر قد خلقوا الملامح الجديدة لديانة المجتمع (أنظر الفصل الخامس) ولكن من الواضح أنهم نقلوها بدورهم الى أولئك الذين خلفوهم وراءهم فى الوادى حيث كان لهم بالتأكيد أفكار فعالة كما أنهم قد نقلوا أيضا كل شيء جديد تقريبا أنتجته الحضارة ٠

وأقدم تاريخ هو الذى وضع لاقليم تكسكوكو بعد بداية المجتمع المتحضر بزمن طويل طبعا ، على أثر الاكتشافات المعروفة لبقايا « كارنتكو الاولى » وهى ترجع الى منتصف الألف الثانية قبل الميلاد (٩) ٠

واذا ما كان « ماك نيش » على حق فان أقدم البقايا المعروفة فى الاراضى المنخفضة كانت توجد قبل ذلك ٠ وأن بداية المجتمع المتحضر كانت أقدم وربما تعود الى حوالى عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد (١٠) ٠

أما أولئك الذين ذهبوا الى كريت فانه من المحتمل كثيرا أن يكونوا قد جاءوا من الأناضول ، وثمة رأى أقل احتمالا من ذلك يرى أنهم قد جاءوا من سوريا (١١) من أماكن كانت فى ذلك الحين تفقد مواردها من المياه ، ويأخذ سكانها المزارعون فى الزيادة ولم يكن يتعرض المهاجر الى كريت من البر الاصلى الى أخطار فادحة فى رحلته البحرية ، ذلك لأن رحلته بالبحر كانت تحميها جزر رودس وكاريانوس وكاسوس فاذا كان المهاجرون قد رحلوا بمحاذاة شاطىء آسيا الصغرى فانه من المحتمل كثيرا أن يكونوا قد اختاروا طريق تلك الجزر عن غير قصد ظنا منهم أنهم ما زالوا يسيرون بمحاذاة الساحل ، لان كل جزيرة يمكن رؤيتها من الجزيرة الاخرى اذا كان الطقس حسنا ، وعلى أية حال فليس من الغريب أن الناس الذين كانوا يبحثون عن أرض جديدة لاستيطانها ينبغى أن يغامروا بحرا كما كانوا يغامرون فى وديان النهر التى لم يسكنوها من قبل ٠

ومجمل القول انه لا توجد أية صعوبة فى بيان كيف أصبحت كريت مأهولة بالمزارعين البدائيين ، أو بيان ارتباط وصولهم بتقلب الاحوال الطبيعية التى تتصل بالمأوى الذى لجأ اليه غيرهم من المزارعين البدائيين فى وديان النهر ٠

ولكن المجتمع المتحضر لم يبدأ نشأته فور وصول أول جماعة من السكان

---

(٩) ارجع لمؤلف Libby

(١٠) لندن ١٩٣٩ The Archaeology of Crete صفحة ٤٢ — ٤٣ ٠

(١١) المرجع السابق صفحة ٣٧ — ٤٢ ٠

وفي الواقع كان أولئـك السكان من المزارعين الذين أحضروا حيواناتهم معهم ، وكانوا في بادىء الامر من السكان البسطاء جدا ، ويسكن بعضهم في الكهوف والملاجىء بين الصخور ، وأيا كان الامر فانه لم يمض وقت طويل حتى بدأت تظهر تغيرات متقدمة خاصة بالشعوب المتحضرة ، وعلى قدر ما نعلم في الوقت الحاضر كان يوجد في بادىء الامر « مستوطنة » في مكان القصر الذى شيد فيما بعد عند (كنوسوس) وكان يقع على أكمة فوق نهر (كيراتوس) الذى تجرى فيه بعض المياه على مدار السنة ، وأصبح الموطن متسـعا جدا على مر الزمن وفى الواقع لم يعرف حتى اليوم اى موطن آخر بهذا الشكل من البساطة في الجزيرة (١٢) وان كنت اظن أنه من المحقق فعلا أنه كانت توجد مواطن أخرى استوطنوها هناك ٠

وقد وصف أول موطن عند (كنوسوس) بأنه مـوطن العصر الحجرى الأدنى وأعقبه العصر الحجرى الوسيط ثم العصر الحجرى الاعلى وانتشرت مواطن النوعين الاخيرين الى أماكن متنوعة في وسـط الجزيرة وشرقها واتضحت الحركة المبكرة للحضارة بتطور هـذه النماذج ، وكان الموطن الكبير في (كنوسوس) بمثابة المستودع للسكان تأخذ منه المواطن الاخـرى التى كان معظمها صـغيرا جدا ولم تكن الجزيرة ممهـدة اطلاقا لاستيطان شعب بسيط كهذا اذ أنها كانت كثيرة الجبال كما أن كثيرا من أراضيها مرتفعة جدا وكثيرا منها شـديد الانحدار ، وفي فصل الصيف يوجد نقص خطير فى المياه ، فضلا على ذلك فالأنهار كلها صغيرة ويجف معظمها ، وللجزيرة أرض كلسية مثل أرض شبه جزيرة (يقطان) في أمريكا الوسطى ولكن حجر الكلس في كريت مساميا جدا ولا تمكث المياه فوقه طويلا ٠

ولا يوجد بكريت وادى نهر يمكن التمادى فى مقـارنته بالوديان الكبيرة التى نشأت فيها أغلبية المجتمعـات المتحضرة الاولى ، ومع ذلك فان طبوغرافية الجزيرة غير العادية تمثل ظاهرة طبيعية تقدم بعض أوجه الشبه لوادى النهر ، أما أمريكا الوسطى فتقدم أوجه شبه أكثر قربا ، وتتألف هذه الظاهرة من عدد من السهول الواقعة بين سـلاسل الجبال ، وتستعمل السهول كل عام طبقة جديدة من التربة الغرينية التى تجىء من منحدرات الجبال الشديدة الانحدار (١٣) ٠

---

(١٢) انظر مؤلف Pendlebury صفحة ٣٥ ــ ٣٧ ٠

(١٣) انظر Allbaugh ١٩٥٣ صفحة ٢٨٦ ٠

ومعظم هذه السهول محاطة تماما بالجبال أو على الاقل بالاراضى المرتفعة وتتصرف المياه فى مسام حجر الكلس (١٤) ، وقد نشأت هذه السهول بفعل تصرف المياه هذا ، ولم تتحول الى بحيرات وأيا كان الامر فانها كانت تغمر بشكل كبير فى الشتاء والربيع بالمياه الجارية من الامطار والثلوج الذائبة من الجبال ، وتصفى قليل من السهول عن طريق المجارى الصغيرة (١٥) التى يمكن أن نسميها تجاوزا بالأنهار الا أن تأثير هذا يختلف اختلافا قليلا عن التصديق الذى يتم عن طريق التربية السفلى من حجر الكلس .

وتحتوى الجزيرة بأسرها على سهول من هذا النوع ويكثر عددها ولا سيما الصغيرة منها (١٦) التى توجد فى شبه جزيرة (سيتيا) فى الطرف الشرقى من الجزيرة ، وكثير من هذه السهول مرتفع جدا بحيث لا يصلح للزراعة الا تلك السهول التى ترتفع الى ٣٠٠٠ قدم فوق سطح البحر والتى كان يستخدمها المستوطنون الأول ولاتزال تستخدم حتى الآن وتعتبر سهول (لاسيزى) و (سيشيرو) أكبر السهول المحاطة بالجبال ارتفاعا اذ يبلغ ارتفاعها حوالى ٣٠٠٠ قدم . وهى على مسافة ٤٠ ميلا من الطرف الشرقى للجزيرة (وطولها ١٦٠ ميلا) وتبلغ من الشمال الى الجنوب حوالى نصف هذه المسافة .

ان سهل (ميسارا) (١٧) أكثر من (لاسيزى) وهو يعتبر حالة خاصة ويقع فى وسط الجزيرة من الجنوب بين سلسلة جبال (أيدا) فى الشمال وسلسلة جبال (استروسيا) فى الجنوب وتسمى الآن (كومينوس) وقد تم تصريف مياهه بوساطة نهر (ليثايوس) وهو أحد أنهار الجزيرة الكبيرة ويجرى من الشرق الى الغرب ويصب مياهه فى البحر ونهر (ليثايوس) هو نهر كريت الوحيد الذى يمكن أن يعتبر النهر الذى نشأ فى واديه المجتمع المتحضر، ولا وجه للمقارنة بينه وبين الانهار العظيمة التى نشأت المجتمعات الاخرى المتحضرة فى وديانها، ومع ذلك فانه من الممكن أن تكون مياهه القليلة نسبيا هى أول ما اجتذب المستوطنون الى (ميسارا) وأن المستوطنين الذين وقفوا على طبيعة سهل (ميسارا) أو سلالتهم استطاعوا بسهولة أكثر من غيرهم أن يفهموا طبيعة السهول العديدة الصغيرة المرتفعة ومزاياها ، الا أن هذا مجرد افتراض ، ويعمل ليثايوس

---

(١٤) كما جاء فى مؤلفات (ص ٥ — ٦) Pendlebury
(١٥) مؤلف Allbaugh صفحة ٤٧ .
(١٦) انها صغيرة الى درجة كبيرة بحيث لا تظهر على خريطة .
(١٧) مؤلف Pendlebury (صفحة ٥ — ٦) .

فى الواقع على تغيير طبيعة سهل ميسارا قليلا ، فهو يكسب السهل ميزة خاصة فقط ، وميسارا كالسهول الاخرى تتلقى كتلا ضخمة من التربة المحملة بمواد محللة من منحدرات الجبل المتاخم وهذه هى الميزة الحقيقية التى انتفع بها الفلاحون البدائيون ·

ولقد كانت النتيجة أن اعتبر هذا السهل الآن كما كان كذلك دائما منطقة من أخصب مناطق أراضى كريت وأكثرها رخاء ونجاحا ·

ان معنى هذا كله بالنسبة لعلاقته بأصل المجتمع المتحضر يصبح واضحا من هذه الحقيقة التى تقضى بأن جملة السكان فى العصر«النيوليثى» يحثوا عن سهل «ميسارا» وغيره من السهول ، وأن سكان تلك الأزمنة كانوا يعتمدون بشكل أو بآخر على البحر ، وان كانت هناك فى الواقع موانى فان معظم المواطن كانت تبدو على أنها أقيمت فى أبعد مكان ممكن من البحر (١٨) ·

ولقد كانت السهول بمواردها التى يركن اليها السكان وخصوبتها هى التى أتاحت المأوى للشعوب الزراعية تحت ضغط ازدياد السكان الشديد ·

والاسطورة لا تساعدنا فى تحديد طراز حضارة كريت فى الاصل ، وان كان يوجد فى الميثولوجيا اليونانية قدر كبير عن كريت ·

ومن المحتمل جدا أن تحتوى الميثولوجيا اليونانية على عناصر تكونت مرة اخرى من الميثولوجيا الخاصة بكريت — أى من أسطورة كريتية مجمعة كما كان الحال فى أصل مجتمع كريت ذاته ، الا انه لا توجد حاليا أية طريقة على الاطلاق لتبيان ذلك ، ان الميثولوجيا اليونانية تتعلق بكل أساطير الشرق الأدنى السابقة ، وهذا شىء غير عادى كما أنه شىء طبيعى تماما . ويظهر أن الميثولوجيا اليونانية تضم قدرا كبيرا من أصل أسطورة ما بين النهرين . ولا أجد ما يمكن أن تراه فى الاسطورة اليونانية والذى يبدو كأنه يصف الحالات الطبيعية الاولى فى جزيرة كريت ، ان أسطورة الخليقة يمكن تصورها على أنه فى البدء خرجت السماء من البحر أو ان العالم يحوطه حزام من الاوقياتوسات (١٩) ، يعكس أهمية البحر لسكان الجزائر ومجرد التفكير فى هذه الصلة أمر دقيق جدا .

---

(١٨) مؤلف Pendlebury صفحة ١٥ ، ١٦ ، ٣٥ ، ٢٧٧ ·

(١٩) صفحة ٢٧ — ٣١ · Robert Graves — The Greek Myths

وعلى أية حال فان هــذه الافكار لا يمــكن أن تؤدى الى أكثر من أن تؤكد أصل المجتمع المتحضر فى الجزيرة وقد أقمنا فكرتنا على أسس أخرى، نستطيع أن نعتمد عليها فى تأكيد هذه الحقيقة ، وهى أن الاحوال عند قيام مجتمع كريت فى الاصل كانت كما يلى :

الجزيرة صغيرة، وأرضها الصالحة للزراعة قليلة ، (على الاقل بالنسبة للبدائيين) أما موارد مياهها فى معظم الاماكن فغير كافية فكان من جراء ذلك أن أخذ سكانها يبحثون عن الاقاليم القليلة التى يمكنهم البقاء فيها ووجدوا أنه ليس أمامهم بعملهم هذا فرصة البقاء فحسب ، وانمــا للتقدم أيضا وكانت تربة السهول تتجدد سنويا والرواسب الجديدة تعتريها أكثر فأكثر كلما قطع السكان الاشجار على جوانب الجبل (٢٠)، وتكسب حقولها ذاتها خصوبة دائمة كلما حل الفيضان السنوى ، وكان من المحتم أن يجد الناس طرقا لحماية أنفسهم من فيضانات فصل الربيع (٢١) ، والقحط فى الصيف وذلك بالاحتفاظ ببعض مياه الفيضان واستخدام العيون والآبار بشكل كامل (٢٢) ، ويوجد تماثل واضح بين هــذه الحــالة وحالة وديان النهر مع الاختلاف فى مجرى النهــر ، وليس ثمة شك فى أن هــذا كان الاساس المادى الذى قام عليه مجتمع كريت فى الاصل الا أنه لم يبق على هذا الاساس بمفرده لأمد طويل ، ومن الواضح أن الموارد المجتمعة لسهول كريت لم تكن مساوية لموارد وادى النهر • وكانت جاذبية البحر كمصدر لقوام الحيــاة أكبر ، وربمــا أوضح من مشروعات الرى التى هى من صنع الابطال التى أتمتها مجتمعات الوادى فى المراحل التى جاءت بعد ذلك التاريخ ، وازدادت أهمية مرافىء البحر شيئا فشيئا كلما نمت حضارة كريت وسرعان ما أصبحت (لاسيزى) والسهول المرتفعة أقل من سواها كمراكز للسكان والثقافة الرفيعــة (٢٣) ، وهذا لا يعنى أن السهول قد هجرت بل على النقيض ظلت كثيفة السكان ومصدرا للطعام •

وتوجد سلسلة من التواريخ التقليدية المقبولة على وجه العمــــوم لتــــاريخ كريت فى أدوارها الاركيولوجية ، أما عن الأصــل فى مجتمع كريت فلا يوجد شىء يســاعد على مواصلة البحث ، ولهــذا فانى أفترض فقط وصول المستوطنين الاول فى وقت ما قبل عام ٣٠٠٠ ق•م• (٢٤)•

---

(٢٠) انظر Pendlebury

(٢١) باريس ١٨٦٧ صفحة ١١٧ G. Perrat — L'ile de Crète

(٢٢) سنتحدث عن أهمية هذه العيون والآبار فيما بعد •

(٢٣) Pendlebury

(٢٤) انظر الفصل الاول حاشية ٣٠ •

ولقد وجدنا بالنسبة لبعض مجتمعات وادى النهر أن المستوطنين الاول قد انشئوا الاستحكامات البدائية بجوار الوديان ، ولكن ليس فى داخلها قبل أن يتوغلوا فى الوديان ذاتها ، ومن الممكن أن تكون المنشئات التى أوجدوها فى مكان ما فى وادى المكسيك قد خدمت المستوطنين الاول فى أمريكا الوسطى ، وبهذه الطريقة قد قورنت تلك المنشئات التى سبق الاشارة اليها بالمنشئات الصينية الأولى فى الاراضى المرتفعة فى الصين الشمالية .

وتحتوى حالة كريت على بيان واحد فقط يشير الى شىء من الصلة بهذا الموضوع ، وهو الممارسة الطويلة من جانب سكان العصر (الفيوليثى) للمعيشة فى كهوف وملاجىء صخرية (٢٥) ، ولا يوجد ثمة شك فى أن الممارسة كانت نوعا من الردة الى الاصل لأنه حتى فى الاستيطان الاول عند كنوسوس قد شيدت بعض الابنية من نوع ما وفى العصر الفيوليثى المتأخر كانت هناك منشئات فى (فالسيتوس) فى سهل ميسارا وعند (ماجارا) فى الحد الشرقى الأقصى من الجزيرة (٢٦) وربما فى أماكن لا نعرف عنها شيئا ، وعلى هذا فانى أميل الى الظن بأن تلك الكهوف والملاجىء كانت مؤقتة عندما كانت الحالة الراهنة للمعيشة وعدم دوامها عاملا هاما فى بقاء الناس ، وكان السكان لايقيمون فى مكان ما سوى جزء من العام وكانوا يستنفدون قواهم إستنفاداً تاما فى اشياء أخرى غير البناء وفى أزمنة أخرى كانوا يرتدون الى أماكن أخرى ومن بينها تلك الأماكن التى حدث فيها البناء (٢٧) الا أنه قد توجد بالطبع بعض الأيضاحات الأخرى من الرجوع الى حياة الكهوف والملاجىء الموجودة وسط الصخور .

ان الدليل على التشابه أو الاختلافات بين بيئة الوادى وبين غيره من المجتمعات المتحضرة هو أوضح ما يكون من ناحية الاستحكامات الاولية التى قام بها المستوطنون الأول ، فانهم ذهبوا بحثا عن الماء ، وحينما كانوا يستقرون فى كل مكان كانوا يجدون فيه كميات كافية منه مهما كانت صعوبة ظروف الاقامة هناك ، وكثيرا ما كانت وديان النهر هى الاماكن التى اختاروها ولم يكن فى اختيارها ما يبعث على الدهشة حتى سهل ليدايوس فى كريت قد يكون مبدأ نحو مورد المياه الدائم الذى توصلوا

---

(٢٥) صفحة ٢٧٧ — ٢٧٩ .

(٢٦) Pendlebury صفحة ٤٤ — ٤٥ .

(٢٧) ليس من المحقق أن الاستيطان فى الطرف الشرقى من وادى النيل كان فى منشآت دائمة .

اليه كيفما كان من مصدر مختلف تماما ، وفى الواقع أنه من المحتمل كثيرا أن يكون ذلك المجرى القليل الاهمية قد أدى الى ذلك أكثر مما فعلت أنهار أمريكا الوسطى ذلك لانه توجد أدلة واضحة على وجود مياه أمريكا الوسطى أكثر منها فى كريت وأن المستوطنين من المزارعين وقد وصلوا الى الغابة الممطرة فانهم لن يعجزوا عن رؤية امكانياتها حتى ولو كانت الامكانيات التى فرضت عليهم فرضا قد هالتهم فى الوقت نفسه ٠

وكانت المياه فى أمريكا الوسطى طليقة كما كان من السهل التحكم فيها والانتفاع بها الا أنه لم يكن من الممكن الحصول على الارض الا بعد جهد كبير ، لقد كانت الارض عذراء فى جميع الوديان وفى كريت ولكن تنظيم المياه كان يعرض مشاكل ذات صعوبة بالغة فى حين كانت حماية الحقول فى بعض الوديان ضد النباتات البرية مسألة تعكس مشكلة تطهير غابات أمريكا الوسطى ، وان كانت بنسبة أقل ٠

ومن الامور ذات الاهمية الخاصة أن عامل المناخ لا يعتبر من الشروط المادية لقيام المجتمعات الاولية المتحضرة وقد وجدنا فى الفصل الاخير أن مجتمعا واحدا قد قام فى مناخ معتدل فى حين قامت المجتمعات الأخرى فى مناخ شبه استوائى ، ويتضح الآن أن المجتمع الصينى ومجتمع كريت قد نشئا فى مناخ معتدل وأن أربعة المجتمعات وهى المجتمع المصرى ومجتمع ما بين النهرين والمجتمع الهندى ومجتمع الانديز قد نشأت فى المناخ شبه الاستوائى ، وأن مجتمع أمريكا الوسطى قد نشأ فى مناخ استوائى وأن الاستدلال غير مخطىء تماما دون تحقيق التفاصيل الاقل أهمية من هذه التفاصيل الخاصة باختلاف المناخ ٠

والواقع : لم يكن المناخ بهذه الصورة من عوامل أصل المجتمعات المتحضرة ٠

وأخيرا : فان طالب العلم يستفيد كثيرا من الجمع بين أوجه الشبه القريبة وأوجه الاختلافات الكبيرة فى الدليل المادى ، ومن الامور البالغة الاهمية أن معظم المجتمعات المتحضرة الاولية قد نشأت فى وديان النهر ولكن ليس ذلك مهما الى الحد الذى يستلزم عدم امكان قيام مجتمعات كهذه فى أى مكان آخر ٠

الفصل الخامس

الأديان الجديدة

لقد عرضنا الآن الظروف المادية لاستيطان الاصل للانسان فى مواقع المجتمعات المتحضرة الاولية ٠

وتشمل هذه النظرية من ناحية التفسير المادى للتاريخ شرح أصول هذه المجتمعات ولكن هذا لايعنى تفسيرا ماديا ، ففى الفصل الاول ذكرنا أنه كان لكل مجتمع متحضر أولى ـ أو حوالى الوقت الذى نشأفيه ـ دين جديد (١) وسنشرح فى هذا الفصل هذه الاديان ، ان الديانة الجديدة كانت فى كل مرحلة تتكون من جزء من العناصر القديمة بالاضافة الى العناصر الجديدة الهامة ، ومع الديانة انتقلت قيادة المجتمع الى الاشخاص الذين سرعان ما ظهروا وأصبح الناس ينظرون اليهم ككهنة وربما كآلهة فيما بعد ٠

وقد قامت كل ديانة كوسيلة لمساعدة الناس على البقاء ، ثم أصبحت فيما بعد وبطريقة متزايدة وسيلة لتوجيه طاقات المجتمع نحو غايات معينة ، ان بحثنا يبدأ منطقيا بما تقرر بشأن المجتمعات الاولى المتحضرة ، وحاجاتهم الخاصة للماء ولحسن الحظ من الممكن أن نبين ذلك بوضوح وبصورة قاطعة ، كانت الديانة فى معظم المجتمعات فى أول عهدها بالحياة تهتم اهتماما حيويا بحاجة المجتمع للماء ، كانت المياه بالطبع الوسيلة الضرورية لبقاء المجتمعات ، وسنجد أن غرض الديانة الرئيسى فى المجتمع المصرى ومجتمع العراق ومجتمع أمريكا الوسطى ومجتمع الانديز وأيضا المجتمعين الهندى والصينى ، ومن المحتمل كثيرا المجتمع الكريتى هو أن تحصل على الماء وترسخ فى عقول الناس العبادة المناسبة الضرورية ٠

---

(١) جاء ذكر ذلك في الفصل الاول ٠

كان كل من الاله «أنكى» فى العراق (٢) و «أوزيريس» فى مصر (٣) يقومان على الماء وما فعله كل اله منهما ــ للمحصولات أو لزيادة الأشياء ــ فعله فى الارض أو على الارض ، كان كل اله منهما من الآلهة الخالقة كان « أنكى » اله المحصولات كما أنه كان اله المراعى وأشـــياء أخرى ، أما « أوزيريس » فكان اله الحنطة على الخصوص ،وجاء علم اللاهوت المصرى بتفاصيل حاذقة عن كيفية جلب أوزيريس الحنطة الى الوجود وكيف أنه كان هو ذاته «القمح» والماء على السواء ويعكس أنكى وأوزيريس الاختلاف بين مياه مواطنى هذين المجتمعين ، وتؤكد الاساطير أن أنكى كان اله الماء العذب وأن سكان ما بين النهرين كانوا يعرفونه تمام المعرفة كما كانوا يعرفون الماء المالح الذى يوجد فى الخليج العربى (الفارسى) (٤) . كان أنكى اله ماء النهر ولكنه بالمثل كان اله مياه الآبار والينابيع وماء المطر على السواء ولما كانت الامطار قليلة بمصر فقد كان بها اله للمطر (من كوبتوس) ولكنه لم يكن اله الماء العظيم .

كان « أوزيريس » اله ماء النيل فى اضيق معانى الكلمة وعلى وجه الخصوص فعندما تقول «أوزيريس» تقصد مياه النيل(٥) وكان «أوزيريس» فى الواقع هو الفيضان لقــد كان يحل فى الفيضان وطافيا فيــه ، وكان المصريون ينتظرون وصــوله السنوى بشعور سابق مشبع بالفــرح ، أما فى الاغراض الراهنة فانه من المهم جدا أن يقتفى أثر «أنكى» و«أوزيريس» كليهما وارجاعهما للماضى البعيد فى تاريخ مجتمعيهما المختصين بهما . وفى الواقع فاننا قد نرجعهما ثانية الى أصليهما . ان « أنكى » من حيث قدرته كاله محلى ، وجميع آلهة مصر وما بين النهرين العظيمة ، ومن غيرها المجتمعات الاخرى كانت ذات أصــول محلية كان ينتسب الى ايريد التى نعلم أنها كانت أقدم مدن العراق وقد وجد معبد هناك بين اقدم البقايا وهو غالبا معبد أنكى حقيقة وهو النموذج الاصلى البسيط لجميع معابد ما بين النهرين وربما كانت توجد أيضا علامات عند (آل عبيد) ، وهناك دلائل على أن « أنكى » كان يعبد هناك وعلى ذلك فانه يبدو كأنه كان الها من آلهة المجتمع الأصلية على الاقل ، بل ربما كان الاله المهم الوحيد (٦) .

---

(٢) المغامرة الفعلية للانسان القديم صفحة ١٤٦ ــ ١٤٨ (جاكســون)

(٣) هذه فرانكفورت صفحة ١٩٠ ــ ١٩٥ .

(٤) ذكر «ليتو» ان بعض فيضانات ما بين النهرين من المحتمل ان تتجاوز مياه الخليج.

(٥) صفحة ١٩١ Frankfort : Kingships

(٦) اترسم هنا آراء (فرانكفورت) في « مولد الحضارة في الشرق الادنى) .

ان أوزيريس كما فى اللاهوت المصرى الذى يرجع الى عهد ممفيس، ويعتبر وثيقة خاصة بتوحيد مصر ، وضعها مينا الفـاتح الذى أتى من الجنوب بعد عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد ، ومن الواضح حقيقة ان أوزيريس قد جاء من الجنوب مع مينا وقد اعتبر الها بارزا للمجتمع في عاصمة مينا الجديدة « ممفيس » ويوجد سبب قوى يحمل على الظن بأنه قبل قيامه فى ممفيس كان أوزيريس يعتبر الها محليا وظل يحتفظ بمكانته هذه من أول التاريخ المصرى الى آخره فى أسرة مينافى أبيدوس وكانت قد وسخت أقدامه لمدة طويلة قبل وحدة الوجهين(٧) وذلك يعود بأوزيريس الى وقت قريب من أصل المجتمع المصرى بدرجة هامة ، واذا كان تاريخ أوزيريس يرجع فى الحقيقة الى أصل المجتمع المصرى فانه ربمـا كان يعد فى ذلك الحين زعيما (ملكا أو الها ـ ملكا لأن جميع الملوك المصريين كانوا آلهة) وهكذا كان أحد أولئك القادة الذين ساهموا بنصيب فى تأسيس المجتمع ذاته ، وعلى قدر ما استطيع أن أحكم ان ثمة دليلا طفيفا غامضا بأن أوزيريس كان من أصل أسيوى أو من أصل افريقى طبقا لطاقته كمياه تجلب الخصب، واذا كان أوزيريس من أصل أسيوى فان من المحتمل جدا أن يكون قـد جاء مع سكان نقادة رقم (٢) وهم آخر من وصل الى مصر وأسهموا فى تكوين المجتمع المصرى ، واذا ما كان أوزيريس من أصل أفريقى فلابد أنه كان قد جاء الى مصر قبل سكان نقادة (٢) وربمـا كان قد جـاء مع المستوطنين الزراعيين الذين جاءوا فى زمن متقدم جدا (٨) . وربما كان أوزيريس من أصل مزدوج حتى برغم مقدرته كاله للماء .

وفى الواقع كان الرى فرضا دينيا فيما بعد هـذا بزمن طويل ، ولكن هذا الفرض الدينى كان عرضيا وليس جزءا أصليا من العبـادة ، كما أنه لم يكن موضوعا من موضوعات الطقوس الرسمية أو العقائد .

اما بالنسبة لمصر فان المسألة أقل ببساطة بكثير عما هو الحال فيما بين النهرين . فقد بدأ الناس الذين جاءوا الى مصر حوالى عام ٣٠٠٠ قبل الميـلاد فى نزح المـاء وتصريفه وتجفيف المستنقعات ، وعلى ذلك اذا كان أوزيريس الها للماء فانه بهذه الصفة كاله للماء ومن أصل سابق ، كان من الطبيعى أنه لم يكن بحاجة الى شىء من ذلك القبيل على الاطلاق .

واذا كان قد جاء ، بهذه الطاقة ، مع سكان نقاده (٢) فانه لا يوجد احتمال كبير بأن ضبط المياه كان مطلوبا فى عبـادته ، وذلك بحسب

(٧) Baugmartel : The Cultures of Prehistoric Egypt لندن ١٩٢٧ صفحة ٤ .

(٨) الفكرة القائلة بان اوزيريس قد جاء من اصل اسيوى فكرة قديمة .

المعلومات الموجودة حاليا ، وانه اذا كان مطلوبا فان هذا من قبيل الصدفة الخارجية (٩) •

لذلك فاني أظن أنه ينبغي أن ينظر الى ضبط المياه في مصر ، وفيما بين النهـــرين كمشروع عملي سرعان ما فهمت الحاجة اليه ، أما الري في معناه الاصطلاحي الأوسع من ذلك على أية صـــورة من الصور فهو ليس الري الذي نبحثه هنا • ان الري بذلك المعنى الشامل لم يتوصل الانسان اليه الا بعد عدة قرون عندما كان المجتمع مضطرا الى أن يوسع اراضيه لأحكام ضبط الســكان الذين كانوا يأخذون في الزيادة ، وقد جاء ضبط المياه الاولى ، بلا شك في الاصل ، بطريقة طبيعية الى حد كاف للشـــعوب التي كان اهتمامها بموارد الماء عظيما بدرجة انها دخلت في اديانهم بطريقة هامة ، ولكن الاديان قد وضعت الشروط التي تتوافر في صفات الماء المقدس الســحري النافع • ولا بد ان العقيدة كانت تقضي باعتبار الماء في ذاته الها ، وانه كان عنصرا في الالوهية ، أو ان الها منحها ورعاها او اى معنى من هذه المعاني ، وكان على الناس أن يشغلوا انفسهم بما يصلهم من ماء ، وأن يستخدموه بأفضل طريقة مفيدة وبأسلم طريقة ممكنة ، ان مجتمعات الانديز والصين والهند وأمريكا الوســطى ، قد تعتبر كمجموعة أخرى من المجتمعات ذات العلاقة المتصلة • وربما كانت علاقتها الخاصة ذات اهمية حقيقية عظيمة ، وهي تشترك معا في الرمزية ، لقد كانوا جميعا يشتركون في رمزية الحية والتنين أو (الحية-التنين) معا كرمز للماء ، وهناك حيــوان كالقط يرمز للارض (١٠) وهذا الرمز الأخير على جانب من الأهمية في مجتمع الانديز ، وأقل أهمية في مجتمع أمريكا الوسطى ، وذا معنى مشكوك فيه في المجتمع الصيني • ولكن اذا كانت الرمزية العامة ليست هامة في ذاتها فانها تبرهن على انها كانت لها أهمية عظيمة هنا في القاء الضوء على المعتقدات الأولى على الماء والارض في الصين ، والا فان الشيء الجدير بالاعتبار عن هذه المجتمعات الأربعة هو التشابه الأساسي بين عناصر (الماء والارض) في ديانتها والعناصر ذاتها في ديانة ما بين النهرين والديانة المصرية ، تشابه قد يهتم القارىء بمعرفته • والى جانب هـــذا التشابه يسير طبعـــا عنصر عـــدم التشابه في مجتمع الشرق الاوسط ، فانه اعظم في حالة مجتمع الانديز

---

(٩) Frankfort: The Badarian Civilization لندن ١٩٢٨ — ص ٤٨ •

(١٠) سنوضح الرمزية العامة للمجتمعات فيما بعد أشهر هذه المجتمعات او احطها شأنا •

اكثر منه فى المجتمع الصينى ، والمجتمع الهندى ومجتمع امريكا الوسطى. ولهذا السبب ندرس مجتمع الانديز فى البداية .

ان أول ما نلاحظه عن مجتمع الانديز ، هو أن الرى الحقيقى يشغل المكانة ذاتها التى سيشغلها فى تاريخ مصر والعراق . ويأتى الرى من الناحية الزمنية فى مجتمع الانديز متأخرا عن المجتمع المصرى أو ربما كان قد جاء بعد ذلك التاريخ بخمسمائة سنة على الاقل بعد نشوء مجتمع الانديز فى الاصل (١١) ومن ثم فانه لا يمكن أن يكون قد شغل مكانه فى العقيدة الدينية الاصلية (١٢) .

ولهذا كان يوجد طبعا نوع من التحكم فى المياه فى مجتمع الانديز منذ زمن قديم ، ربما من وقت نشوء المجتمع ، ولكن فى حالتى المجتمع المصرى والعراق لا نجد أى شىء فى الوصفات الدينية .

ولما كان مجتمع الانديز يتميز بأنه المجتمع غير المتعلم الوحيد فاننا لا نجد فى حوادثه التى جرت فى أيامه الاولى المعرفة المتأخرة الثمينة التى وصلتنا من الأدلة والشواهد المكتوبة التى جاءتنا من العصور المتأخرة عن مجتمع ما بين النهرين وعن المجتمع المصرى وبدرجة أقل من ذلك عن المجتمع الصينى ومجتمع أمريكا الوسطى .

وأيا ما كان الامر فمن الغريب الى درجة كبيرة كما أنه من العناية الالهية الى أقصى حد أنه قد وصلنا طرف من التاريخ من نوع آخر، وهذه السجلات ترجع الى تاريخ سابق لأى سجلات يمكن مقارنتها اذا استثنينا المعبد الاول ، (ايردو) فى العراق الذى لا يقدم لنا بحال من الاحوال بيانات محكمة يوثق بها كالبيانات التى نجدها فى سجلات مجتمع الانديز. ان تاريخ مجتمع الانديز يحتوى على ما يختص بصناعة نحت التماثيل ، وما يقوم مقام المواضع المقدسة فى المعابد والفخار الذى يحمل نقوشا على صورة الحيوان أوتشبه الحيوان أوالانسان الذى كان يمثل الامور المقدسة. كانت جميع هذه الدلالات تبين المعبود الذى كان على شكل قط وكان يقدسه مجتمع الانديز باعتباره الاله الاصلى . وكانت صناعة التماثيل تبين أن وظيفة الاله الرئيسية التى فاقت الوظائف الأخرى هى تلك التى تتعلق بالماء (١٣) ، ولكن الأوانى التى كانت ترجع الى زمن متقدم كثيرا

---

(١١) هذا التاريخ غير صحيح تماما .

(١٢) نيويورك ١٩٥٢ ـ ص ١٩٩ . Strong and Evans .

(١٣) كانت توجد صور على الوعاء على شكل نصف وجه القط وبقية الوجه على شكل الحية .

عن مصر كانت تدل على مهارة أكبر في صنعها ، كما كانت أوضح بكثير . وقد وصفها مكتشفها « رغائيل لاكو » على أنها (الحية القط) (١٤) . كما وجد قدرا على شكل بشرى ووجه قط ووضعت الصورة التي تمثل القط في هيئة البشر ، وكان الحاجب يتكون من حية كاملة ورأس حية أخرى تبرز من الفم البشرى (١٥) . وتستطيع أن تقرأ رموز هذه الحية كأنها نقوش مصرية مقدسة أو كتابة مصرية على الصورة التي تكاد تكون كالآتي: الحية التي على صورة حاجب الانسان هي الماء على وجه الارض والانهار على وجه التخمين ، والحية التي تبرز من فم اله الارض هي الماء الذي يخرج من الارض ، أي مياه الينابيع والآبار (١٦) . ولا يمكن أن تكون غير هذا في الواقع لان المطر نادر على ساحل الانديز وليس مفيدا للناس (١٧) . ومما يبعث على الدهشة ، ذلك التشابه مع الفكرة المقابلة في العراق في عصوره الاولى، أن «أنكي» اسم معبود المياه فيما بين النهرين كلمة تعني حرفيا « الارض » . كما يقول جاكسون : « من الاراضي تأتي الحياة التي تعطي المياه الحلوة ومياه الآبار ومياه الينابيع والانهار ، وفي الازمنة القديمة جدا كانت تعد هذه المياه التي تطوف في الارض الجديدة هي ما يظهر جزءا من وجودها ، وهذه ناحية من النواحي العديدة التي يرى منها المعبود» (١٨) . كانت الأزمنة التي تشير اليها قدور الانديز هي الأزمنة الأولى كما لاحظنا والتي يقول « جاكسون » عنها أنها تبدو كوصف جيد لشعب الانديز الاولى كما كان عندما بين النهرين في بادىء الامر وما كانوا يشعرون به نحو الماء والارض .

أما معبود المجتمع الانديزي فيجب أن يكون اله الزراعة (١٩) . في العصر الكويزينك كما يصفه « لاركو » وكان في هذا يشبه « أوزيريس » أكثر مما يشبه « انكى » لانه بينما كان يحتفظ بعمله المائي (وليس المائي الأرضي) قد نما طبيعة ثانوية فيه من الحذق والفطنة في ابداء المشورة - ويوجد شبه آخر بين المجتمع الانديزي والفكر المصري يظهر في الشكل الذي يجمع بين (القط ــ والضفدعة ــ والبنات) وكان هذا الشكل له

---

(١٤) ص ١٠١ Larco — Las cupisniques.

(١٥) ٢١٢ ــ ٢١٣ المرجع السابق .

(١٦) المرجع السابق .

(١٧) ليس هناك ما يفيد بأن مجتمع الانديز في الازمنة الاولى كان يهتم بالمطر .

(١٨) ص ١٣٦ .

(١٩) راجع ص ١٠٥ ــ ١٠٩ .

طلاقة بتسرب المياه وترشيحها الى النباتات (٢٠) ، ويشبه هذا كثيراً ما كان يفعله أوزيريس من ترشيح الماء للقمح ، وقد يرمز هذا الشكل الانديزى الى عمل خاص يقوم به القط المعبود أو قد يمثل شيئاً آخر يمكن تمييزه عن القط الاله ، ولكن أى تمييز يكون مجرد اختلاف بسيط بينهما .

أما الفخــــار الجنائزى الذى يرجع الى عصر متـأخر من التاريخ الانديزى فيوضح انه كان من المفهوم فى ذلك الحين أن مياه النهر قد جاءت من الجبال فى شرق أراضى المجتمع (٢) وقد يكون هـــذا الادراك متصــــلا بقيام الاعتقـــاد بالاله الاســـمى الذى كان يتخذ مقره فى الجبال (٢) .

وكانت القدور الجنائزية الأخرى تبين أن الماء كان موقراً مكرما أو على الأقل كان يعتبر كمصدر لمورد المجتمع من الأسماك (٢٣) . كانت هذه الفكرة واضحة فى الواقع وضوحا كافيا وكانت مشتركة فى مجتمع الانديز ومجتمع العراق ولكنها كانت ذات أهمية خاصة للمجتمع الاول الأنديزى وذلك لأنه كان قد ورث الى حد ما نصيبا فى الاعتماد على السمك أكبر من نصيب البدائيين الذين أقاموا قبله على الســـاحل الباسفيكى وعاشوا قبل عصر الزراعة ، ومن المستحيل علينا أن نبت فيما اذا كان مصدر الماء فى الجبال أو الاحترام للجبال والمعبود الأسمى المقيم فيها ، قد كان جزءا من الاعتقاد الذى كان يسود مجتمع الأنديز فى أيامه الأولى أو لم يكن جزءا من ذلك الاعتقاد ، ولكن يوجد بعض ما يحملنا على الاعتقاد بأنه كان كذلك حتى وان كانت الأوانى المعروفة من اقدم العصور والتى تحمل هذه الافكار ترجع الى ٨٠٠ سنة بعد تلك الأنواع من الفخار (٢٤) .

وربما تكون مثل هذه التضاريس الطبيعية الخاصة كجبال الانديز قد حملت على الاعتقاد السائد ، وحملت على التحول عن معتقدات مجتمعات الوادى الأخرى . ولكن تعدد انهار الأنديز لا يشاهد بوضوح بين تضاريس طبيعية كهذه ، واذن فربما لم يكن هذا الاختلاف عاملا مؤثرا عند قيـــام

---

(٢٠) هنود امريكا الجنوبية ص ١٧٢ .

(٢١) سترونج وايفانز ص ١٩٣ ، ١٦٤ .

(٢٢) ٤١ ١٩ ص ١٥١ .

(٢٣) انظر سترونج وايفانز ص ١٦٣ ، ١٦٤ .

(٢٤) شيكاغو ١٩٥٠ ص ١٣٣

مجتمعات الوادى فى الاصل · وكانت مصر ، الى حد ما ، حالها غيرعاديةبين هذه الحالات المختلفة طالما كان نهرها هو النهر الوحيد الدائم · وربما كان « الكرخ » معروفا لسكان العراق الأول ، كما كانت بعض مجارى الأنهار الأقل شأنا منها معروفة هى أيضا وكانت تجرى من منحدرات ايرانية الى الخليج الفارسى ، ولذلك فربما كان الفرات فى الحقيقة واحدا من الأنهار العديدة التى حدث ان اتخذها المستوطنون مقرا لهم فى بداية الامر · اما الروافد القليلة الاهمية التى تصب فى الاندوس والتى تنحدر من « كرثار » وتدخل النهر من الغرب فانها على الأقل أكثر بكثير من وديان النيل الجافة ، فى حين أن الروافد الكبيرة تتدفق شرقى المجرى الأعلى للنهر · ولكن حتى ولو ظل وجودها مجهولا لأمد طويل فان نهر مهران العظيم ربما كان شقيقا له وسرعان ما عرف هو الآخر · وتوجد كذلك عدة أنهار فى بيزو الشمالية ، ولم نقف حتى الآن على معرفة النهر الذى اختاره المستوطنون قبل سواه ، الا أنه من المحتمل أن يكون هناك نهر معروف قبل غيره · (٢٥) وقد يكون نهرا غير ذى أهمية كبرى · ولابد أن يكون لتلك الأنهار بعض التأثير على عقول المستوطنين على الأقل بالنسبة لانتشارهم من شواطىء النهر الأول الى شواطىء الأنهار الأخرى التى عرفوها فيما بعد ·

لذلك فان تفرد النيل يعتبر ظاهرة طبيعية خاصة بين الخصائص الطبيعية التى تؤثر على مجتمعات الوادى الأربعة التى ذكرناها ، والتى ينبغى أن تجتذب اهتمامنا ــ وهكذا فانه لا يدهشنى مطلقا اذا كان تفرد النيل سببا فى أن عبادة المياه المصرية قد تركزت فى الفيضان السنوى الواحد ، والتى كان على المجتمع المصرى ان يمارسها فى اجماع تام · وربما كان لهذه الخبرة العامة المفردة تأثيرها الخاص على الفكر الأول للمجتمع فى زمن باكر جدا مما قاد المجتمع للشعور نحو الماء شعورا مختلفا بعض الشىء عن الشعور الذى نشأ نحو الماء فى المجتمعات المتحضرة الأولية التى نشأت فى وديان الأنهار العديدة ·

وسنذكر شيئا قليلا آخر حول هذا الموضوع عند النظر فى حالة المجتمع الصينى ·

وتوجد سجلات أدبية وصناعية حول المشاعر الدينية الأولى للمجتمع الصينى ، وان السجلات الصناعية ذات طبيعة تشبه على وجه العموم طبيعة مجتمع الأنديز ، ويبدو لنا لأول نظرة أن البيانات حول

(٢٥) على الرغم من أن نهر شيكاغو يعتبر قديما جدا الا ان البقايا التى وجدت هناك لا تعتبر أقدم البقايا على أية حال .

المجتمع الصينى ينبغى أن تكون أفضل من البيانات عن المجتمعات الثلاثة التى درست حتى الآن ولكن هذا غير صحيح ، ان كل ما وصلنا عن المجتمع الصينى قطع عدة من البرنز ، وفخار قليل ومرمر وحجر اليشم وما الى ذلك من أعمال الحفر والنقش ، قد جاء من زمن متأخر عن تاريخ المجتمع الأنديزى ، وربما كانت غامضة نسبيا لانها جاءت متأخرة .

أما بخصوص الادب فانه وان كان يعترف المرة بعد الأخرى بأنه يبين أصل المجتمع فان المواد الأولى التى يشتمل عليها ذلك الأدب كانت مكتوبة قبل ذلك بألفى عام ، أو ربما أقدم من ذلك وقد فقد الشرح معظم قيمته ، وفى الواقع ان الأدب ليس مفيدا هنا بسبب الشرح ولكنه مفيد للتاريخ الذى يقدمه عن سر بقائه ووجوده حتى الآن .

ولكن مرور الزمن ليس مصدر التعب الحقيقى فى هذا الأدب الصينى ان الادب ينتسب الى الدورة الثانية (٢٦) من تاريخ المجامع الى التغييرات العميقة التى تحدث عندما يضمحل المجتمع ثم يعود وينتعش عند الانتقال من الدورة الأولى الى الثانية فتقيم ستارا غير شفاف بين أحوال الدورة الأولى وكتابات الدورة الثانية (٢٧) . ولقد توافر الأدب بكثرة فى الدين والميثولوجيا ، كما حدثت أعظم التغيرات فى هذه الامور بين هاتين الدورتين ان الأدب يصف الديانة فى الدورة الثانية ، وفى تلك الديانة توجد بقايا من الدورة الأولى .

ويمكن القول اجمالا أن الادب يبين ان الديانة الصينية فى الدورة الثانية لاتزال تمجد الزراعة وترفعها الى الذروة من الأهمية . ان اشياء - كهذه - كالاحتفال الذى كان يقام فى الربيع «لتدشين الأراضى» ويحضره جميع أفراد المجتمع من الامبراطور وكبار موظفيه الى رؤساء كل وحدة محلية الى كل فرد من أفراد القرية انما يمثل تماما المجتمعات الزراعية المتحضرة . ولكننا نريد أن نعرف شيئا بنوع أخص عن الماء وتوجد اشارات تفوق الحصر عن اهميته فى العدد الضخم من القصص التى تدور حول التنين والحية (٢٨) ، ولكن كثيرا من هذه الاشارات قد أعيد تفسيرها لتحقيق أغراض جديدة فى الدورة الجديدة ويمكن أن تصبح مضللة وهى فى الواقع كذلك . ومع ذلك فان شيوعها علامة على أهمية الماء ذلك لأنها تنم على الدوام عن معناها السابق فى طيات تفاصيلها .

---

(٢٦) شرح التطور الدورى للمجتمعات المتحضرة فى الفصل الأول .

(٢٧) لا توجد اية مادة الأبية للدورة الاولى Greel Studies

(٢٨) انظر ص ٢٣٧ - ٢٣٩

ونسوق مثلين ظاهرين من قصص الجماعة عن الاحتفالات التى كانت تقام فى الربيع فى امارتى « لو » و «شنج » (٢٩) ..

كان احتفال (لو) عبارة عن «رقص التنين» الذى يبدأ مع الراقصين فى مياه نهر «بو» فعلا ، ثم يبرز الراقصون على الشاطىء (٣٠) . وكانت توجد أنواع رقص أخرى للتنين . ولكن كان لاحتفالات «لو» و «شنج» أهمية خاصة .. لانها كانت الدليل الوحيد الواضح الذى اعرفه فى تاريخ الصين الذى يبين أن فيضان النهر ، كان من المعتقد أنه ذو فائدة ، وسوف نعود فيما بعد الى هذا الموضوع ..

وتبين أن اهتمام الناس من الناحية الشعبية الدينية توضحه هذه القرابين لاله الآبار . كما كانت توجد أيضا ذبيحة رسمية للمطر يقدمها الاباطرة والملوك فى الصيف ، وهو الفصل الوحيد الذى تحصل منه شمالى الصين على كمية محسوسة من المطر .. كما كان يوجد ايضا معبودان بين الآلهة الرسمية هما شخصيتان غامضتان خياليتان لا تلقيان اية عناية خاصة يسميان : (سيد المطر) و (كونت الريح) وهذا هو كل ماورد فى التراث الأدبى . فاله (اليابسة) « هوتو » يشبه تقريبا الارض كما وجدناها فى مجتمعات ثلاثة اخرى ..

لقد نما « هوتو » كثيرا جدا حتى اصبح معبودا اقطاعيا أو على الأقل سياسيا اقليميا وان كان يحمل فى (٣٢) ماضيه بعض التعقيدات التى قد تخفى شيئا مغايرا ..

وقد يكون هذا الشىء أمرا يعتد به فى الأدب الذى وضع بعد ذلك فى الزمن الذى تعنى به من آلاف من السنين ، ومهما يكن الأمر فسنتوصل الى شىء أكثر من الآثار الصناعية حتى ولو لم تكن تلك الآثار أقدم من التراث الأدبى ، اذ أن البقايا القديمة كانت تسبق ذلك بقرون معدودة فحسب ، والسبب الرئيسى الذى يجعل هذه البقايا ذات فائدة أعظم ليس فيما أعتقد هو قدم هذه البقايا عن الادب ، وانما يرجع السبب الى زيادة عدم تأثر خبرة الصانع عن الكاتب فى المسائل النظرية الابداعية والمجردة لعلم اللاهوت فى الدورة الثانية ، وفى الرموز الخاصة بالرعد والمطر (٣٢)

---

(٢٩) نسبت احتفالات الربيع الى الامارات الاقطاعية لانها سجلت في زمانها .

(٣٠) قصة لو مأخوذة عن كتابات كونفوشيوس ..

(٣١) انظر بعض رموز الخصب في الصين القديمة ــ برنهارد كارلجرن .

(٣٢) انظر Greel : The Birth of China

وفى الانتقال الى جو العمل الحرفى ، اذ أن أول ما يلفت نظر الباحث هو التنين المائى أو الحية ، ولكن معانى هذه الرموز معروفة تماما . أما موضوع الاهتمام الخاص وأهم شيء فى هذه الرسوم ذاتها فهى التى يصورها النهم الذى يأكل كثيرا أو الذى يبدو غالبا فى جميع الاعمال البرنزية الموغلة فى القدم (٣٣) . وعدد صغير من قطع المرمر (٣٤) كما كانت منقوشة على كثير من أحجار اليشم وان كان ذلك أقل انتشارا الا أنه كان لايزال ذا مغزى وأهمية (٣٥) .

أما الشكل الصينى (تى اورتى اى) فهو تقسيم غريب لوجه الحيوان الى جزءين . كل جزء على جانب . ويمتد الجانبان عادة على السطح المنحنى لاى اناء من نوع ما ثم يتصلان معا ويظل كل جانب منفصلا فى المنتصف عند فم الحيوان وأنفه (٣٦) . وفى بعض الاحيان يكون الشكل مجرد رأس بفك أدنى أو بدون يد « وكان هذا الموضوع مثار حيرة لا نهاية لها بين العلماء المتخصصين فى الدراسات الصينية (٣٧) » .

ولتوضيح ذلك ينبغى أن نرجع الى فكرة عرضها « لوفر » منذ نصف قرن تقريبا وتقضى بأنه ينبغى النظر فى ضوء الرب (٣٨) . وفى نظرى أنه كان معبودا أو الها فى الاصل قبل أن تصلنا أية نماذج عنه بزمن طويل حتى تلك التى وصلتنا منذ أقدم العصور ، وأظن أن ذلك المعبود كان قريبا لمعبود الأرض فى مجتمع الأنديز الذى وصلنا شيء عنه ، كما أنه قريب للمعبود الأقل أهمية منه ذلك الذى ستعرف شيئا عنه فى مجتمع أمريكا الوسطى . ولاشك فى أنه شيء مثير للعواطف ويرجع تأثيره للتشابه القريب الذى وجد بين التطورات الخاصة بألوهية الماء وألوهية الأرض فى مجتمع الأنديز ومجتمع العراق ، أما التشابه الجديد بين المجتمع الأنديزى والصينى فيعتبر أمرا جوهريا من عدة نواحى ، فمن ناحية فن التعبير والدلالة بتقسيم وجه المعبود الى قسمين (٣٩) ومن ناحية فان تقسيم الوجه فى معبود الأنديز لم يذكر من قبل ولكنه يرى بوضوح فى الأشكال التى عرفت عنه للآن ، ويبدو أن التقسيم فى حالات الأنديز كان لغرض

---

(٣٣) تاريخ موجز الحضارة الصينية .. رولهلم ..

(٣٤) صفحة ١٠١ شكل ١٤ .. Fitzgerald

(٣٥) صفحة ١٢٤ — ١٣٣ اشكال ٢٣ — ٣٣ المرجع السابق .

(٣٦) ص ١١٥ — ١١٦ Greel

(٣٧) يظن « كريل » انه فى بعض الاحيان يمثل حيوانا أو آخر .

(٣٨) ص ١٨٥

(٣٩) يعتقد « يوستوفسى » ان الشكل يرمز الى نوع من النور .

التأكيد على ذاتية « الامير ــ الكاهن » والمعبود أو العمل الوثيق الذى يعبر عنه « الأمير الكاهن » ·

أما جعل الشكل مرافقا لمواضع التنين الثانوية ومواضع منقـــار الطيور ورءوسها الى غير ذلك من المواضع فأقل أهمية · والاهم من ذلك كله هو أن معبودات المجتمع الانديزى وفى مقدمتها معبود القـــط كانت قناعا يرتديه الكهنة وكان يرمز الى هذه الآلهة ·

وربما كان المعبود فى المجتمع الأول على شكل قط ، وتدل الأشكال العديدة على انه كان على صورة قط ، والأهم من ذلك انه لا يوجد مايثبت انه كان الها هاما كأنكى أوزيريس واله القـــط الذى عرف فى مجتمع الأنديز ، وأنه كان يصور على أشكال شتى منها الحيات والتنين ، وأنه كان المعبود الذى يعتبره الها للماء مما يدل على أن الصين كان لها اله ماء فى أقدم عصورها كما كان للمجتمعات الثلاثة الأخرى ·

وأخيرا ينبغى أن نرحب بالفكرة القائلة بان اله الماء لم يكن يهب ماء المطر وماء الآبار وماء الينابيع فحسب بل انه كان يهب ، ماء النهر أيضا ، وهذا يرجع الى أن الصين الشمالية كانت تفقد مياه أمطارها تدريجيـــا فى وقت نشوء المجتمع المتدين فى الأصل ، ومهما كان الأمر فان الأساطير التى ترجع للدورة الأولى تبين بوضوح أن فيضانات النهر الأصفر كانت تبدو للخيال الشعبى المألوف كشىء خطر أو كشىء يتطلب اقامة الحواجز والسدود وتطهير النهر ، أما « يو » الذى يعد أعظم الأبطال الذين وردوا فى الأساطير ، وربما كان قائدا للمجتمع فانه غالبا ما اكتسب شـــهرته بحفر ترعة يتجمع فيها فيضان النهر · فكان هذا العمل الأول من نوعه ، وهو تجمع مياه الامطار فى ترعة ، وهذا لا يعنى على الاطلاق أن الصينيين لم يشعروا فى وقت من الأوقات بأنهم مدينون لمياه الأنهار ، وانما لا يوجد أى اثر اطلاقا عن أى شىء يشبه ذلك الاحترام غير العادى والمتزايد الذى كان يقدمه المصريون للفيضان السنوى الذى كان يجود به عليهم نهرهم الوحيد ، وكانوا يعتمدون عليه اعتمادا كليا ، ولهذا السبب كان معبودهم العظيم « الأرض ــ الماء ــ النبات » المعبود اوزيريس هو الفيضان الذى كان يجىء سنويا لتعضيد الجنس البشرى وتوفير مقومات الحياة له ، أما النهر الأصفر فلم يكن ، طبعا ، نهرا واحد بالنسبة للصينيين كما كان النيل بالنسبة للمصريين · كان للنهر الاصفر روافد داخل الاراضى التى يقيم فيها المجتمع ، وفى الواقع ربما بدأ المجتمع على ضفاف تلك الروافد ، كما نشأ على ضفاف النهر الرئيسى · وقد يبين هذا أن أقدم تاريـــخ لايزال

باقيا لفيضان جيد من فيضانات الانهار ، هو للأنهار الصغيرة ، أما « حزن الصين» كما لايزال يسمى فيضان النهر الاصفر لليوم ويبدو أنه لم يكن من عمل المعبود المحسن .

ويشاهد وجود الماء وعلاقته بالمعبود بكثرة فى الهند ، ولكن جميع الشواهد ترجع تقريبا الى زمن متأخر ، ويتألف جزء عظيم منها من أشياء عصرية باقية ، ويوجد قدر معين من الأدلة تتعلق بالمناخ العام فى الهند الذى يبرز فيه هبوب الرياح الموسمية والجفاف الذى يسبقها (٤٠) ويتجدد القحط سنويا والتخفيف من القحط لابد وأن يكون قد زاد من المشاعر الهندية نحو الماء ، ولكن ثمة دلائل كثيرة بأن الأزمة السنوية فى الطقس ليست الأساس كله الذى يقوم عليه تكوين الهنود للماء .

ومن المظاهر العامة الأكثر شيوعا من سواها بصفة الماء المقدسة فى الهند ، هى عادة تمثيل المعبود فى الاحتفالات المتنوعة ببحيرة ماء تصبح مقرا للاله فى تلك المناسبة (٤١) .

ومن الصعب أن نذكر الزمن الذى تعود اليه تلك العادة العامة المقدسة للماء فى الهند ولكنها كبقية العادات الأخرى الخاصة بالماء لاترجع الى أصل آرى ، لأن النار كانت المظهر المقدس للمعبود أكثر من الماء عند الشعوب الهندية الاوربية (٤٢) . وعلى ذلك يوجد بعض الاحتمال فى أن هذا يرجع الى الدورة الأولى من التاريخ الهندى ، ويوجد مظهر عام آخر وهو الحلول فى كل مكان فى برك الماء والصهاريج والحمامات وممارسة الاستحمام والطقس فى هذه المياه ، وهناك اتفاق عام (٤٣) على أن تلك الممارسة على أشكال لا ترجع الى الدورة الأولى لأنه يوجد فى (موهنجو دارو) بناء متقن للاستحمام الى أبعد حدود الاتقان ، كانت تجرى فيه الطقوس الدينية المتعلقة بالاستحمام ، ومن بين هذه الأبنية حمام عام وحمامات خاصة للكهنة على ما يظن أيضا ، ان جميع انهار الهند تعتبر مقدسة الى حد ما ، وأنه من المحتمل تماما أن يرجع هذا الى زمن مبكر جدا وربما صدق « شايلر» فيما ذكره أن نهرى « سارا سفاتى » و « مهران العظيم » هما نهر واحد (٤٤) ان « ساراسفاتى » لايزال أحد الأنهار

---

(٤٠) الاساطير والرموز في الفن والحضارة الهندية . H. Zimmer

(٤١) المرجع السابق ص ٣٤

(٤٢) انظر الفن في الهند وآسيا ص ٣٧ Zimmer .

(٤٣) المرجع السابق ص ٢١

(٤٤) انظر الفصل الاول حاشية رقم ٢ .

الثلاثة الأكثر قداسة من غيرها من الأنهار ، أما نهر « الأندوس » فلم يعد من بين هذه الأنهار ،ومهما كان الأمر فان النهرين الآخرين هما « الكنج » و « جوما » . ان ساراسفاتى باعتبارها الها كانت احدى زوجات براهما المعبود الاكبر الذى كانت شهرته كاله أو كمفهوم لاهوتى فلسفى للكائن يرجع أيضا لزمن قديم جدا ، ومن الممكن فى الواقع أن نرجع الطبيعة المقدسة للأنهار الى أصل كل شىء ، فاذا كانت تحقق هذا على أية صورة مثل الصورة الهندية العصرية فانها نكون الحالة الوحيدة من نوعها بين المجتمعات المتحضرة البدائية ، على قدر ما يظهر من الدليل ، وربما كان هذا من الأسباب التى تحمل على الظن أنه كان يوجد شكل آخر للوصول اذا كان هذا لا يرجع الى مثل هذا الزمن المتقدم .

ان المعبود الخالق للدورة الثالثة من التاريخ الهندى . الذى يسمى « فيشنو » وزوجته « لاكشيمى » أو « بادما » لهما صلات وثيقة الى أقصى حد بالماء مثل براهما وساراسفاتى اذ انهم جميعا يعرفون بالماء وكل خلق دورى انما يصنع فى الماء ومن الماء .

ومن الواضح ان (لاكشيمى) فى الواقع من أصل غير آرى ويمكن تتبع هذه الأسطورة الى الدورة الاولى من جنوب الهند (٤٥) ، التى أوجدت ملامح كثيرة من الثقافة الأولى بعد أن تغيرت فى الشمال ، وان « فيشنو » باعتباره خالقا صحب اسمه « شيشا » الحية العالمية أى ملك جميع الحيات وهو جزء من « فيشنو » وكلاهما ماء . وجميع الحيات تشير وترمزطبعا للماء ، وفى الواقع كان بين الحيات ملوك وملكات حراس على البشر ، وكانت معظم الأسر المالكة فى جنوب الهند ترجع بنسبها الى « ناجا » و « ناجينى » وكان الانحدار من نسل الحية المعبودة يرجعفى ذاته الى الدورة الأولى اذا راعينا الأشكال والصورة على عمل البحر الذى وجد فى « موهنجو (٤٦) دارو » .

وكانت المياه فى الهند الى حد ما أيضا مياه من الأرض وفى الأرض كما كانت بجملتها تماما فى العراق ومصر (٤٧) .

وقد انتقلت المياه فى دهاء على حين كانت الحية تنتقل فى الأرض وثبت فيها الخصب ، ولكن كان للهند حيوان آخر أيضا من الحيوانات

---

(٤٥) انظر ص ١٥٨ ـ ١٦٠ Zimmer: Art of Indian Asia

(٤٦) سنشرح ذلك فيما بعد .

(٤٧) الاساطير والرموز ص ٧٤ ـ ٧٥ Zimmer

الوحشية التى ترمز الى الماء وهو الفيل ، ويظهر أن الأفيال غالبا ما كانت تهتم بمياه السماء ، ذلك لأنها كانت من أبناء عمومة السحاب وذات مودة لاجتذاب غمام المطر مكونة عنصر الماء المنعش لحفظ المحصولات والانسان والحيوانات (٤٨) ٠

ان عبادة الماء فى مجتمع أمريكا الوسطى شيء معروف تماما وأنها ترجع يقينا الى أصل المجتمع (٤٩) ٠

لقد كانت نوعا خاصا جدا من عبادة الماء كالنوع الذى كان فى المجتمع المصرى ، كما أنها كانت مختلفة تماما لأنها كانت عبادة لماء المطر ، كما لاحظنا ذلك فى الفصل الأخير ٠ وكما بينا فان عبادة المطر من هذا النوع المحقق والغريب كانت نتيجة طبيعية لقيـــام المجتمع فى الغابة الاستوائية التى تنزل فيها الأمطار ٠ وفى كل جزء من مجتمع أمريكا الوسطى أى فى امتدادات المجتمع خارج الغابة المطيرة ، وبالمثل فى داخل المجتمع ، كانت الهات الماء هى الهات المطر ، فهناك الاله شاكس Chacs فى منطقة (مايا) والآلهة تلالوك Tlaloc فى المكسيك ، وكوكيجوس Cocjos فى أوكراكا ، وتاجنز فى فيراكوز ٠ عمالقة وكانت الآلهة يرمز اليها على شكل عمالقة فى الغالب ٠

لقد كانت لديهم أوانى ماء يحتفظون فيها بالماء الذى يصبونه على الأرض ، وكانوا يضعون الضفادع لحراسة هذه المياه ، وجد ان تـــكبات متنوعة مما حدثت فى هذه الاسطورة قد نجحت من حيث المياه الكثيرة الى درجة زائدة عن الحد وهذه أحداث مفاجئة يمكن أن تدرك بسهولة فى غابة استوائية . وكثيرا ما كانت آلهة المطر تمثل الملامح التى استعيرت من الرموز الاخرى المتصلة بالمادة التى تتضمن أنياب « الهة القط » ومخالبه وملامح الحيات وعلى الأخص فى المكسيك ٠

أما جميع آلهة المطر فكانت رباعية اله لكل اتجاه من اتجاهات البوصلة ، كما سبق أن حدث مع الآلهة العديدة فى ديانة أمريكا الوسطى ٠ كان لآلهة المطر مكانتها الأولى فى العبادة الشعبية مع اله القمح ٠ وربما كان اله القمح محبوبا من الناس أكثر من أى اله آخر ، وكان الفلاح يشعر بوجود هذا الاله دائما وبصورة مستمرة لا تفارقه ، كان اله القمح صديقا للانسان ، ويطعم الانسان ويدعم القضية الانسانية بكاملها ، كما يعين

---

(٤٨) المرجع السابق ص ١٦٠ .

(٤٩) ان أول بينة على ذلك تجدها فى صنامة نحت التماثيل الخاصة بالمعبد ...

الإنسان على الحياة (٥٠) ولكن اله القمح لم تكن له القوة التى كانت لآلهة المطر . كان على الانسان أن يرضى آلهة المطر لانها كانت تستطيع ان تحجب امداداتها عندما تكون الحاجة ماسة اليها ، كما أنه كان فى مقدورها أن تقدم امداداتها فى فيض وعنف وهذا ما كانت تفعله على الدوام ، وبهذا كانت تسبب الفيضانات والفطريات والعفونة ، والخراب .

ويذكرنا الارتباط الوثيق بين المطروالقمح بالعلاقة التى بين الفيضان والقمح فى مصر ، ومن الواضح أن المنطق ذاته يملى هذا فى كلا الحالتين . وانه من العوامل التثقيفية أن نجد الترابط فى كلتا الحالتين التى جاء فيها الماء الى المجتمع بطريقة فعالة . فلقد كان المطر فى أمريكا الوسطى مرتبطا أيضا بالأرض ، كما هو الحال فى معظم المجتمعات الأخرى التى درسناها ، ان عبادة الارض فى أمريكا الوسطى كانت عبادة شعبية ، وكانت الأرض تمثل (آلهة القط) كما هو الحال فى بيرو ، ولكن يظهر ان الاهميـــة النسبية لاله الأرض واله المطر قد ردت الى المجتمعين .

ففى مجتمـــع الأنديز ان الأرض قد ولدت الماء ، أو حملت الماء على سطحها وعلى ذلك فان المعبود المسيطر كان الاله القط للارض ، أما فى مجتمع أمريكا الوسطى فان الماء قد جاء بقوة مسرحية من السماء وليس من الأرض ، ولكنها سقطت على الأرض وحملتها على انتاج القمح وبقيـــة حاجات الانسان النباتية الأخرى ، عملية انتاج الطعام ، واحتفظ اله الارض بمكانته الثانوية (٥١) .

ولقد كانت العلاقة بين آلهة المطر واله القمح واله الارض مجـرد علاقة بين الصلات العديدة التى تبين بوضوح الى أى حد كانت عليه آلهة المطر العامة من الأهمية (٥٢) وكثير من هذه الصلات تطورات متأخرة نسبيا قام بها الكهنةعندما توسعوا فى علم اللاهوت لكى يحتفظوا بالخيال الشعبى ، ولسنا فى حاجة هنا للاهتمـام بذلك ولكن توجـد رابطتان تتعلقان فقط بالجزء المكســيكى للمجتمع على قدر ما نعلم ويستحقان عناية خاصة ، أنها تتعلق بآلهة البحيرات والأنهار التى كانوا يطلقون عليها السيدة ذات الجونلة الفيروز . والرياح الشرقية والبطل المشهور العظيم . وكلاهما كان بالتأكيد فى فترات مبكرة .

وان الطبوغرافيا والمناخ الخاصين اللذين يتميز بهما وادى المكسيك

---

(٥٠) قيام حضارة مايا وسقوطها . ص ٢٣٤ ــ ٢٤٠ .

(٥١) انظر حضارات أمريكا الجنوبية Armillas

(٥٢) حضارات أمريكا القديمة . Thompson

والذى يختلف كل الاختلاف عن الطقس فى الغابة الممطرة يوضح طابع الاهه أيضا ٠ ومن ثم بقيت المعبودة على ما أظن من الأزمنة الأولى فى اقليم البحيرة ، وعندما تغلغلت عبادة المطر فى الاراضى المنخفضة مع اتساع الحضارة أدخلها الكهنة فى ديانتهم ، وضموا اليها Tlaloc

أما مجتمع كريت فانه يقدم دليلا أقل خطورة عن أهمية الماء فى الديانة الأولى عما تفعله المجتمعات الستة الأخرى ٠ ومن المحقق أنه كان للماء مكانة ولكنه ليس من المتيسر من الدلائل التى لدينا أن نقدر مبلغ أهميته ٠

على اننا اذا درسنا ديانة كريت من وجهة نظر « برسون » نجدها عبادة موحدة ، نجدها محكمة الصنعة وخصبة الى درجة عظيمة عندما كان للماء مكانة فى الطقوس التى يحتفل بها عند ظهور الربيع (٥٣) ٠

واذا ما آثرنا أن نتبع نلسون وأن نظل لا أوربيين بحيث نزعم أننا نعلم فقط سلسلة من التفاصيل المستقلة فماء الينبوع وماء البئر والمطر كانت لها جميعا مكانتها وأهميتها (٥٤) اذن ٠

أما المصادر الأخرى فانها تهتم غالبا بالخصائص التى يمكن رؤيتها فى اماكن العبادة التى اكتشفت ، كما انها تدلنا على أهمية الماء فى الرمزية الدينية ، وعلى هذا النمط استطاع « ايفانز » أن يكتشف كتابة تصويرية ترجع لزمن الجدب فى الصيف ، ويظن أنه كانت توجد احتفالات تجعل المطر ينهمر لمقاومة هذا الجدب ووقفه (٥٥) ٠

اما (دوزود) فيذكر عبادة الشجرة التى يعتقد أن المطر قد لعب دورا فيها (٥٦) .

ان مناخ كريت نموذج لمناخ البحر الأبيض المتوسط مع فصل ممطر قصير ، اما موارد المطر فكانت آخذة فى النقصان بلا ريب عندما وصل المستوطنون ولمدة طويلة فيما بعد ٠ وكذلك نجد ان الجزيرة صغيرة أيضا الى درجة أنه ليس بها أنهار كبيرة أو طويلة بدرجة يمكن أن تحتفظ بمقادير كافية من المياه طوال الصيف ، وفى الواقع لاتوجد سوى أنهار

---

(٥٣) ديانة اليونان في ازمنة ما قبل التاريخ W. Persar ص ٥١ — ٨٩ ٠

(٥٤) الديانة اليونانية القديمة ٠ P. Nilson

(٥٥) ص ٤٤٦

(٥٦) حضارة ما قبل الهلنية ص ٤١١ — ٤٢٣ ٠

قليلة جدا لاتجف - كما أنه لا توجد بحيرات ولكننا قد بحثنا هذه الامور الطبيعية الخاصة بسهول كريت فيالفصل السابق . اننا نفهم بصعوبة فى هذه الظروف أن الحاجة للاحتفاظ بالماء ينبغى الا نجد لها سبيلا الى ديانة كريت .

وتوجد فى الواقع أدلة كثيرة على أنها استطاعتذلك فكانت الينابيع من الاماكن المقدسة . وكانت معظم الاحتفالات الكريتية الدينية تجرى فى الهواء الطلق ، فكانوا يقيمونها على جوانبالجبال وقممها ، ومنالمحتمل أن يكون قد حدث ذلك تماما لأن الاحتفالات كانت لها علاقة بالمياه التى كانت تتدفق الى جوانب الجبل فى الفصل الممطر وتسمد السهول .

ان وجود رموز لماء معين وأرض معينة كانت عادة فى ثلاثة أو اربعة مجتمعات متحضرة عند قيامها فى الأصل ، وان تلك الرموز العامة قد ظهرت على جانبى الباسفيك ، فانها ظواهر طبيعية تتطلب ايضاحا .

واننا لانعلم سر ما تعنيه الرموز ، ولكننا نعلم فقط أن هذا هـــو ما يقصد به - ان كبر الافيال ولونها الازدوازى الرمادى هو رمز الماء فى المجتمع (الهندى فقط) قد يظن أنه يشبه الصفات ذاتها فى ظهـــور السحاب ، ان الرأى يكاد أن يكون معقولا ولكنه لا يوجد أى دليل يؤيده ان الحيات طويلة وملتوية كالأنهار ولها فى بعض الأحيان ايضا حفر فى الأرض قيل انها تتحرك فيها كالماء متسللة .

ومن الواضح أننا لا نستطيع أن نجد أى ايضاح لانتشار رموز الحية والقطة فى تشابه معقول ، ومن الواضح أن هذه الرموز قد طبعت فى وقت ما فى اقليم أو عدة أقاليم محدودة ثم انتشرت منها الى أقاليم أخرى ، وعندما توجد صفات عامة فى جانبى الباسيفيكى فانهـــا عادة ما تعزى الى الشعوب (القطبية) وقد عرف منذ فترة طويلة أن الصينيين الأول أظهروا علاقات قرابة مع هؤلاء الناس (٥٧) .

وربما يؤخذ هذا ليوضح استخدام المجتمعات الصينية وأمريـــكا الوسطى والانديز لرمز الحية استخداما عاما ، واستخدامها أيضا لرمز من نوع السنور لو كان ذلك الرمز مستخدما فىالصين أيضا كما يظن هنا ، ولكن كيف جاء رمز الحية الى الهند ؟ من المحتمل أن يكون قد انتشر من المنطقة القطبية ، والمعلومات القليلة التى نعرفها عن الشـــعوب الهندية

---

(٥٧) شجرة الثقافة ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧ Ralph Linton

الأولى لاترجح أن تكون هناك صلة كبيرة مع الشعوب القطبيـــــة ، وان توضيح هذه الصعوبة مرجعها الى أن الشعوب القطبية ليست المصـــدر الوحيد لهذا الرمز (٥٨) ·

ولكن متى حدثت هجرة هذا الرمز ؟ لقد حدثت على ما يبدو فى زمن مبكر لأن الادوار المتواضعة نسبيا لرمز الحية فى العراق ومصر كانت قبل الآن قد تأسست فى زمن مبكر فى المجتمعات المتحضرة هناك · فانها كانت فى الواقع لم تسبق فى تاريخها المجتمعات المتحضرة اذن · وأظن لذلك أن رمز الحية فى معناه الأكثر أهمية والأقدم من ذلك قد نقل الى جميع الجهات عن طريق الانتشار فى العصر الحجرى الأوسط من الشرق الادنى للعالم القديم (٥٩) · تشير جميع الاحتمالات الى أنها كانت قد نشأت فى وقت مبكر الى حد أنها قد وصلت العالم الجديد فى وقت نشوء مجتمع أمريكا الوسطى · وفى الواقع أننى لا أثق فى أن الصلة الثقافيـة للشعوب الأخرى كانت تعنى المشاركة فى التشتت والانتشار من المنطقة القطبية الى حد ما عن العلاقة التى كانت تدفع الشعوب التى كانت تعيش حول القطب الشمالى لتقوم بدور أصلى ، ولا يدهشنى اذا كان قد جاء رمز القطة من الأصل ذاته حتى ولو كان لا يوجد أى أثر له هناك فى أى اتصال من ناحية الأرض ·

ان هجرة الرموز لاتدل على هجرة التراث بأكمله ، انها لا تعنى حتى هجرة الممارسة أو مدلول الرمز ·

وعلى هذا النحو لا يمــــكن أن يؤخذ رمز الحيـــة أو رمز القطة فى المجتمعات العديدة المختلفة على أنه يعنى الثقافة بأكملها لكل من تلك المجتمعات او أى جزء هام منها كان قد انتشر من مكانه الى جميع البلدان الأخرى · كما أنه لا يمكن على أن تؤخذ ليبين علاقة أصلية بين أديان المجتمعات العديدة البدائية ، انه يوضح فى الأحوال الراهنة فقط ، ان الاعتقاد الخاص والممارسة التى يعنى كل رمز أنها قد هاجرت لا يستثنى مقدارا كبيرا من التعديل فى المعتقدات والممارسات فى وقوع كل منهمـا على انفراد ولا يبين أى شىء مهما كان عن أماكنها فى ديانة كل مجتمع · لقد كان تكوين ديانة كل مجتمع سلسلة من الحوادث المنفصلة ، فكانت توجد طبعا مشابهة للظروف والأسباب فى تكوين جميع الأديان ، وهذا هو السر الى حد ما فى وجود الاعتقادات والممارسات التى قامت فيها كلها

---

(٥٨) اصبحت تسمى الحية في مصر الاله « ابوفيس » عدو الشمس وسلطان الظلام ·

(٥٩) ارجع لمؤلف Greel

انها اعتقادات وممارسات اذا ما جمعنا بينها وبين الرموز التى تشير اليها نجدها قد وجدت بين الشعوب المتعددة فى زمن متقدم عندما كانت متصلة اتصالا مباشرا أو غير مباشر الواحدة بالأخرى ٠

ويمكن ان يقال ان تشابه الظروف والأسباب قد ساعد على اختيار المعتقدات والممارسات المتشابهة فى الثقافة المشتركة وتأكيدها وتنميتها٠

ان الاهمية المحدودة لهجرة الرموز تقلل على أية حال من أهمية تكرار الأصل فى الوقائع الأساسية ذاتها ، فى جوهرها ، وذلك فى جميع المجتمعات المحتضرة الاولية ، ان التكرار فى حالة بعد أخرى من اهتمام الدين بالحاجة الى الماء يؤثر جدا بدرجة عالية ٠ ان الثغرات فى المعرفة والدقة فى بعض الشواهد والادلة لاتكفى لنسخ التضمينات الظاهرة للدليل الايجابى ، وأفضل نتيجة مؤقتة نستطيع أن نستخرجها منها هى أن اهتمام الدين بالماء كان عاما فى جميع المجتمعات ، وانه كانت توجد فقط مجرد اختلافات فى التعبير عن ذلك الاهتمام بين مجتمع وآخر ، وأن معظمها كانت نتيجة الاختلافات المتعلقة بالبيئة ، واذا ظهر دليل جديد وألقى الشك على هذا فانه يجدر بنا عندئذ أن نعدل الموضوع أو نتخلى عنه ٠ وترجح حاليا أن جميع المجتمعات المتحضرة البدائية كانت تبحث عن مورد الماء الذى يعول عليه عند مصدر له وأن الحاجة للماء وطريقة الحصول عليه كانت تعد من الأمور الخطيرة بدرجة أنها أصبحت موضع الاهتمام الرئيسى من أديان المجتمعات وان وجود المياه والاحتفاظ بمورد ماء يركن اليه كان عاملا سببيا فى أصل المجتمعات المتحضرة الاولية ٠

واحتمال كهذا لا يدعو للدهشة على الاطلاق طالما أن جميع الشعوب الداخلة فى هذه الحوادث العظيمة كانت قد رميت بكارثة مورد الماء لآلاف السنين ، وكانت تستريح منها دون ريب فى بعض الفترات والأزمنة ، ولكنها كانت لا ترتاح طبعا من وطأة تلك الكوارث وتجد شيئا من الراحة من ويلاتها عشية تأسيس المجتمعات المتحضرة ، كان الفلاح البدائى الذى يعيش على أطراف الصحراء حيث كان مورد الماء يميل عادة للنقصان مهددا بنقص فى الماء ، هذا فضلا على زيادة عدد السكان وحاجتهم المتزايدة الى الأيدى العاملة الاضافية فى وقت بذر البذور وفى وقت الحصاد ، كما أننا نفرض ان خطر العجز فى الماء كان معاصرا فقط للزراعة بعد أن كان نوعا من أنواع الضغط التى أدت الى الاكتشاف والتقدم فى طرق ممارسة الزراعة ، لأن العصر الميسولينى قد قاسى من ورائها ايضا وهذا ما تأكد لنا بمشاركة الرموز فى الماء والأرض ، وبناء على ذلك ينبغى أن نظن ان المخاوف ازاء مورد الماء كانت قد رسخت قبل الآن بثبات فى

عقول المؤسسين ، اذا كان هذا يعد اصطلاحا واقعيا للمجتمعات المتحضرة الأولية قبل أن يتم التأسيس ، وان ما حدث بعد التأسيس وقتئذ كان تخصيصا للمشاعر التى كانت قد تسربت ســــابقا بتعمق ، وشرحت بالتأكيد قبل ذلك فى الاصطلاحات الدينية .

ولكن التخصص اصطلاح ضعيف جدا لا يستطيع أن يعبر تماما عن نوع التغيير فى الديانة التى حدثت عندما اتخذت المجتمعات المتحضرة الأولى لها شكلا وموضوعا ، لقد ذكرنا فى الفصل الأول أن الاديان الجديدة قد نشأت مع زعاماتها ، وان تلك الاديان قد تكونت على أساس أن المشاعر القديمة قد تسربت بعمق ، واذا كان أى انسان يشك فى هذا فانه من الممكن أن يبرهن عليه برهانا ثابتا عن طريق النتــــائج المقررة الجديدة المتماسكة فى التنظيمات الكهنوتية السياسية التى أعقبت نشر الاديان الجديدة وتأسيس المجتمعات المتحضرة ، ولكننا لا نعالج هذه الأمور فى هذا الكتاب . ويبقى شىء واحد نعرض له فى هذا الفصل وهو عرض عناصر اخرى غير عبادة الماء فى الديانة عند ظهور المجتمعات المتحضرة الأولية على قدر ما يمكن اكتشافها .

ويوجد اثنا عشر الها فى مصر ليس من بينها سوى ستة آلهة فقط ذات أهمية وتظهر فى لاهوت ممفيس ، ولم تظهر الأسرة الأولى التى تتحدث الوثنية عن قيامها فى زمن مبكر طبعا من التاريخ المصرى ، لقد ظهرت فقط فى زمن مبكر من معرفتنا الحقيقية بها . ولكن من المـــــكن أن نرى فى الوثيقة أن بعض الآلهة كانت قد تقدم عليها آلهة قبل ذلك كما حدث من قبل فى حالة أوزيريس ، وهكذا فان « أتوم » لابد وانه كان قديما وقتئذ وعلى ذلك فاننا قد نخمن أن عبادة الشمس قد تأسست فى زمن سابق . ومع هذا يوجد بعض ما يحملنا على الظن بأن عبادة الشمس قد قامت فى الدلتا وان الدلتا قد اجتذبت الى الحياة المتحضرة فى مصر فى وقت ما بعد نشوء المجتمع (٦٠) وربما كان الاله « حورس » والاله « سيت » قديمين أيضا ، ولكننا لانستطيع أن نجزم اذا كان اله السماء واله الأرض كانا متعاقبين ، وكانا مجرد الهين محليين فى الاجزاء المختلفة من مصر العليا وأن كاهن كل منهما كان منافسا للكاهن الآخر كما لا يمكننا أن نقول انهما لم يكونا كذلك (٦١) .

---

(٦٠) من المؤكد أن عبادة الشمس قد نشأت في الدلتا وربماني (هليوبوليس) حيث عرفت من الاسرة الثالثة فصاعدا .

(٦١) اعتقد على الاقل انها كانا من اصل متشابه .

كانت آلهة العراق «انو» و «انليل» و «ننهوساجا» ينظر اليها فى الأزمنة التاريخية الأولى باعتبارها أقدم من الاله « أنكى » من بعض النواحى وكانت « ننهوساجا » فى الواقع هى الارض وهى بهذا المعنى كانت متصلة اتصالا وثيقا بالماء العذب الذى كان يشتمل عليه «أنكى» ولكن «ننهوساجا» لم تكن مجرد الأرض على الخصوص ولم تكن أهميتها ترجع فقط الى صلتها بالماء كما كان الحال فى « القط المعبود » فى مجتمعات العالم الجديد ٠ربما كانت « ننهوساجا » أصلا كذلك ، وكانت الأم كذلك من (النمــــوذج السابق) لآلهة الخصب البشرى وهى على هذا الوصف تكون معروفة تماما لنا فى مجتمعات الشرق والشرق الادنى المتحضرة التىجاءت فيما بعد وربما قد وجدت بهذه الصفة فى أصل مجتمع العراق .

أما عن « أنو » و « انليل » فانهما يمثلان القوى الطبيعية الأولية وأظن انه من المغالاة فى الشك أن نرفض قبول هذه القوى بصفاتهــــا الاصلية المختصة بها . . كان « آنو » اله السماء أما «حورس» فلم نكن نعرف عنه شيئا ، ومع هذا كان « انو » المعبود المختص بالرياسة فى هيكل كل الآلهة الذى نظم منذ أقدم أزمنة التاريخ والذى نعرفه فى العراق كما أن أنليل يمكن أن نصفه بأنه كان ضابطه التنفيذى الرئيسى ٠

ويعتقد فرانكفورت أن شهرة « انليل » تعزى لتفوق علماء اللاهوت فى « نيبور » موطن الاله «أنليل » (٦٢) ويعتقد أنه من المحتمل أن يكون طموح انليل السياسى قد صاحب طموحه اللاهوتى حتى لو كانت تلك المطامع هادئة نسبيا ، وسياسية مسالمة بشكل ما ولم تكن « نيبور » مدينة من أقدم مدن المجتمع ٠٠ ومن المحتمل جدا الا يكون «انليل» أقدم من « نيبور » وفضلا على ذلك فان تمجيد المعبــود بمأثرة من علم اللاهوت لا يمكن أن يكون قد جرى فى وقت مبكر جدا فى تاريخ المجتمع ٠

وفى الواقع أن تصور قيادة رباعية بين الآلهة قيــادة انو وانليل وننهوساجا وانكى انما يصرح للسماء بعمل المدارس اللاهوتية وقد أوحى بالبواعث الكهنوتية ـ السياسية ، كان « انو » على ما يظهر الها قائدا جاء فى زمن متقدم عن سواه وجعله رئيسا أو الاعتراف برياسته انما يعتبر ترضية من السلطة السياسية الجديدة لمن تقدمه فى الطليعة الذى كان من غير الحكمة التهكم على قداسته والسخرية منهــا ، أما مهــارة انليل السياسية فانها توحى بمراعاته النظرية لانو ومركزه كأخ أكبر ، أن

---

(٦٢) انظر ص ٢١٦ ـ ٢١٧ م Frankfort Kingship

الكهانة الماهرة التي تطالب بالزعامة على المجتمع أو « لاسحق » (أمير مدينة أو مستأجر لآلهة المدينة) كان يمكنها أن تعترف تماما برياسة « انو » فى حين تجرده من مادته وتطالب بنسيبهم الغريب لالههم انليل مع الاله العظيم الأسيق « انكى » بينما تؤكد التفوق للأخير نظرا الى انليل كاله أكبر وأنكى كاله أصغر (٦٣) أما الآلهة «ننهوسساجا» فمن المحتمل ألا تكون قد تدخلت تدخلا كبيرا فى الصفقة فانها كانت دائما على اتصال وثيق بانكى (٦٤) ولكنه ــ والآن لكى يضمن المركز الأصغر شأنا لذلك الاله المحبوب القديم ــ كان قد عد فى مرتبة دون مرتبة قرينته ذاتها . هــــل ذهبنا الى مدى بعيد جدا حتى نرى فى ذلك تلميحا خاصا ؟ .

انى لا أظن ذلك ، فاذن قد شارك «انو» أو «انليل» الالهة الهامة مع انكى عند قيام مجتمع العراق فى الأصل ، واقل من ذلك بكثير أنهما تفوقا عليه . وربما كانت « ننهوسساجا » عندئذ متصلة اتصالا وثيقا بأنكى ،وان كنا لانعرف انها كانت على اتصال به ، ولكن اذا كان الامر كذلك فان ذلك يوسع فقط مجال عبادة الماء والأرض الأصلية ، وهذا لا يعنى على الاطلاق انهم عرفوا التوحيد عند قيام مجتمع العراق فى الأصل . وربما كانت الآلهة الاخرى عديدة تماما ، فالأرواح والعفاريت والآلهة الحراس فى العراق على الخصوص الذين كانوا تركة من الماضى البدائى مثل الاله أنكى نفسه وربما كان الناس يوقرونهم وربمـــا جعلوها كأم حتى « انو » و « انليل » من بينهم . ولكننى لا أظن أنه كان من بينهم من كان مساويا لأنكى فقد كان أنكى اله زمانه .

أما بالنسبة الى الهند فان البقايا الاركيولوجيه للدورة الاولى التى نعتمد عليها أيضا فانما تتبين ثلاثة عناصر اساسية بجانب احتمال وجود عبادة الماء ، العنصر الأول هو الهة أنثى تشبه الآلهة المحلية وهى الارض الأم التى تهتم بالخصب ، أما العنصر الثانى فهو عبادة عضو التذكير وهى باقية حتى الآن . أما العنصر الثالث فيتمثل فى اله يشبه الى حد كبير (سيفا) يرتدى القرون ويجلس كاليوجا ، وتحيطه الحيوانات المفترسة . ويظهر أن المعبودة الانثى كانت من تراث الأزمنة السابقة للتمدن . ومن الممكن جدا أن يصدق ذلك أيضا على عبادة عضو التذكير وعبادة سيفا لأنها كانت مرتبطة بعبادة عضو التذكير ، كانت تلك المعبودة تصور على شكل

---

(٦٣) ان الراى القائل بأن هذا ما فعله انيل لا يمتى ي نظرى الاعتقاد بالحسد والمنافسة بين الكهانة القديمة .

(٦٤) انظر المقامرة العقلية .... فرانكفورت .

عجل البحر تخدمه الحيات على كل جانب كما يلازمه بعض النساك البشريين. وعلى ذلك فاننا نظن أنها كانت متصلة بعبادة الماء (٦٥) ٠ ولكن لا توجد لدينا أية اشارة تبين أهمية العبادات الاخرى بمقارنتها بعبادة الماء فى الوقت الحقيقى عند قيام المجتمع فى الأصل ٠

واننا عندما ننظر الى العبادة الهندية على وجه العموم على اعتبار انها عبادة الخصب يلعب الماء فيها دورا هاما خاصا ويحدث الشىء ذاته فى عبادة كريت كما رأينا قبل الآن ٠ أما بخصوص كريت فانه لايوجد فى الواقع سوى المعبودة الانثى أو المعبودات اللواتى تتركز حولهن عبادة الخصب ، أما المعبود الذكر الغامض فانه من المحتمل انه كان بدعة جاءت فى زمن متأخر ٠ واذا كانت هناك مظاهر أخرى غير الخصب فى ديانة كريت الأولى فاننا نجهل كل شىء عنها ٠

كما اننا لازلنا فى ظلام ازاء المعتقدات الصينية القديمة ، ومن المحتمل أنه يوجد عنصر فلكى هام ولكن لايوجد ما يحملنا على اعتبار هذا كعنصر أساسى ٠ واننا نعلم فى الواقع عن مثل ذلك التقدم فى كل مجتمع آخر من المجتمعات المتحضرة الأولية ماعدا المجتمع الهندى ويوجد ما يدعو لاحتمال وجود التقدم فى المجتمع الهندى على السواء (٦٦) ٠

وهناك عبادة أخرى أخطر بكثير من حيث علاقتها بالمجتمع الصينى وهى عبادة الأسلاف ولما كانت عبادات كهذه معروفة جيدا بين البدائيين. فانه من الممكن تماما أن نرجع العبادة الصينية الى الاصل فى المجتمع الصينى ، ولكن لما كانت الممارسات الجديدة الدينية كثيرا ما تدخل المجتمعات المتحضرة فى وقت الانتقال من دورة الى أخرى فانه من الممكن أن تكون عبادة الاسلاف قد جاءت الى الصين فى زمن «شانج» المتأخر وزمن «شو» المتقدم عندما كان يحدث ــ فى رأيى ــ ذلك الانتقال (٦٧) ٠

ويرجع دليل الديانة فى المجتمع الانديزى الى زمن قديم ٠ وتسنده دلائل من عصر «موشيكا» بعد ذلك بعدة قرون ، كانت عبادة (الارض ، الماء) عبادة المجتمع الأصلية التى امتدت فيما بعد لاتجاهات أخرى ، وثمة احتمال هو ان السكان البدائيين فى أمريكا الجنوبية قد عبدوا الأسلاف ، وأنه كانت لديهم عبادات أخرى على السواء وأنه توجد آراء معينة ترجع

---

(٦٥) انظر الفن فى آسيا الهندية Zimmer ص ١٦ ٠

(٦٦) انظر حضارات اندوس القديمة ٠ Earnest Maclay لندن ١٩٤٨ ص ٦٨/٦٩ ٠

(٦٧) انظر ص ١٧٨ Creel

للازمنة المتأخرة من تاريخ المجتمع المتحضر بأن عبادة الأسلاف قد قامت هناك (٦٨) ٠ اننا نعلم شيئا عن أمريكا الوسطى ، ومن المحتمل تماما أن تكون عبادة الاسلاف قد وجدت عند نشوء المجتمع (٦٩) وكذلك عبادة الخصب ، ومن الصعب أن نجد دليلا لأى اله من الالهة الاصلية الهامة اذا استثنينا آلهة المطر واله الذرة ، كان اله الذرة معبودا هاما ، وحقا كان صديقا حميما للانسان ، ولكنه كان يعتمد على الهة المطر . وكان يوجد معبود آخر له بعض الأهمية وهو اله النار ، كما كان يسمى فيما بعد الاله القديم ولكنه لم يكن بالحقيقة قديما موغلا فى القدم (٧٠) وكان فى الواقع الها محليا فى مصدره اذ كان ينتسب فى الأصل لجزء من المجتمع الذى لم يكن فى رايى الجزء الذى بدات فيه الحضارة وكان ينتمى الى اقليم الراكين (٧١) ٠

ويوجد أيضا « كويتز الكوتل » كبطل للثقافة وربما كان قائدا للمهاجرين من فيراكروز أو (شياباس) الى وادى المكسيك ، أو قد جلب بعض الخبرة المعينة الى المكسيك من ذلك الاقليم العام ٠ ومهما كان متقدما كان فى الاصل منتميا لجزء آخر غير الاقليم الذى نشأ فيه ، ولا يمكن أن نضمه الى الآلهة الاولى القديمة .

وعلى ذلك فان مصر وما بين النهرين يقدمان امكانية وجود معبود السماء ٠ وربما الصين وان كنت لا أقترح الاسم الذى كان الصينيون يطلقونه على معبود السماء ، وان لم تكن تصوره فى الشمس أو القمح كثيرا ٠ وربما كانت الأرض تحترم على شكل أعظم من صورة المنتج مع الماء والنبات ٠ وربما كانت تعد الأرض نوعا من (الأم للبشرية) فى مجتمعات الشرق الأدنى والهند ، وان كنت أشك كثيرا جدا فى المشابهات بين وظائف الارض كأم للانسان وللنباتات ، أو كمصدر للخصب أو لكليهما يمكن ارجاعها الى مثل هذه الأزمنة المتقدمة ٠ وان أفكارا من ذلك النوع تبدو كأنها من اختراع الكهنة الذين جاءوا فى زمن متأخر ، وكانوا من المتضلعين فى العلم وعلى جانب كبير من الخيال ٠

ان خصب الانسان قد يكون جزءا من الدين ، ولكن لاتوجد مراجع

---

(٦٨) يوضح ما لدينا ان القط المعبود اصبح موضع الاحترام ٠

(٦٩) ليس من المألوف وصف تكريم الموتى في أمريكا الوسطى على انه عبادة الاسلاف وان كانت قريبة منها ٠

(٧٠) انظر ص ٥٨ Vaillant

(٧١) انظر حضارات أمريكا القديمة Atmillas ص ٢٢ – ٢٣ ٠

كثيرة تثبت ذلك ، ان أعظم مرجع بدون شك هو زيادة احتمال الخصب قبل قيـــام المجتمعـات المتحضرة بين المزارعين البدائيين الذين أرادوا المساعدة فى مزارعهم ، وربما قوت العدو للحماية ضد الأعداء سواء أكانوا من البشر أم من الحيوانات أم « ننهوساجا » كما عرفت فيما بعد فى تاريخ ما بين النهرين ، فقد كانت الهة الخصب ، وعادة يفترض دون اقامة الدليل على ذلك بان آلهة كريت كانت هى آلهة الخصب وتوجـد بعض الادلة الفعلية على وجود عبادة الخصب فى مجتمع امريكا الوسـطى كمـا ان «كالجرن» يرى الدليل على وجود عبادة آلهة الخصب فى الصين أيضا ٠

وانى أرى أن جميع المجتمعات المتحضرة كانت تكرم الاسلاف من موتاها بطريقة ما لأن العادات المألوفة من هذا القبيل كانت تمــارس بكثرة بين البدائيين ٠ ومن المستحيل علينا أن نعرف على وجه الدقة أى شكل من الأشكال كان يتخذه القدماء فى تكريم موتاهم من الأسلاف ، ولكننى أظن أن المسألة هى ما اذا كان المتحضرون الأول يتذكرون أجدادهم بالاحترام والمحبة فحسب أو كانوا يعتقدون بأن لأسلافهم قوة مسيطرة عليهم تدفعهم للخير أو للشر ٠ وربما ظنوا فى جميع الحالات أن اسلافهم قد بقوا بطريقة ما وعلى ذلك فقد اتخذوا بعض التدابير لجعل الحيـــاة الجديدة بهجة لهم ٠

وبجانب آلهة السماء والارض عبادات الخصب وعبادة الاسلاف كانت توجد على وجه اليقين كثير من المعتقدات التى ترجع الى الاعتقاد بأن كل الأشياء لها روح ، والاعتقادات فى الأرواح الحارسة أو الارواح المألوفة ومعتقدات أخرى قد توارثوها عن الأزمنة البدائية ٠ أما المسائل الحقيقية فهى الى أى حد من القوة كان هذا التراث عندما حلت المجتمعات المتحضرة الأولية ٠ وبما انه ثبت انه من الصعب أن نكتشف أى شىء فانه يمكن أن يستنتج أن تلك المعتقدات لم تكن قوية بدرجة كافية بحيث تترك تأثيرا عظيما ــ كتأثير الالهة العظيمة ــ ولكن بعض تلك المعتقدات كانت قوية الى حد كاف لأن تترك آثارا كافية للكهنة من أصحاب العقول الذكية المتأملة للاحتفاظ بكل ماكان يأتيهم من معتقدات وتحويلها فى بعض الحالات الى شىء جديد مؤثر ، ومن الواضح أيضا أن المعتقدات قد تركت تأثيرا أقل شأنا من عبادة الماء ، فانه مع هذا أصعب بكثير ان تجد أى شىء عن العناصر الأخرى فى الديانة غير عنصر الماء ، ومن افتقارنا للدليل فاننا قد نستنتج ان عبادة الماء أو عبادة الماء والارض كانت الاعتقاد الفعال حقا عند قيـام المجتمعات المتحضرة الأولية فى الأصل ، أما العناصر الأخرى التى تكون الديانة فلم تكن قد طمست بل ربما قد لاقت شيئا من الحماسة الجديدة

ولكنها لم تستطع أن تشارك مشاركة تامة عبادة الماء فى مكانتها لانها لم تكن لديها الاجابة الخاصة على سؤال الساعة ٠ اما ما يبدو أنه قد حدث فهو أن عبادة الماء كانت قد جربت من بين الاديان الشائعة التى كانت تؤمن بها الشعوب الأصلية ، وقد رفعوا من شأنها لتخدم الهدف الذى يرمى للتغلب على الأزمة التى هددت بقاء الشعوب ٠

وثم دليل للديانة الجديدة فى بعض المجتمعات ولا سيما مجتمع الانديز ومجتمع مابين النهرين فقد ظهر اولا فى مساحة صغيرة تماما ومحدودة من المجتمع ومن ثم انتشر نحو الخارج ، ان الشىء الجديد الذى انتشر بهذا الشكل ينبغى أن يؤخذ فيما أعتقد على أنه تكوين ملتحم لبشارة تامة تتضمن الجديد والقديم والأغراض الايجابية التى تمت فى الموطن الجديد وشروط الفرار من الخطر الذى يوجد فى الموطن القديم ٠

أما فى حالة العراق فيبدو أن المستوطنين الاول صاغوا البشارة ، ثم سلموها الى من جاء بعدهم أو ربما يكون الذين جاءوا فيما بعد قد قاموا بتقليدها، ولكن لابد انه كانت توجد مجتمعات آخرى قامت فيها البشارة الجديدة فى احد الاركان ثم انتشرت فى مكان آخر بين المستوطنين الذين رسخت اقدامهم فى ذلك المكان، ومع هذا توجد مجتمعات أخرى نشأت فيها أنواع الوحى والالهام المتنافسة فيما بينها ثم اندمجت أخيرا أو حل واحد منها مكان الآخر — وان تنوع هذه العمليات له قيمة صغيرة على الأرجح . أما الشىء الأهم من ذلك بكثير فهو أن جميع المستوطنين — سواء أكان بانفسهم أم عن طريق قادتهم — كانوا يكونون عقيدة معينة متماسكة ، وكانوا فى حالة استعداد للايمان بعقيدة شبه مقبولة كانت تعبر عن اختيارهم بطريقة مقنعة وتقدم لهم تأكيدات مرضية لخروجهم وهروبهم من الخطر ولوصولهم للأمان وان كان من المحقق أنه مقيد بشروط ٠

واننا ندرك اذن فكرة تجمع الناس معا لتكوين مجتمع بحيث يكونون فى حالة عاطفية معينة محددة ، وانتشار الديانة بينهم فيما بعد ٠

الفصل السادس

الخاتمة معنى ظهور المجتمعات المتحضرة

يمكن أن نعبر عن معنى مجيء المجتمعات المتحضرة بالنسبة للانسان فى ثلاثة فروض :

الفرض الأول ، له علاقة بالأصل الواضح المنفصل وبالكيان الذاتي لكل مجتمع متحضر ، وهو لذاتيتها .

الفرض الثانى يسعى لبيان عملية نشوء المجتمعات المتحضرة الأولية فى الأصل وعلى الأخص عوامل البيئة المؤثرة وأعمال ومعتقدات الناس فى هذه العملية .

أما الثالث فهو محاولة لبيان جدة هذه المجتمعات المتحضرة وكيف ظهرت هذه الجدة .

لقد كونت هذه الفروض الثلاثة ما اكتشفته من هذا الكتاب .

انها لاتكون الصفات المميزة النهائية للمجتمعات المتحضرة ــ ذلك لأن بعض المواد التى تعتمد عليها فى بيان هذه الصفات المميزة للمجتمعات المتحضرة ليست نهائية وليست مؤكدة ولكن يمكن أن تتخذها كخلاصة بيانات عملية شاملة لما حدث عندما قامت المجتمعات المتحضرة أولا ، كما انها تقدم ما يساعد على الادراك الأولى للأهمية الممكنة بعمل الانسان المتحضر حسب ما زاول من اعمال منذ ان بدات الحياة البشرية من ستة آلاف عام وربما منذ أكثر من ذلك .

ولقد بينا فى الفصلين الثالث والرابع من هذا الكتاب أن كل مجتمع من هذه المجتمعات السبعة الاولية كان فى الاصل منفصلا كما كان متميزا ، وقد ناقشنا فى الفصل الاول عدم صحة النظريات المتنوعة عن أصل هذه المجتمعات المتحضرة والصفات المشتركة فيمابينها

او خروج كل مجتمع من المجتمعات الاخرى . وان وجود أصل منفصل لكل مجتمع قائم بذاته من هذه المجتمعات السبعة الاولية المتحضرة شيء ضرورى لفهم أسباب قيام كل مجتمع على حدة والصورة المنفصلة وطريقة سيرد وتقدمه .

كما أن انفصال هذه المجتمعات بعضها عن بعض شيء له أهميته كذلك، لانه يبين هذه الحقيقة الهامة ، وهى أن الاحداث الكبرى فى حياة الجنس البشرى يمكن أن تعمل ، وانها تعمل فعلا بطريقة تكرارية .

ولكن ينبغى ألا ننسى أن التجربة الرئيسية للاسباب العملية كانت مصحوبة باختلافات طارئة أو بعض هذه الاختلافات ذات تأثير . وقامت خمسة مجتمعات فىوديان النهر وقامأحدها فى جزيرة صغيرة وقاممجتمع ثان فى غابة استوائية ممطرة . أما مغزى هذه الاختلافات الذى له أهميته العظيمة حقا فانه يبين فى أثناء عرضالرأى الثانى لان الاختلافاتوالتكرار الرئيسى الاكبر ضروريان للوصول الى فهم الاسباب وطريقة قيام هذه المجتمعات فى الأصل .

وسرعان ماقامت وجوه شبه هامة بين تلك المجتمعات لم تكن نتيجة الطبيعة التكرارية فىأصل المجتمعات فحسب ، لقد أخذتالمتجمعات كثيرا من الملامح الثقافيةالواحدة من الاخرى . اماكيف حصلت علىهذه الميزات الخاصة عن طريق الاقتباس أو الاختراع فانه مهما كان مسألة غير هامة الى درجة عظيمة اذا ما قورنت بالكيفية التى نشأ بها المجتمع ذاته ، ذلك لأن المجتمع لا يمكن أن يعتبر — على أية صورة على الاطلاق — مجموع مميزاته الثقافية ، وان الاشخاص فقط الذين تضللهم عصى وأحجار الباحث الاركيولوجى هم الذين يمكن أن يقعوا فىهذا الخطأ دون سواهم .

ان كل ميزة فى الواقع ، وكل منشأة ، وكل ممارسة أو تجربة وكل عمل فنى أو أى شيء فى كل مجتمع كانت تميزه بالنمط الفردى الجميل مهما كان مشابها عظيما للميزات المقابلة فى المجتمعات الاخرى فى الشكل أو العمل ، هذا ما جاء موضحا فى الفصل الاول استنادا الى رأى كروبر .

لقد بحث أسلوب المجتمعات البشرية بحثا تمثيليا — الى اقصى حد فى فنونهــا الجميلة كل ما هو جميل وكل ما هو تمثيلى والاكثر قوة فى تأثيره ، فاذا ما كان هذا أوليا فانه ينبغى أن نحتفظ به فى أذهاننا عند مراعاة الاشياء الاولية وعند قيام المجتمعات المتحضرة فىالاصل،وقد أولينا الفنون الجميلة فى الفصل الخامس عناية خاصة حيث درست الرموز المعينة

المشتركة فى الديانات بين المجتمعات الهندية والصينية وامريكا الوسطى ومجتمع الانديز وقد استخدمت الرموز التى صورها الفنانون فى الاغراض الدينية فى المجتمعات الثلاثة الاخرى كما فى المجتمع الرابع الذى قاسها ببعض الرموز ، وأن استخدام الفنون فى الاغراض الدينية فى الواقع من أهم المجالات التى استخدمت فيها ليس فى المجتمعات الأولية المتحضرة فحسب ولكنه فى جميع المجتمعات على السواء المتحضرة والبدائية .

لقد كانت الديانة الوسيلة الايجابية الانسانية ، العقلية فى خلق المجتمعات الاولية المتحضرة ، وكانت بهذه الاعتبارات كلها عند خلق واعادة خلق جميع المجتمعات المتحضرة ومن الوظائف المعينة التى كانت للديانة ، ولا تزال تقوم بها للآن توحيد المجتمع واعطاؤه عرضا عاما ، ولهذا فمن المعقول أن تظن أن الاسلوب الجمالى لمجتمع من المجتمعات قد يحقق هذا الفرض . ان الادراك اختيار ديناميكى ، يؤثر على عواطفهم ويشربهم بالمشاعر وأغراض المجتمع وقادة المجتمع خصوصا ، ويتطلب منهم أن يختبروا هذه الحالات كلها ، ومن هذا نرى أن يخصص اسلوب المجتمع ليس مجرد حادث عارض ولكنه عامل حيوى فى وجود المجتمع .

وهذا يكمل القضية الاولى .

وان الحاجة للماء فى سبيل البقاء كانت الحاجة القاطعة لاولئك الناس الذين استطاعوا أن يوجدوا المجتمعات الأولية المتحضرة ، وعندما قامت المجتمعات الاولية المتحضرة ، قامت فى ست حالات من بين سبع حالات بتربة لا تنضب ولا يمكن استنفادها ، وربما تعثر الانسان البدائى فى تربة كهذه هنا وهناك فى الازمنة الاولى ، ولكنه اذا كان قد فعل ذلك فانه لم يترك أى دليل له أية نتائج معينة لعمله هكذا ، والذى يعتقد أن نوع التربة الآن فى المجتمعات الستة المصرى والعراقى والهندى ، والصينى والكريتى والانديزى قد سهلت التركيز الدقيق للشعوب التى تكونت منها تلك المجتمعات فى مساحات صغيرة نسبيا على أساس ثابت ، وأتاحت للناس فرصة عظيمة جديدة لزيادة عددهم وربما كانت هناك عوامل فيزيقية اخرى قد عاونت على ذلك التركيز وهذه الزيادة فى السكان وعاونت المساحة المحدودة التى رويت وغمرتها مياه الانهار فى خمس حالات من ست حالات ، وفى الحالة السادسة حالة المجتمع الكريتى كان العامل الطبيعى هو صغر جزيرة كريت ، أما فى المجتمعات الهندية والصينية والانديز فان سهولة الوصول الى الارض المجاورة التى ليست بها موارد المياه ذاتها أو التربة عينها ربما اجتذبت بعض السكان ، ولكنه من الواضح

تماما أن هذا لم يغير ماديا نمو السكان فى المواضع الرئيسية فهل يمكن أن نعد نمو السكان ونركزهم والأساس الطبيعى فى التربة والماء كعوامل مسببة فى أصل المجتمعات المتحضرة الاولية ؟ فاذا كانت كذلك فماذا تقول عن الحالة الشاذة لمجتمع أمريكا الوسطى الذى لم تكن به أية تربة لاتنضب حتى لو كان به مورد مياه ضخم يركن اليه .

ان مجتمع أمريكا الوسطى جدير بالاعتبار أيضا بسبب محوره الأصلى ، كان قلبه فى الأصل اقليم الغابات عند قاعدة شبه جزيرة يقطان التى يسكنها شعب المايا ولم تكن بها اية مدينة بالمعنى الكامل لهذا الاصطلاح كان باقليم الغابات هذا مراكز عظيمة لاقامة الحفلات والطقوس فقط حينما كان النـــاس يجتمعون الى حين فى المناسبات المتعددة للاحتفالات الدينية وفى الاوقات الاخيرة كانوا يتشستتون فى الغابات ، كانوا لا يعيشون مطلقا فى حشود متجمعة كالشـــعوب التى كونت المجتمعات الاخرى المتحضرة الاولية والتى كانت قادرة على التجمع والاحتشـــاد فى أماكن مزدحمة ، ويتميز مجتمع أمريكا الوسطى كما لاحظنا فى الفصل الرابع باتساعه الهائل على وجه الاجمال ولو أنه كان مجتمعا واحدا بكل تأكيد طالما كانت وحدة الديانة فى هذا المجتمع واضحة تماما ، وعلى الرغم من أنه كان فى الحقيقة يتألف من ثلاثة أو أربعة أقاليم أساسية شاسعة كلها منفصلة بعضها عن بعض على الارجح من زمن مبكر جدا ، وليس من وقت نشوء المجتمع فعلا وربمـــا كان مجتمع أمريكا الوسطى عدة أقاليم أصغر من هذه منفصلة بعضها عن بعض ، ومن هذه الناحية كان مجتمع أمريكا الوسطى مختلفا تماما عن جميع المجتمعـــات الاخرى المتحضرة الاولية ، ويظهر أن لذلك الترامى الشاسع لهذا المجتمع بكامله وتشتت سكانه على الاقل فى قلبـــه الاصلى ناحيتين يكشفان عن خاصية هذا المجتمع الغريبة ، أى انه لم يكن فى مقدور المجتمع أن يفعل ما استطاعت المجتمعات الســـتة المتحضرة الاولية الاخرى من حيث التركيز والحصر والحشد فى مساحة صغيرة جدا من الارض حيث كانت التربة منتجة الى درجة خيالية وحيث كانت تتجدد قواها كل سنة .

لقد كانت تلك الحالات مستقلة وسابقة على الاساس الطبيعى الذى سهل تكوين المجتمع ، وهذا لا يعنى أنه لم تكن هناك أية حاجة للاساس الطبيعى ، انه من الصعب أن نتصور أن مورد المياه لم يكن ضروريا ، ولكنه يعنى أن التربة الخاصة وهى جزء من الأساس الطبيعى فى الحالات الست من بين مجموع الحالات وقدرها سبع حالات لم يكن ضرورية ولا

يوجد أى شك معقول حول انه حيث كانت توجد تربة كهذه فان الأصل فى المجتمع المتحضر كان يتقدم بقوة ، ولكن المـــاء والميزات الاخرى التى لا نعرف اذا ما كانت موجودة أولا وتربة خاصــة لم تكن فيما يبـــدو ضرورية ..

ومن المهم جدا أن نعرف ما اذا كانت طبيعة أرض امريكا الوسطى قد أتاحت بديلا مباشرا أو غير مباشر للتربة الخاصة ، ولكن اذا كانت قد فعلت ذلك فانى اجهل هذه الحقيقة .

ومن المحقق أن الأمطار الوفيرة الموجودة فى جميع الأوقات عندما يحتاج اليها مورد ماء أسهل على سكان امريكا الوسطى من الحصول عليه من الأنهار الكبرى بفيضاناتها ، ولكن ليس من الممكن أن نقول فيما اذا كان هذا تعويضا كافيا عن فقر التربة وعدم امكانية الوصول للأراضى القابلة للزراعة .

وهذا يبين لنا الاهمية القصوى للديانة الخاصة من تكوين كل مجتمع من المجتمعات السبعة المتحضرة الاولى ، لقـد استطاعت الديانة فى كل مجتمع من تلك المجتمعات أن تعطى للمستوطنين فى وديان النهر العظيم الشجاعة لتنقية الاراضى والاحتفاظ بها نظيفة خالية من الأدغال والأحراش واعدادها للزراعة وجلب المياه اليها .

ومن المحتمل أن تكون الديانة قد شجعت المستوطنين لأية غابة من الغابات التى تنزل فيها الامطار لان يقوموا بعمل أضخم بكثير وهو تنقية الاشجار وتطهير الغابة الاستوائية التى تنزل فيها الامطار بغزارة واعداد الاراضى للزراعة بعد اقتلاع الاشجار وربما كانت الديانة قد دفعت الناس لعمل عظيم كهذا فى حين كان الاعتقاد السائد أن المياه تأتى مباشرة من وراء القيام بالطقوس الخاصة بآلهة الماء .

اما فى حالة المجتمع الامريكى فانهـا تتبين شيئا غير واضح من الدليل الذى نلمسه عن المجتمعات الستة الاخرى ـ ان هذه الحالة تبين مبلغ الاهمية العظمى التى ترجع للتجمعات الحقيقية لاقامة الاحتفالات الدينية ، فاذا كان هذا يبدو شيئا بدائيا واضحا فانه يعد شيئا آخـر يضاف الى تلك الاشياء البدائية التى يمكن أن نعدها أيضا عنصرية ونجد معناه فى ذلك التمييز العقلى الذى تولد فى الناس الذين اجتمعوا معـا وحشدوا لاغراض دينية كما ذكرنا فى نهاية الفصل الخامس وما بينـه « أميل دوركيم » من تفســير عميق للاختيـارات الدينية فى المجتمعات

مما يختلف تمام الاختلاف عن النوع الذى نميزه فى المجتمعات المتحضرة الاولية .

واننا لا نترك هذه المسالة دون سؤال عن أهمية عبادة الماء على هذه الصورة فان اهميتها الحيوية لتلك المناسبات التى أمامنا قد أصبحت الآن واضحة وضوحا تاما ، ولكن ينبغى أن نعلم أيضا اذا ما كان يجب أن نعد ذلك صفة كامنة باستمرار فى جميع الأديان المتحضرة ، ومن الواضح أن هذا ينبغى ألا يكون كذلك ، ويوجد دون شك شيء باق منه فى معظم أديان المجتمعات المتحضرة فى قلق الانسان على الطعام وامتناعه من الآلهة المفروض عليها أن تقدم له الطعام ، ويقيننا أن تلك المشاعر تنحدر الى حد ما فتصبح عامة من العبادة فى المجتمعات المتحضرة الأولية للالهة أو الآلهات الذين منحوا الماء ، وكانوا فى حالات معروفة عديدة آلهة والآلهات زراعة للخصب على وجه الاجمال ، وهناك استثناء وهو المجتمع الهندى الذى ما يزال فيه الماء مقدسا ، وهذا يمكن أن يعزى الى الطريق السنوى للطقس فى الهند حيث تهب الرياح الموسمية فجأة بعد الجدب الطويل وحتى على هذه الصورة لا تبدو عبارة الماء الهندية اليوم مشابهة شبها عظيما لعبادات الماء التى عرفناها فى أصل المجتمعات المتحضرة الاولية كسلسلة من الأفكار المنقولة عن عبادة متقدمة عنها وأكثر وضوحا وضعها الكهنة لابقاء تقديس الماء حيا فى عقول الناس .

والنتيجة اذن أن عبادة الماء ليست صفة كامنة للديانة فى المجتمعات المتحضرة ، ان أهميتها الكبرى مؤقتة وان كان من المحتمل انها ليست قصيرة العمر ، انها ترجع لاصل هذه المجتمعات السبعة المتحضرة الاولية .

وبهذا تكمل القضية الثانية .

وقد اتضح لنا فى الفصل الاول انه من الصعب أن نجد الاختلافات الاساسية بين المجتمعات المتحضرة والبدائية وقد وجدت عملية النشوء والانهيار الدورى خاصة بالمجتمعات المتحضرة وهل يوجد أى شيء لا تستطيع الشعوب البدائية أن تفعله فى حين أن المجتمعات المتحضرة تقدر عليه ؟

فاذا كان الامر كذلك فان السبب يرجع فقط الى الكم .

وانه من المستحيل أن نحتفظ اليوم بالرأى الذى يقول انه توجد حواجز عقلية لاتذلل تضع حدودا لكفاءة البدائيين . ان الآراء من هذا النوع ظلت تقلب نظرية ليفي برهل (للعقلية البدائية) وبالتأكيد

توجد مشاكل نواجهها فى تعليم البدائيين تعقيدات الاختراعات الفنيـــة الغربية العصرية ، ولكنها ليست مسائل أعظم من الأشياء ذاتهـــا التى نعلمها لافراد أبسط منهم من المجتمع الغربى ذاته .

كما انه لايوجد أى انسان يظن أن فنون المجتمعات البدائية دون فنون المجتمعات المتحضرة عندما شـعر المصـورون والفنـانون والموسيقيون بعجز فى موضوعاتهم المحلية أخذوا يتحدثون الى حد كبير عن المصادر البدائية لاقتباس الموضوعات والأفكار منها .

ولقد رأينا فى الفصل الاول انه وان كانت الكتابة قد اخترعت تقريبا فى المجتمعـــات المتحضرة فان عمليـــة الاختراع كانت تنمو وتتحسن وتضيف شيئا لاختبارات المجتمعات البدائية التى تقاسمها مع المجتمعات المتحضرة ، والآن ينبغى أن نلاحظ أنه من غير المدهش حقا أنه لاتوجد الآن أية عقبات لا يمكن التغلب عليها فى تعليم الناس البدائيين القراءة والكتابة أو تخفيض لغـاتهم الى الشـكل المكتوب وتعليمهم لاستخدامها على هذا الشكل .

أما عن الفكر السامى ــ للفلسفة والمفاهيم العلمية العميقة المتشعبة وعدد من المغامرات العقلية المتصلة بعضها ببعض فان المقارنة تكون أقل سهولة فان البدائيين على قدم المساواة تماما مع المتحضرين فى كل مايتطلب التأمل الذى يتوقف على الممارسة الخالقة للخيال ، خذ مثلا مايمكن أن يسمى « الميتاسيكلوجى » عند الناس الذين يقطنون اقليم نيجيريا العليا داخل أفريقيا الغربيـــة أو عـــالم الارواح فى «نور » فى الجنوب الشرقى للســـــودان فانه من الممكن جدا بل ومن المحتمل فعلا أن يكون هؤلاء الافريقيون قد وصلوا الى أعلى التصورات الفكرية بفضل تفشيهـــا فيما بينهم وقد جاءتهم فى حذق من (ممفيس وطيبة والاسكندرية) ولسنا فى حاجة الى أن نذكر المصادر المتأخرة والتى جاءت فيما بعد ولكن هذا لا يدل أقل دلالة على انهم لم يستطيعوا أن يحصلوا على ما يماثلهـــــا لأنفسهم .

وبالفعل قد يكون من الممكن جدا أيضا ان يكون بعض الانتشار قد اتجه فى اتجاه معكوس ولكن يوجد اختلاف عظيم فى مستويات الفـكر الخطير الذى توصلوا اليه فى هذين النوعين من المجتمعات .. وحقيقة يمكن أن نرى ان التأمل كما هو معلوم لنا فى المجتمعات البدائية أوسع واكثر حرية منه فى المجتمعات المتحضرة . وذلك لأنه يبقى دون انتقـــاد كبير نسبيا فى المجتمعات البدائية وان التفسير المباشر للاختلاف هو كما ارى مجرد المعرفة الواسعة للعالم الطبيعى التى يحصل عليهـــا المجتمع

المتحضر من بيئته التى هى أوسع الى درجة عظيمة والتى هى أكثر تنوعا (عادة) فيدرس العلماء معلومات عظيمة كهذه دراسة مقارنة ، ومن المحقق أنهم يصححون التأمل الذى أطلق له العنان والذى جاء من زمن متقدم عن هذا ويكون جزءا كبيرا منه فى واقع الأمر قد توارثه عن المصادر البدائية .

وهنا ينبغى أن نلاحظ شيئا آخر أيضا . وهو أن المجتمعات المتحضرة تبدأ حياتها بالفروض المتعلقة بفلسفة الكائنات وبعلم اللاهوت وبغيرها من الفروض الكبيرة الاخرى التى لا تختلف عن تلك التى فى المجتمعات البدائية وان الاساطير التى جاءت فى الفصل الثالث والرابع والخامس تبين هذا ولم يبدأ النقد بصفة جدية الى أن جاء عصر العقل ، الا أنها كانت بلاشك من تراث الماضى الذى لاأثر فيه للنقد .

وأيا ماكان الامر ففى الوقت الذى تبدأ فيه هذه العملية فانها تتحرك بسرعة فان المعدل المرتفع للتغيير خاصية من خصائص الحياة المتحضرة تعمل فى الفكر كما تفعل تماما الوظائف من النواحى الاخرى . وهذا فرق كمى آخر بين المجتمعات المتحضرة والمجتمعات البدائية ، ومع هذا يمكن أن تتعلم الجماعات البدائية حتى قواعد منيفة جسادة مع ان أولئك الذين تعلموها قد عملوا هكذا باعتبارها جزءا من عملية الاندماج المتحضر فى المجتمع ومن الجلى أن البدائيين يستطيعون أن يعلموا كل مايقدم لهم من تعليم ، وربما كان كله تقريبا من قبيل التبسيط أو التحسين ــ كالطرق المختصرة لعمل الاشياء والاختراعات السريعة التى تؤخر الوقت والجهد ــ وهذا فى التفكير على الخصوص أو ادخال التحسينات على الطرق بتوحيد الاغراض المحدودة .

ومن ناحية أخرى فهناك حقيقة تاريخية وهى أن البدائيين لم يخترعوا هذه الافكار والتجارب فى حين أن الشعوب المتحضرة هى التى اخترعتها وحققتها . واننا نتساءل هل من الممكن ان تتصور حالات افتراضية استطاع فيها البدائيون أن يخترعوا هذه الاشياء لانفسهم ؟ ان الاجابة عن هذا السؤال ــ كما أعتقد ــ بسيطة جدا ربما كانوا قد فعلوا ذلك لو كان قد استمر تقدم المجتمعات الانسانية بمعدل سرعة تدريجية تطورية لابد أن كانت قد ظهرت الظروف ــ آجلا أو عاجلا فى هذا المضمار التطورى ــ التى تتطلب تلك الاختراعات والتخصصات وتنشأ القوانين التى فرضتها الفرصة أو المصادفة وهذا يقدم لنا أن وجهة النظر الثالثة الأخيرة الهامة فى طريقة معرفة الأصل فى قيام

المجتمعات المتحضرة كانت ثورة بل كانت في الواقع سلسلة من سبع ثورات .. كانت كل ثورة تسير في الطريق ذاته في جوهرة وبالقرب منه في الواقع ، وكانت نتائج كل ثورة كنتائج الثورات الأخرى على السواء .

ولقد وجدنا عندما حدثت الثورات انهـا حدثت عندما ترك البدائيون الملاجىء الباقية التى كانوا يلجئون اليها فى المناطق الصحراوية ويبحثون عن مأوى جديد فى وديان النهر أو أى مكان آخر من الأماكن الهائلة التى كان الماء فيها وافرا . ولقد عرفنا لماذا حدثت الثورات .. ؟ لقد حدثت لأنه لم توجد الموارد ـ المادية الكافية لعول سكانها واستهدفت حياة هؤلاء السكان لأعظم الأقطار ، ولم يعد بامكانهم البقـاء على قيد الحياة ، وكان هذا التغيير الذى حدث يتطلب قيام ثورات .. وحدثت هذه الثورات السبع بسرعة عظيمة ».

وحدثت هذه الثورات منذ أن شعر النـاس انهم وقعوا فى هـذه الظروف من وقت تركهم لمواطنهم السابقة والوقت الذى بدءوا فيه تكوين المجتمعات المتحضرة فى المواضع الجديدة التى هاجروا اليها ، ولانستطيع أن تعينه أى زمن من هذين الزمنين على وجه الدقة ، ولدينا من الأسباب مايحملنا على الظن انه فى معظم الحالات ان لم يكن كلها أن المجتمع المتحضر لم يظهر الا بعد أن قضى الناس وقتا ما يمكن أن نقدره ببضعة أجيـال أو حتى بقرون ـ فى أطراف تلك المواضع أو فى المناطق الاخرى المتاخمة لها أو على الحافة ، وربما قضوا هذا الزمن يتعلمون كيف يعيشـون فى هذه الاماكن ، ولكن لايشك أحد فى أن الوقت الذى كانوا يحتاجون اليه للقيام بهذه التجارب كان محدودا اذا ماقارناه بالمدة التى قضتها المجتمعات البدائية أو حتى بالمدة التى قضتها المجتمعات المتحضرة ذاتها .

وكانت نتائج هذه الثورات ـ اذا مانظرنا اليها من الخـارج لاول وهلة ـ عظيمة بقدر ماكان الزمن الذى استغرقته صغيرا ، كانت النتائج فى كل حالة من هذه الحالات هى تجمع المئات معا وتكتلهم معا ، وربمـا كانوا يتكتلون أيضا بالآلاف لكى يكونوا مجتمعا واحدا .

ولكن التكتل كان أكثر من مجـرد الضم او الجمع .. كان التكتل شكلا من أشكال التركيز فى الدافع الدينى للمجتمع الذى تحدثنا عنـه والذى يعلق « أميل دور كيم » كل هذه الأهمية عليه .

لقد عرض « هنرى برجسون » رايا له علاقة بهذا الموضوع . انه يتصور أن هناك فرقا بين الديانة الساكنة التى توجد لربط افراد المجتمع

بعضهم ببعض ولكى يبقى هذا المجتمع متينا ضد الغرباء وبين الديانة الديناميكية التى تفتح المجتمع لجميع البشر لمجتمع واحد ، وهذا وصف صحيح لما حدث حتما فى الثورات التى علينا ان نعرض لها .

لقد اكتشفنا كيف ان عبادة الماء فى جميع الاحتمالات وفى جميع الحالات قد أصبحت الانجيل الجديد الذى كبر واتسع وحل مكان الديانة الساكنة القديمة بالشكل الذى صوره برجسون الى حد كبير جدا .

وكيف أن فى كل مجتمع جنينى التكوين قبلت المجتمعات البدائية الانجيل الجديد ذاته . ولقد رأينا أيضا فى بعض حالاتنا السبع شيئا لم يحدث أن استرعى نظر «برجسون» وهو الفنون التشكيلية اللدنة التى استخدمت فى الديانة الجديدة لتمثيلها فى رموز وخلق الطراز البدائى الخاص لكل مجتمع معبر عن طموحه ومثله العليا .

غير ان « برجسون » لم يبين الى اى حد ذهب اليه ثبات المجتمع ، لقد اكتفى بأن قال ببساطة : ان المجتمعات المتحضرة اصبحت كما كانت المجتمعات البدائية مجتمعات مغلقة وهذا مايمكن ان يحمل على الظن بانه قد حدث الثبات التام . والقوة التامة ، ومن الصحيح بلا ريب ان التجميد الدينى قد مات تدريجيا بعد ان تمت الثورات السبع على قدر ماتم منها عادت الديانة ساكنة من جديد كانت العبادة ذات اهمية دقيقة لقد كانت حيوية فى زمنها الحاسم البات وقصد الانسان المتحضر أشياء أخرى ووجد مايدفعه فى الواقع ليحمل بيئته الطبيعية الجديدة شيئا فشيئا تحت سيطرته، وزاد تحكمه فى هذهالبيئةالطبيعية زيادةمتواصلة وجعلها تكيف هذه البيئة ذاتها طبقا له بالاحرى أكثر مما يكيف نفسه لبيئته ، وكان هذا فى الحقيقة اعظم عمل استمر الانسان يعمله وتميز به، ونجاحه فى هذا العمل المتواصل هو الذى يلهمه كل يوم ، وهو الذىيفتنه كل يوم ، ولاهم للانسان سوى أن يجعل بيئته الطبيعية هى التى تكيف ذاتها للانسان أكثر مما يكيف هو ذاته لهذه البيئة .

ولكن مجتمعاته المتحضرة تكشف عن عدم الاستقرار الى درجة عجيبة تماما أو جديرة بالاعتبار حقا . . ان تدعيم تلك المجتمعات أو تثبيتها لم يكن بالتأكيد كاملا . ان فنون هذه المجتمعات كانت حقيقة قوية فى الأزمنة المحدودة على الاقل ، وكانت تحتفظ وتنمى بكل طريقة النمط المميز لمجتمعه . وان المجتمعات المتحضرة ماكانت تكاد تعد

مجتمعات على الاطلاق لولا نجاح هذه الفنون ولولا مظاهر هذه الاساليب الواضحة ، ولكن هذه الفنون لاتعلن الا عن الامانى والطموح .. ولكن المآثر والاعمال المجيدة تأتى بعد التطلع والامانى ، وحتى فى المظاهر الخارجية فى الشكل السياسى نجد أن المجتمعات المتحضرة قد بلغت الوحدة فقط فى القرون المتأخرة من كل دورة من وجودها وفى المراحل الاولى من الدورة كانت مشهورة بعدم اتحادها وفى بعض الأوقات بارزة بالنضال الحربى المهلك على نطاق مريع .

ولقد انحدر كل مجتمع متحضر عند نهاية كل دورة من تاريخه الى التقهقر وهناك برزت منه او مالت الى البروز وحدات صغيرة مشابهة تماما للمجتمعات البدائية التى كانت قد تكتلت معا فى الاصل لتكوين المجتمعات السبعة المتحضرة الاولية ، اما المنطق فى هذا فواضح تماما وقد أصبح الآن معروفا . تكونت المجتمعات المتحضرة الاولى عند انهيار المجتمع المتحضر جاءت مبادىء « برجسون » لتطبق من جديد فعلا ومبادىء « دور كيم » للأخذ بها حقا .. هذا ما وقع فى ذلك الحين تماما قامت ديانة جديدة وقامت ثورة جديدة كان قد بدأ الانتعاش ... الانتعاش الدورى فعلا واعيد خلق المجتمع او خلق مجتمع جديد عن طريق التكتل .. تكتل بقايا المجتمع القديم .. وأراض جديدة وشعوب جديدة أيضا .

ولكن تاريخ هذه الأحداث الهامة المتكررة بشكل دورى هو تاريخ المجتمعات المتحضرة كما تمت وتطورت بعد قيامها وحتى اليوم ، ويمكن أن ينتهى هذا الكتاب على ذلك بسؤالين عن ذلك التاريخ : هل مجىء المجتمعات المتحضرة ادخل فى عصر من حظ الانسان أن يكون انتقاليا فحسب ، عصر لم يكن به أى مجتمع راسخ رسوخا مأمونا بل كان مجرد سلسلة من المحاولات لتكوين المجتمعات ؟

واذا كان الامر كذلك فهل ستكون المحاولات فى النهاية ناجحة أو غير ناجحة ؟

تم الكتاب

فهرس

الموضوع الصفحة

الدار القومية للطباعة والنشر



هذا الكتاب

يتضمن الكتاب دراسة جديدة لأصل المجتمعات المتحضرة وعرضا مقارنا للتيارات الحضارية فى مناطق مختلفة فى العالم ، كما يعرض الكتاب للاساطير المختلفة وارتباطها بنشأة الحضارة ، وقد عنى المؤلف بصفة خاصة بالقارة الافريقية ودورها كأصل مبكر من أصول الحضارة .

العدد ٩٩

الثمن ٢٠ ص

الدار القومية للطباعة والنشر